الدراسات الأمنية

والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية

تصدر عن مجلة الأمن

العدد ٨٩ ـ ٢٠٢٢

مجلّة فصليّة محكَّمة من قبل وزارة الثقافة اللبنانية تحت رقم ٢٥٧٣/م.إ.م/٢٠٢٠

العنوان: الأشرفية ـ شارع بيضون ـ ثكنة الملازم الأول الشهيد الياس الخوري

الموقع على الإنترنت: www.isf.gov.lb

الإدارة: هاتف ٠١/٣٢٨٠٦٤ ـ فاكس الإدارة: ٠١/٣٣٨٧٢١

التحرير: هاتف: ٠١/٢٠٤٣١٥

البريد الإلكتروني: alamenedtn@isf.gov.lb

alamendirasat@gmail.com



ثمن النسخة: ١٠٠٠٠ ل.ل.

الطباعة: مطبعة العربية

شروط النشر:

ترحب مجلة الدراسـات الأمنية بإسهامات الباحثين المهتمين بالدراسات الأمنية على مختلف اتجاهاتها وأبعادها اللبنانية والعربية والدولية. وتحيط المجلة الأخوة الباحثين علماً بشروط النشر فيها:

- أن تعالج القضايا بأسلوب علمي موثق.
- أن يكون التوثيق قائماً على ذكر المصادر والمراجع بأسلوب أكاديمي يتضمن:
  أ ـ الكتب: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، مكان وتاريخ النشر، اسم الناشر.
  ب ـ في المجلات: اسم كاتب المقال، عنوان المقال، رقم العدد وتاريخه، رقم الصفحة.
- معايير النشر: الموضوعية، المستوى العلمي، الدقة ودرجة التوثيق.
- يفضل أن يكون النص مدققاً لغوياً ومطبوعاً على الكمبيوتر، ومرفقاً بالقرص تجنباً للأخطاء المحتملة، وإن تعذّر فبخط واضح.
- ألا يتجاوز حجم الدراسة ٦٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وأن يرفق ذلك بخلاصة لا تتجاوز ٥٠ كلمة، تنشر معه عند نشره.
- يشترط ألا يكون البحث المرسل للنشر في المجلة قد نُشر أو أرسل للنشر في أية وسيلة نشر أخرى.
- تخضع البحوث الواردة لتحكيم لجنة الإشراف العلمي في المجلة، ولا تعاد البحوث المعتذر عن نشرها الى أصحابها، كما يمكن للجنة أن تطلب إجراء بعض التعديلات على البحث قبل الموافقة على نشره.
- يجري إعلام الكاتب بقرار اللجنة الإستشارية خلال شهرين من تاريخ تسليم النص.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة المجازة وفق خطة التحرير.

قوانين الطباعة:

يرجـى التقيد بهذه الشروط التقنية المدونـة أدناه تلافياً للأخطاء المتكررة التي نواجهها في كل عدد:

- أن يكون النص مطبوعاً على الكمبيوتر على أحد البرامج التالية In design ، Word وعدم نسخه على أي برنامج آخر إنترنت كان أو Scanner.
- عدم إرسال جداول أو صور ضمن النص.
- نسخ الموضوع على CD.

محتويات العدد:

ملاحظة:

ــ لا علاقــة لتسلســل الأبحاث في هــذه المجلة بأي معيــار تقويمي، بل هو يجــري في سياق تنسيقها الموضوعي.

ـ الآراء الواردة في الموضوعات المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن سياسة المجلة.

الافتتاحية

المناعة الوطنية

بقلم: رئيس التحرير
العقيد الركن شربل فرام

نغار على الدين ونقتل بعضنا بعضًا بإسم الدين.
نغار على الحقيقة وننحرها عند مفترق أوّل كلمة.
نغار على الأخلاق وندوسها عند مغيب كلّ شمس.
هل نحن شعوب لا تعرف من الإيمان إلا القشور؟
هل نحن شعوب لا تعرف من الأوطان إلا الطريق إلى الرحيل؟
هل نحن شعوب تقدّس ناحريها وتقتل صانعي السلام؟
هل نحن شعوب تجعل من الزعيم إلهًا وتجلس في الزاوية تلعنه بخوف؟
كان لنا وطن فجعلناه مساحات صغيرة على قياس أفكارنا.
كان لنا مفكرون فاستبدلناهم بمنظّرين غوغائيين.
كان لنا ازدهار فدمّرناه بسياساتنا المرتجلة.
كان لنا العزّ والمجد فصرنا مرتهنين مرتزقة على قارعة النكران.
آن الأوان لإسدال الستارة على مرحلة طويلة من البؤس والتقهقر.
آن الأوان لإسدال الستارة على فصل المعاناة والموت البطيء.

آن الأوان لاستعادة الكرامة والشهامة والعنفوان.

آن الأوان لاستعادة الإرادة والقرار.

الأمراض تأتي وتمضي.

الجوع يأتي ويمضي.

الحزن يأتي ويمضي.

كلّ الأخطار تأتي وتمضي عندما تكون المناعة قوية.

بوحدتنا نصنع المناعة.

بإصرارنا نصنع المناعة.

بنضالنا وشجاعتنا نصنع المناعة.

بتفكيرنا الصحيح نصنع المناعة.

بمناعتنا نحمي مستقبلنا ومستقبل أجيالنا.

بمناعتنا نحمي الكيان والهوية.

بمناعتنا نحمي الوطن.

فمن دون مناعة يأتي الموت ولا يمضي..

القيم الحضارية في مواجهة ثقافة الفساد في لبنان

مسعود ضاهر

التاريـخ الحضـاري هو الحاضـن الأمين للإبداع الإنسـاني الذي أنتجتـه الطاقات الخلاقة لـدى جميع شـعوب العالم . لذا تعتبر كتابة تاريخ الحضـارات مسـؤولية علميـة وأخلاقية في آن واحد. فهي تتجاوز أخبار المعارك العسكرية، وسرد أحداث الماضي المؤلمة، وتتجاهل القيادات الدمويـة التـي إستعبـدت شعوبا وأبادت جماعات بشريـة بدوافع عنصرية أو دينيـة أو عرقية أو إستعمارية وغيرها.

يبـرز التاريخ الحضـاري كل ما هو إيجابي في عادات وتقاليد شعـوب عبر التركيز على نظام القيـم الإنسانية والأخلاقية، والتركيز على الإبداعات العلمية والأدبية والفنية. وهو ثمرة إستقرار الشعـوب في أماكـن ثابتة، وتجنبهـا مآسي الحروب علـى أنواعها، ومواجهة الكـوارث الطبيعية. فالاستقـرار الإجتماعي يساعد على الإزدهار الإقتصادي وبناء مجتمـع المعرفة المحلي، وإنجاز التنميـة البشرية والإقتصادية المستدامة، والإنتقال السلس والمبرمج من التحديث المكتسب إلى الحداثة الراسخة بفضل تفاعل النخب المحلية مع تجارب الحداثة الناجحة على المستوى الكوني.

تاريخ لبنان ما بين الحضاري والسياسي

شـدد مؤرخـو لبنان الحضاري على إبـراز الأعمال الإبداعية التي أنتجتهـا جماعات سكانية متنوعـة أقامـت على أرض لبنان الحالية، قبل وبعد قيام الدولـة اللبنانية التي أعلنها الفرنسيون عـام ١٩٢٠. وحللوا مواقف النخب اللبنانية الإبداعية، وأشادوا بالقيم الأخلاقية والإنسانية التي تربى عليها اللبنانيـون. بالإضافة إلى تقديم شخصيات مميزة في تاريخ لبنان الحضاري، منهم قـادة كبار أنتجوا شرائع وقوانين ذات أبعاد إنسانية، وعلمـاء وأدباء وفنانين أنجزوا روائع أدبية وفنيـة خالـدة. وأشادوا بحكمة المتنوريـن الذين كتبوا مخطوطات علميـة وأدبية، وحافظوا على المعابـد والآثـار القديمة بوصفها ملكا للإنسانية جمعاء. ومنهم مـن دافع عن حق اللبنانيين في التعبيـر عن أرائهم ومواقفهم بحرية، وندد بالحكام الظالمين الذين أحرقوا المكتبات، أو دمروا المدن، أو أتلفوا المخطوطات، أو قتلوا العلماء.

بعبـارة موجـزة، التاريـخ الحضـاري سجل حافـل بالقيم الإنسانيـة المشتركـة التي شكلت تراثًـا جامعًا مشتركًا بين اللبنانييـن ،على اختلاف أعراقهم، وأديانهـم، ومعتقداتهم. وتبلورت تلـك القيم من خلال الدعـوة إلى العيش المشترك بسلام، ونشر التسامـح، والعدالة، والرحمة، والإصلاح، وإغاثة الملهـوف، وإحترام المسنين، وحماية المرأة، والعناية بالأولاد، ورفض الظلم والتحذيـر مـن مغبته، وتنبيه الحاكم إلى تبدل السلطة لأنهـا لا تدوم لأحد، «فلو دامت لغيرك ما وصلت إليك».

بالمقابـل، تاريـخ لبنـان السياسـي حافـل بالنزاعات الدمويـة التي طالت جميـع العائلات والمناطـق والطوائف والمذاهب في لبنان، وأنتجت ثقافة الفسـاد والإفساد التي حولت الهويات

الطائفية إلى «هويات قاتلة» كما وصفها الروائي أمين معلوف في كتابه الذي حمل العنوان نفسه.

دلالة ذلك أن تاريخ لبنان الحضاري يتمايز بشكل واضح عن تاريخه السياسي. وأن غالبية اللبنانيين يدركون الأضرار الكبيرة التي خلفها هذا الإنقسام الحاد منذ قيام دولة لبنان الكبير. وكان جبران خليل جبران في طليعة المفكرين اللبنانيين الذين رسموا حدود التمايز بين لبنان السياسي ولبنان الحضاري في مقالته الرائعة:«لكم لبنانكم ولي لبناني»، المنشورة في كتابه « البدائع والطرائف» الصادرفي بيروت عام ١٩٢٣. وما زال بعض المثقفين اللبنانيين يسيرون على خطاه في التنديد بالفساد السياسي والإداري والمالي الذي إنتشر على نطاق واسع في تاريخ لبنان السياسي، إلى جانب التمسك بنظام القيم الإنسانية والأخلاقية التي ميزت تاريخ لبنان الحضاري.

فعن تاريخ لبنان الحافل بالفساد ،والقمع ،وهدر الطاقات، وتهجير الشباب اللبناني، وغياب العقاب، وتجويع اللبنانيين، وغيرها من الآفات السلبيىة، كتب جبران: «لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمنازع.... لبنانكم عقدة سياسية تحاول حلها الأيام ...لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي ... لبنانكم حكومة ذات رؤوس لا عداد لها ... لبنانكم طوائف وأحزاب.... لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات والذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيين ... لبنانكم شرائع وبنود على أوراق وعقود في دفاتر.. لبنانكم عجوز قابض على لحيته قاطب ما بين عينيه ولا يفكر إلا بذاته.. لبنانكم الأشداء الفصحاء البلغاء ولكن بعضهم لدى بعض، والضعفاء الخرسان أمام الإفرنج...هم الأحرار المصلحون المتحمسون ولكن في صحفهم وفوق منابرهم والمنافقون الرجعيون أمام الغربيين...هم أولئك العبيد الذين تبدل الأيام قيودهم المصدأة بقيود لامعة فيظنون أنهم أصبحوا أحرارا مطلقين....هؤلاء هم أبناء لبنانكم فهل بينهم من يمثل العزم في صخور لبنان؟ هل بينهم من يتجرأ أن يقول: «إذا ما مت تركت وطني أفضل قليلًا مما وجدته عندما ولدت»؟ هل بينهم من يتجرأ أن يقول: «لقد كانت حياتي قطرة من الدم في عروق لبنان، أو دمعة بين أجفانه، أو ابتسامة على ثغره؟»

بالمقابل، رسم جبران صورة لبنان الحضاري، لبنان الثقافة والإبداع في زمانه، والذي تحول لاحقا إلى نموذج يحتذى على المستوى العربي، وإلى رسالة حضارية في العيش المشترك بين الجماعات الدينية والعرقية عل المستوى الكوني بقوله: « قفوا قليلًا وانظروا لأريكم أبناء لبناني هم الفلاحون الذين يحولون الوعر إلى حدائق وبساتين ... هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من واد إلى واد فتنمو وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء وصوفها رداء ... هم الكرَامون الذين يعصرون العنب خمرا ويعقدون الخمر دبسا...هم الآباء الذين يربون أنصاب التوت والأمهات اللواتي يغزلن الحرير...هم الرجال الذين يحصدون الزرع والزوجات اللواتي يجمعن الأغمار. هم البناؤون والفخارون والحائكون وصانعو الأجراس والنواقيس ... هم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوسٍ جديدة، وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنى والزجل...

هــم الذيــن يغادرون لبنان وليس لهم سوى حماسة في قلوبهم وعــزم في سواعدهم ويعودون إليه وخيــرات الأرض فــي أكفهــم وأكاليل الغار علــى رؤوسهم... هــم الذين يتغلبــون على محيطهم أينمــا حلــوا ويجتذبون القلوب إليهــم أينما وجدوا... وهم الذين يولدون فــي الأكواخ ويموتون في قصور العلم ... هؤلاء هم أبناء لبنان... هؤلاء هم السائرون بأقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال. وماذا عسى أن يبقى من لبنانكم وأبناء لبنانكم بعد مائة سَنة؟ أخبروني.. ماذا تتركون للغــد سوى الدعوى والتلفيق والبلادة؟ هل تحسبــون أن الزمن يحفظ في ذاكرته مظاهر الخداع والمداهنة والتدليس؟...»

سجال حاد حول قضايا أساسية في تاريخ لبنان المعاصر

تميــز السجــال الثقافي والسياسي حول هوية لبنان الحضاريــة بكثير من الحدة بسبب تباين المواقــف فــي النظر إلى إنتمــاء اللبناني إلــى الأرض التي أبــدع عليها. فعند الإعــلان عن دولة لبنــان الكبير تحــول زعماء الطوائف إلى ممثليــن لها في مؤسسات الدولــة الرسمية، وذلك على حساب تمثيل لبنان الوطن الحضاري الموحد. وذاكرة اللبنانيين محصنة بالوثائق العلمية لتنمية معرفتهم الدقيقــة بتاريخ وطنهم، بجميع مناطقه، وطوائفه، ومنظماته الرسمية والخاصة. وهي تبــرز تطــور إنتمائهم للبنان الوطن الحــر المستقل بعد توحيد المقاطعــات اللبنانية المفككة في دولة مركزية عام ١٩٢٠ لكنها لا تزال تعيش مرحلة حافلة بالنزاعات الأهلية.

سعــى بعض القادة المتنورين إلى ترسيخ الإنتماء للبنان الحضــارة ولبننة الوافدين إليه من المناطق المجاورة، والعمل على بناء دولة لبنانية مستقلة وذات سيادة تامة على أراضيها. وتبلور شعــور اللبنانيين الوطني في مرحلة الإنتداب الفرنسي بترسيخ الإنتماء إلى أرضهم. كما طالبوا بها وحددتها لهم عصبة الأمم ودافعوا عنها بصلابة، وطالبوا بالولاء للبنان الوطن الحر والعمل على تحريره من القوات الأجنبية والإرتقاء بالدولة اللبنانية من دولة ذات نصف سيادة حسب توصيف الدكتور أدمون رباط إلى دولة مستقلة.

لكــن زعماء لبنان المستقل تمسكوا بنظام سياسي طوائفي متعدد الأقطاب بذريعة منع تفرد طائفــة واحدة بالسلطــة، ففشلوا في إقامة دولــة مركزية ذات ركائز صلبة. فقــد تأسس النظام السياســي الطائفي على ركائــز سلبية أشعلت الكثير من الفتن الطائفية. وشارك اللبنانيون، على إختــلاف طوائفهم وطبقاتهم الإجتماعية، في صنع تاريخهم السياسي في ظروف إقليمية ودولية تميــزت بتراجع الحضــور الفرنسي والبريطاني في الشرق الأوســط لصالح حضور قوي للولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفياتي. وقد إكتسبوا خبرة سياسية جديدة ساعدت على إنتقالهم من المرحلة المقاطعجية إلى مرحلة الديموقراطية التوافقية على أسس طائفية. وأبرز مظاهرها: تعزيــز الحرية الفردية في المعتقــد والفكر والتي ميزت المجتمع اللبنانــي وأنتجت شرئح فاعلة

مـن المثقفين المتنورين والعمال والفلاحيـن الأحرار إلى جانب بورجوازيـة الحرير التي تبنت رأسمالية الخدمات المعولمة ونمط إنتاج ريعي يغلب الصفقات المشبوهة على العمل المنتج.

إلى جانـب التمسك بالنظام السياسي الطائفي وأضاف قـادة الإستقلال ميثاقا طائفيا بني علـى الأعـراف واستند إلى نفي مـزدوج: التخلي عن الحماية الفرنسيـة والتخلي عن الوحدة مع سوريـا. فنشـر الصحافي جـورج نقاش مقالة رائعة بعنـوان: «نافيتان لا تصنعـان أمة لبنانية»، حلـل فيها أخطاء ومخاطر الفكر السياســي اللبناني الذي إهتم بترسيخ التمايز الطائفي وحماية مكاسب زعماء الطوائف على حساب الإندماج الوطني الجامع. فأدخل السجن لمدة ثلاثة أشهر وأغلقت صحيفة «الأوريان» لستة أشهر.

عانــى لبنــان السياسي بعـد الإستقلال تجاذبـات إقليمية ودولية بسبب النــزاع بين زعماء الطوائـف الكبرى على توزيع مغانـم السلطة فواجه اللبنانيون قضايـا مصيرية باتت اليوم تهدد بقـاء لبنان وفـي طليعتها حماية الأراضــي اللبنانية التي رسمت بعض حدودهــا بإشراف عصبة الأمـم. ومـا زالت مشكلـة ترسيم حدود لبنان البريـة والبحرية قيد المفاوضــات. كما أن الهوية المميزة للشعب اللبناني باتت عرضة لتجاذبات طائفية تهدد التنوع السكاني والتعددية الثقافية. وبـرزت مشكلة الحفاظ علـى لبنانية أحفاد اللبنانييـن الذين نالوا الجنسيـة بموجب الإحصاء الرسمـي لعـام ١٩٣٢ وهاجروا إلـى الخارج. وما زال هــذا الحق ساري المفعـول، ويعتبر مسألة وطنية بإمتياز. فقد إعترف بحق أبناء اللبنانيين المنتشرين في جميع دول العالم بالحصول على الجنسية اللبنانية مهما بعد الزمن شرط تقديم الوثائق التي تبرز إنتسابهم إلى أصول لبنانية.

ومـع دخول قيـادات سياسية جديدة مـن منابت إجتماعيـة متنوعة إلى البرلمـان والوزارة تعرضت زعامة أبناء الأسر المقاطعجية القديمة لمنافسة حادة من أصحاب المهن الحرة ورجال المـال والأعمال. وتبلـورت زعامة سياسية لبنانيــة ذات طابع إجتماعي وثقافـي من نوع جديد. وقـد عملت على ترسيخ زعامــة وطنية جامعة وغير طائفية في مواجهــة زعماء الطوائف الكبرى الذين أقاموا تحالفات وثيقة مع دول إقليمية ودولية لضمان مصالحهم وسيطرتهم على مؤسسات الدولـة اللبنانية ومواردهــا المالية وروجوا لديموقراطية توافقية وفـق صيغة ميثاقية قامت على المحاصصــة الطائفية التي نسفت ركائز الوحـدة الوطنية الجامعة والولاء للبنان الوطن الواحد والموحد بجميع أبنائه وطوائفه وأراضيه.

نخلـص إلى القـول إن الممارسة السياسة فـي عهد الإستقلال بنت تضامــن اللبنانيين على قاعـدة تعزيز وحدة الجماعة الطائفية باعتبارها هوية قائمــة بذاتها في مواجهة هويات طائفية أخـرى وفق أوهام ما أسموها هويــة لبنانية جامعة ما أضعف الوحـدة الوطنية بصورة متزايدة، وسهـل إنــزلاق اللبنانيين إلى نزاعات داخلية بأبعاد طائفية، وإقليميــة ودولية متشابكة. وتحالف الأعيـان من أبنــاء العائلات القديمة مع زعماء جدد من جميع الطوائـف فشكلوا قوة ضاربة في

الفســاد والإفساد حددت وظيفة النظام السياسي الطائفي بالحفاظ على مصالحهم الشخصية، وتزويدهــم بكل مظاهر النفوذ للسيطرة على رعاياهــم. وبات المواطن اللبناني، طوعا أو قسرا، عضــوا فــي جماعــة طائفية يدافع عــن مصالح زعمائهــا دون أن ينال الحد الأدنــى من الحماية لحقوقه الفردية والعائلية. في حين أن القيم الوطنية الجديدة التي أطلقتها الإيديولوجيا السياسية اللبنانية في مرحلة الإستقلال كانت تبشر بالمساواة بين اللبنانيين في الحقوق والواجبات بمعزل عــن الإنتمــاء الطائفي، أو العرقي، أو السياسي. ومع أن القيادة السياسية في لبنان لم تعد حكراً على أبناء الزعامات القديمة بل أفسحت المجال أمام قيادات سياسية جديدة جاءت من صفوف رجال المال والأعمال، والمهن الحرة، والإعلاميين، والمثقفين، وكبار العسكريين. إلا أن القرار التنفيــذي فيهــا بقي لتحالف زعماء الطوائــف الكبيرة الذين حافظــوا بشراسة على مكاسبهم ونجحوا في إضعاف القوى الوطنية الجامعة التي كانت تشدد على دور الكفاءة الشخصية والقيم الأخلاقية في بناء لبنان الحضاري في مواجهة لبنان المحاصصة الطائفية.

المجتمع اللبناني والقيم الحضارية الموروثة

فــي محاضرة هامة للمؤرخ البريطاني ارنولد توينبي عــن تاريخ لبنان الحضاري يبدو نظام القيم الضارية هو البديل الوحيد القادر على مواجهة الفساد السياسي في تاريخ لبنان المعاصر. فتوينبــي ذو شهــرة عالمية وصاحب موسوعة «تاريخ الحضــارات»، التي درس فيها ٢١ حضارة، وأفــرد فيها مجلّدا للحضــارة الفينيقية. وقد إستنبط مقولة «التحــدي والإستجابة» التي شكلت معلما بارزا في كتابة التاريخ الحضاري لجميع شعوب العالم التي خضعت للإحتلال الأجنبي.

زار توينبــي لبنــان وألقى محاضرة متميزة باللغة الفرنسية فــي دار «الندوة اللبنانية» بتاريخ ٨ أيار ١٩٥٧ تحت عنوان «لبنان كلمة التاريخ» .وقد نقلها مؤخرا إلى العربية الشاعر هنري زغيب. وأبــرز ما جاء فيها أن «لبنان»، بالمعنِى الجغرافي، ليس مجرد مصطلح تاريخي بل وصف لموقع جغرافــي طبيعي. فمعالمه الطبيعية أساس ثروته البشرية: البحر، الجبال، الثلوج، والغابات. هي مواقــع ماديــة لا تدهش سكان الضفة الأخــرى من المتوسط طالما أن الظواهــر الطبيعية ذاتها موجــودة فــي اليونان وإيطاليــا والمغرب. أبينما ســكان مصر والعراق وخصوصــا دول الجزيرة العربية يعتبرون لبنان بلدا إستثنائيا وذا مسحة عجائبية. وأضاف: لبنان أيضا تألق التاريخ حين تفسر كلمة «لبنان» في معناها الإنساني. في هذا المعنى هو نتاج من سكنوه عبر العصور. فشكل تاريخَــه الإنساني وحدة اجتماعية وثقافية منــذ جذور الحضارة حتى اليوم. لكن اللبنانيين اليوم ليسوا أحفاد الفينيقيين بالمعنى المباشر. إذ كان الفينيقيون بحارة سكناهم الجزيرة لا الجبل، كما في صور وأرواد وما شابهها من مدن بحرية. وهم لم يضموا الجبل إليهم إلّا في مرحلة لاحقة مــن التاريــخ الفينيقي. بينما اللبنانيون اليوم، على العكس، أبناء جبال لم ينجحوا قبل ١٩٢٠، إلّا

عابـرا، فـي أن يضموا إلى مساحاتهم موانىء ومدنا ساحلية. مع أن ما يجمع بين فينيقيي الأمس ولبنانيـي اليوم عادات وطاقات مهمة. فقد أفادوا من الملجـإ الطبيعي – البحر للقدامى والجبل للمعاصريـن – لمزاولـة الأعمال التجارية. فأقامـوا امبراطورية اقتصادية فـي الغرب، وأسسوا سلالات تجار لدى معظم العالم الغربي في زمانهم.

فموقـع لبنان الطبيعي عنصـر أساس في نموه البشري. لكن الخارطـة الاصطلاحية مضلِّلة لأنهـا تمثل لبنان صلـة وصل بين بحر وقارة، بينمـا الواقع أن منطقة لبنــان الخلفية ليست قارة بـل بـرزخ. فقبالة البحـر المسمى متوسطًا، مدى واسـع جاف من سهوب أكبـر وصحارى أوسع، تمتـد من بادية الشام وسهوب إيران وآسيا الوسطـى حتى الحدود الغربية للهند والصين. ويمتد لبنــان على الشاطىء المتوسطي للبرزخ السوري. لكن الضفـة المقابلة، الضفة الصحراوية، لها أيضـا مرافئهـا. وقبالة راس شمرا وأرواد وبيروت وصيدون وصـور وعكا وحيفا، ثمة حلب وحماة وحمص ودمشق وبُصرى، تتقابل فيهـا موانيء البحر ومرافىء الصحراء فـي صفين متوازيين يديـر كل منهما ظهره للآخر. والنشاط الاقتصادي اللبناني اليوم يَفيض عن البرزخ السوري في الاتجاهيـن: لا نحـو الغرب فقط بل نحو الشرق أيضا. وواضح إتسـاع الإمبراطورية الاستعمارية اللبنانيـة بامتدادها نحـو الغرب. وحيثما شعت الحضـارة الغربية إنتشر التجـار اللبنانيون: في مصـر وأوروبا الغربيـة وإفريقيا الغربية والأميركَتيـن وأستراليا. ومنذ نشـوء المنطقة النفطية حديثًـا في العراق وفي الجهة العربية من الخليـج الفارسي، نرى رجال الأعمال اللبنانيين وسعوا إمتدادهـم شرقًا إلى جميع الدول العربية. وكان مـن صالح اللبنانيين في منافستهم الغربَ لدى الـدول العربية النفطية أنهم يتكلمون اللغة ذاتها مـع زبائنهم العرب في الشرق، ويعرفون تقاليد جيرانهم العرب، وجيرانهم العرب لا يخشونهم، ويغنم لبنان من كونه ليس قوة عسكرية عظمى، مـا يمكّنـه من أن يكون قـوة اقتصادية كبـرى. وإمبراطورية لبنان الاقتصاديـة المزدوجة اليوم ظاهـرة إستثنائيـة. هي في الغرب ظاهـرة عادية. ففي معظـم حقبات التاريخ امتـدت التجارة اللبنانية غربا حتى مضيق جبل طارق وبلغَت ضفاف المحيط الأطلسي، فيما إمبراطورية المدى الجاف في السهوب بقيت في أيدي سكان منطقة البرزخ السوري الصحراوية.

كانـت محاضرة توينبي عن لبنان مناسبـة لتنبيه نسبة كبيرة من النخب السياسية والثقافية والإقتصادية والمالية اللبنانية التي حضرتها إلى إحترام تاريخ لبنان الحضاري الذي يرقى إلى آلاف السنيـن لأن مـا يثيره قادته اليوم مـن نزاعات سياسية وطائفية إلـى زوال ولن يستطيعوا تشويه صورة لبنان الحضاري.

فالساحـة اللبنانيـة بعد الإستقلال وحتـى الحرب اللبنانيـة شهدت حركـة ثقافية حضارية تميـز بها تاريـخ لبنان المعاصـر. وإنتشرت على نطاق واسـع مقولات فلسفيـة عصرية من على المنابـر الجامعيـة وفي وسائـل الإعلام . وتبلور نمـط حضاري أصيل بني علـى تقديس الحرية

والكلمة الحرة في مواجهة القمع والإرهاب الذي مارسته القوى السلطوية. وعرف مثقفو لبنان الاضطهاد، والسجن، والقمع، والطرد من العمل، والتهجير إلى الخارج. وشكلت ظاهرة المثقف الحر والمدافع عن موقفه بصلابة المدماك الأول في صرح الثقافة النقدية العربية التي نشرها المثقفون العرب في بيروت وشكلت معلما بارزا من معالم الجمع بين الإبداع بالموقف والإبداع بالكلمة الحرة. ووصفت بيروت بملتقى التفاعل الثقافي بين أوروبا والمشرق العربي.

ضمن الدستور اللبناني مبدأ حرية القول والنشر والتعليم لجميع الطوائف. فانتشرت المؤسسات الثقافية على نطاق واسع في لبنان، وفتحت مئات المدارس الجديدة، الرسمية منها والخاصة، مع زيادة كبيرة في عدد طلاب المدارس الثانوية والمهنية، وفي الجامعة الأميركية، وجامعة القديس يوسف، والجامعة اللبنانية، وجامعة بيروت العربية، وغيرها. تزايد عدد المثقفين من حملة الشهادات الجامعية بشكل ملحوظ. فساهموا في نشر ثقافة عصرية جعلت لبنان مركزا هاما لنشر الثقافة الحرة على إمتداد الوطن العربي. وبرزت زيادة كبيرة في عدد الصحف والمجلات اليومية والأسبوعية والشهرية، وباللغات العربية والفرنسية،والإنكليزية، والأرمنية، وغيرها. بالإضافة إلى تأسيس عدد كبير من المطابع ودور النشر. وتبلورت حركة أدبية واسعة إستقطبت كبار الأدباء والشعراء العرب، وإلى جانبها حركة فنية رائعة على أيدي نخبة موهوبة من كبار الفنانين اللبنانيين من ذوي الشهرة العالمية. ونشطت المهرجانات الفنية الدولية في بعلبك، وبيت الدين، وبيروت، وصور، وجبيل، والأرز، وغيرها من المناطق اللبنانية. وإزدهرت حركة الترجمة على نطاق واسع من وإلى اللغة العربية، وحركة التأليف باللغات الأوروبية، بخاصة الفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية. وإحتضنت بيروت نخبا ثقافية عربية وأوروبية من خريجي الجامعات الأجنبية في لبنان ومن خارجه. يضاف إلى ذلك نشاط ثقافي مميز في مجال إعداد الموسوعات أو ترجمتها، ودوائر المعارف، والمعاجم على أنواعها وبلغات عدة، بالإضافة إلى أنواع أدبية أخرى .

على الجانب السياسي، شهد لبنان حركة ناشطة لأحزاب علمانية، وقومية، وإشتراكية، وجمعيات ونقابات مهنية وعمالية متنوعة. فساهمت جميعها في تحفيز الحوار السياسي الإيديولوجي على أسس ديموقراطية سلمية بعيدا عن العنف والنزاعات الطائفية التقليدية. وإنتشرت بكثرة ترجمة الكتب العقائدية. واحتضن لبنان سجالا فكريا على غاية في الأهمية حول الدعوات المتوسطية، والفينيقية، والفرعونية، والفاشية، والنازية، والصهيونية. بالإضافة إلى سجال معمق حول أهم المدارس الأدبية والفنية العالمية كالرومانسية، والرمزية، والانطباعية، والواقعية، والسريالية، والتكعيبية،غيرها. وشكلت المنابر الثقافية ملتقى جامعا لأفضل النخب الإبداعية والفنية في الوطن العربي، مع تفاعل حقيقي ودائم مع كبار الأدباء العالميين.

وعرفت بيروت ظاهرة النشاط الأدبي الجماعي عبر تحلق الأدباء والشعراء في وحدات

مميـزة للمشاركة في سجال أدبي وشعري معمق أبرزهـا «عصبة العشرة»، و«جماعة أهل القلم»، وجماعة «أصدقاء الكتاب»، وغيرها. ومن الظاهرات الثقافية التي نمت بسرعة إبان تلك المرحلة أن الرسـم الكاريكاتـوري في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعيـة بات من أرقى فنون التعبير عن المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحافظت صحف ومجلات بيروت عليها حتى الآن.

نشير أخيرا إلى النشاطات الفنية والحضارية الكثيرة التي عاشتها بيروت خلال تلك المرحلة وأبرزهـا العروض المسرحية المتلاحقـة على مسرح التياترو الكبير، وبشكل خاص عروض لأهم الفرق المسرحية الفنية في العالم العربي وبعض الفرق العالمية. ما أدى إلى إرتفاع عدد المسارح في لبنان إلى أكثر من عشرين مسرحا كان بعضها يعمل بشكل منتظم طوال السنة. بالإضافة إلى حفلات الغناء والطرب الأصيل التي أحياها كبار المطربين من مختلف الدول العربية والعالمية، وبـروز نشـاط ملحوظ لعرض الأفلام العربيـة والأجنبية في دور السينما التـي أنشئت خصيصا لهذه الغاية .

لقـد كان لبنـان الحضـاري على الـدوام مصـدر إشعاع ثقافي بالـغ الأهمية بعـد أن شكلت منابـره الثقافية ومجلاته الطليعية مصادر لثقافة عصرية ذات أبعاد عالمية رسمت تاريخ لبنان الحضـاري المميز في نشر الاتجاهـات الثقافية والفكرية والأدبية والفنيـة الجديدة على إمتداد الوطن العربي طوال الفترة التي سبقت إندلاع الحرب اللبنانية.

التحدي والإستجابة في تاريخ لبنان المعاصر

دمـرت الحـرب البنى الثقافية في بعض المناطق وتعرضت لضرر بالـغ في مناطق أخرى. فتوقفت حركة المسرح التي كانت ناشطة جدا قبيل الحرب، وتعطلت معظم دور السينما والمراكز الثقافيـة، وأصيب القطاع الفني بأزمات حـادة إنعكست سلبا على حياة الفنانين اللبنانيين وعلى مستـوى إنتاجهـم الفني. وتوقـف التدريس المنتظم فـي غالبية الجامعات والمدارس اللبنانية لفتـرات طويلـة في العام الواحـد. وتدنى مستوى التعليـم بشكل مريع، وعلى جميـع المستويات. وتعرضـ العاملـون في الحقـل التربوي والثقافي لمضايقـات كبيرة، وخطف وقتـل الكثير منهم. يضـاف إلـى ذلك أن سنـوات الحرب الطويلة إنعكسـت سلبا على سلوك الطـلاب الذين عاشوا بشاعـة سلوك ميليشيات الحـرب، وشاهدوا ممارساتها الطائفية وغيـر الأخلاقية. وتراجع نشر القيـم الحضاريـة التي تبشر بهـا المؤسسات الثقافيـة التربوية وتحض علـى المحبة، والحرية، والتسامـح، والغفران، والمبادىء الوطنية والقيم الإنسانية. وتم تشويه البنى التحتية، والمبادىء الساميـة للتربيـة والثقافة والفنون في لبنان. وبالإضافة إلى النتائـج السلبية المباشرة التي نتج عنها تعطيل العملية التربوية والتثقيفية في لبنان، وتغليب منطق السلاح على سلاح المنطق داخل

الأحـزاب العقائديــة والعلمانية نفسهــا. فإنعكست تلك النتائج على قـوى التغيير الديموقراطي العقلاني التي ما تزال تعاني مأزقا حادا في عملها التثقيفي.

علــى الجانب الحضــاري، نشرت دراســات تاريخية وسياسيــة وأنطروبولوجيــة معمقة حول دور الطوائــف في تاريخ لبنان المعاصر بوصفها هويــات محلية قادرة على التكيف مع المتغيرات الإقليميــة والدولية وممارسة العيش المشترك. لكن تلــك العصبيات تحولت في زمن الحرب إلى «هويــات قاتلة».ولعب بعض زعماء الطوائف دورا بالغ السوء في إضعاف الهوية الوطنية للمجتمع اللبناني، وفي إفساد مؤسسات الدولة اللبنانية التي باتت اليوم مهددة بالإنهيار ما يطرح تساؤلات مهجية كثيرة في هذا المجال.

فقد باتت الهوية الطائفية فردية وجماعية لأن زعماء الطوائف فضلوا الدفاع عن مصالحهم الشخصية على حساب الوحدة الوطنية الجامعة. فأنتجوا مجتمعا لبنانيا مفككا أنهكته النزاعات الدموية المستمرة. وحرص الغرب على دعم الهويات المتناحرة بديلا من الهوية الوطنية الجامعة فساهــم في إفشال الدولة المركزية في لبنان بعد أن وصفها خصومها بأنها صنيعة الغرب الذي يسعى إلى نسف ركائز الوحدة العربية عبر تفكيك المجتمعات العربية بأشكال وأدوات مختلفة.

ولعل أخطر تلك النتائج أن الجيل الجديد من الشباب اللبناني لم يعد متحمسا للتعليم والثقافة كطريــق موثوقة للترقي الاجتماعي، في حين شكلت هذه المقولة القاعدة الأكثر صلابة في نظام القيــم اللبناني منذ القدم وحتى اندلاع الحرب. فاشتد العــداء المستحكم بين المثقف والسلطة لأن المثقف قبل سيطرة الميليشيات كان يحظى باحترام كبير في جميع الأوساط، ويعتبر «ضمير الشعــب». لــذا إنحازت غالبية المثقفين اللبنانيين إلى جانب قيــم العدالة الاجتماعية، والحرية، والمســاواة، ودعت إلى نبــذ الطائفية والتفرقة المذهبية والعرقية، وإلــى تغيير النظام السياسي اللبناني القائم على الطائفية وعدم المساواة بين اللبنانيين في الحقوق والواجبات، والى الدفاع عن القضايا الوطنية والقومية بصلابة .

وتعرضــ نظام القيم الثقافية الذي كان سائدا في لبنان قبل الحرب لتغيير سلبي،على جميع المستويات.فتوقفــت، أو تعطلت غالبيــة البنى التربوية والثقافية والفنيــة التي كانت تعبر أصدق تعبيــر عــن نظام المثل الأخلاقيــة الإيجابية، وحلت مكانهــا بنى جديــدة ، ميليشياوية وطائفية، تمجــد سمــات مناقضة للثقافة الإنسانية، وتحلل قتل الآخر المخالــف في الرأي، وتؤمن بالعنف، وتعتمــد أساليب التهجير، والسرقة، والفساد، والرشوة، واستغلال السلطة لجني الثروات الطائلة علــى حساب إفقــار الشعب اللبناني. فسلبيــات الحرب في المجالين التربــوي والثقافي أكثر من أن تحصــى. لذلــك واجــه المجتمــع اللبنانــي إمتحانا عسيرا في مــدى قدرته فــي الحفاظ على وحدتــه الداخليــة والوطنية. لكنه عرف كيف يحمي نفسه من التفــكك والانهيار. ونشطت غالبية مؤسسات المجتمع المدني، كالأحزاب العلمانية، والنقابات، والجمعيات، والروابط، والاتحادات،

والمنظمات الشبابية والنسائية، لتنسيق جهودها بهدف حماية لبنان من التفكك بعد إنهيار دولته المركزية وتفكك غالبية مؤسساتها وأجهزتها الإدارية.

كانت ردود فعل النخب الثقافية متباينة تجاه النظام السياسي الطائفي في لبنان وما إذا كان بحاجة إلى تطوير أم إلى إلى تغيير جذري عبر تجاوزه بعد فشل جميع محاولات إصلاحه. وبات اللبنانيون على ثقة تامة بأن الطبقة السياسية الفاسدة لا ترغب في إصلاح نظام سياسي طائفي ضمن لها مكاسب كثيرة ومتنوعة دون محاسبة أو مساءلة. فغياب العقاب وتسييس القضاء عبر إلحاقه بزعماء الطبقة السياسية الفاسدة يؤكد عدم رغبة هذه الطبقة في بناء دولة عصرية وعادلة في لبنان. لذلك تبدو اليوم عاجزة عن وقف إنهيار الدولة بعد أن فقدت القدرة على جر الجماعات الطائفية في لبنان إلى حرب داخلية تدمر ركائز العيش المشترك، وتهدد مصير لبنان الوطن الحضاري ووطن الرسالة.

كان أقطاب الطبقة السياسية الفاسدة أكثر المستفيدين من تحويل الدولة اللبنانية إلى دولة رخوة وفاسدة لأنهم كانوا أبرز صانعيها. وعلى مدى مائة سنة من تاريخ لبنان المعاصر لم يستخلص زعماء الطوائف والميليشيات الدروس المستفادة من أن غياب الدولة المركزية القوية يولد مآس بشرية، ودمارا إقتصاديا، وأزمات نفسية، وإنعدام الثقة بين مؤسسات المجتمع التقليدي الممثلة بزعماء الطوائف وبين النخب السياسية والإقتصادية والثقافية في الدولة المركزية القوية. هذا بالإضافة إلى أن سياسة القمع والترهيب والتجويع تعطي نتائج عكسية ضد مصالحهم لأنها تلعب دورا أساسيا في ولادة قوى عقلانية تتحضر لحماية مؤسسات الدولة الحديثة من نفوذ الطبقة السياسة الفاسدة إلى أبعد الحدود. وبعد أن نشر زعماء الطبقة السياسة ثقافة الفساد كنموذج فج لتدمير الثقافة الوطنية في لبنان فإن قوى التغيير العقلاني والديمووقراطي تنمي ثقافة التنوير والتغيير السلمي، وتعمل على إعادة الإعتبار لتاريخ لبنان الحضاري بما يتلاءم مع متطلبات الحضارة الكونية في عصر العولمة.

صراع القيم الحضارية والفساد السياسي في لبنان

منذ نشأة دولة لبنان الكبير ما زالت المؤسسات اللبنانية تواجه معضلات بنيوية بسبب كثافة الفساد السياسي والمالي والإداري الناجم عن المحاصصة الطائفية وهيمنة ذهنية الميليشيات على مقدرات الدولة المركزية. ونظرا لغياب المساءلة القضائية الفاعلة يعيش اللبنانيون هاجس الخوف من تجدد النزاعات الدموية في الداخل وإنتهاك إسرائيل للسيادة اللبنانية برا وبحرا وجوا. وهم بحاجة ماسة لإستعادة نظام القيم الحضارية التي تميز بها المجتمع اللبناني في مرحلة الإستقرار الإجتماعي والإزدهار الإقتصادي.

لذلك تعددت الدعوات المطالبة بالحفاظ على التماسك الوطني من خلال تعزيز مؤسسات

المجتمع المدني العلماني بالدرجة الأولى. وقد حافظت على وحدتها نقابات الأطباء، والمهندسين، والصيادلـة، وأصحاب المصــارف، واتحاد الكتاب اللبنانيين، ورابطــة الأساتذة المتفرغين في الجامعــة اللبنانية، وروابط المعلمين في القطاعيــن الخاص والرسمي، ونقابة الصحافة، ونقابة المحررين، ونقابة الناشرين، وغيرها. ويحاول الاتحاد العمالي العام إسترجاع وحدته في ظروف صعبة جعلته عاجزا عن لعب دوره الطليعي الذي مارسه بكفاءة عالية قبل الحرب.

لم تكتـف بعض المؤسسات الثقافية بالحفاظ على وحدتها وعـدم الانجرار إلى الانقسامات المذهبيــة والسياسية بل فتحــت منابرها لاحتضان مقولات ثقافية تحض على التوحيد الوطني والتحذير من مخاطر المشروع الصهيوني الذي أدخل لبنان في دائرة الاحتلال الإسرائيلي. لكن الأزمــة الراهنة فــي القطاع المصرفي اللبنانــي، ومصادرة البنوك لأمــوال المودعين، والتحكم بسعــر صرف الدولار دلت على جشع أصحاب البنــوك ومحاولة تعويم سياستهم المالية الفاسدة بالسيطــرة على ماليــة الدولة وممتلكاتها. مــا أدى إلى انهيــار مؤسسات الدولــة المالية وتجويع اللبنانييــن وإفقارهــم. ونظــرا لكثافة الفســاد السياسي الداعــم للرأسمال الريعــي غير المنتج إنهــارت أسطــورة القطــاع المصرفي القوي ومــا رافقها من إعــلام مضلل يــروج لمتانة القطاع المصرفــي اللبناني. فطالــت الأزمة المالية الحــادة الغالبية الساحقة مــن اللبنانيين وتزامنت مــع سلسلة من التدابير السلبية والأعمــال غير الأخلاقية التي مارستها الطبقة الفاسدة وأبرزها الهندسات المالية بأسلوب لم تشهد المؤسسات المالية العالمية مثله في عملية السطو على أموال الدولــة وأموال المودعين فــي المصارف والتي كانت من الأسباب الرئيسيــة لإنهيار سعر صرف الليرة اللبنانية. ومع غياب الهيئات القضائية الفاعلة، وتقاعس الرقابة البرلمانية والحكومية عن ممارســة دورها في معاقبة الفاسدين، تزايد حجم الفســاد بسرعة قياسية وفقد النظام المالي في لبنان مناعته.

وتحــت وطأة تحالف قوى الفساد الإفساد المسيطر على البرلمان والوزارة ومؤسسات الدولة اللبنانيــة تضــاءل حجم المعارضــة السياسية الديموقراطيــة المطالبة بتغييــر النظام الطائفي الفاسد، وتحول بعض رموزها للبحث عن موقع عبر الإلتحاق بالطبقة السياسية الفاسدة ووسائل الإعلام الملحقة بها.

ومــع توزيــع الأموال على أمــراء الحرب وسلطات الأمــر الواقع إنهارت مدخــرات اللبنانيين وإنتشــرت الدعــوات المطالبــة بالإستغاثة من الخارج لحمايــة اللبنانيين من الجــوع، والمرض، والبطالــة، مع الدعوة إلى دعم التعليم، والصناعــة، والزراعة. في حين هرب كبار أغنياء لبنان أموالهــم إلى الخارج ولــم يبادروا إلى مساعدة شعبهم ووطنهم. ما جعلهم عرضة للسخرية امام قــادة الدول الراغبة في مساعدة اللبنانيين على إسترجــاع حياتهم الطبيعة. فممارسات الطبقة السياسية الفاسدة في لبنان تفتقر إلى أبسط مقومات القيم الإنسانية والأخلاقية. وقبيل تفجير

الأزمة المالية، جمعوا أكبر كمية ممكنة من العملات الأجنبية المودعة في البنوك العاملة في لبنان وحولوها لحساباتهم الخاصة لدى البنوك الأجنبية. ففقد الدولار من الأسواق بعد أن إرتفع سعره من ١٥٠٠ ليرة للدولار الواحد إلى أكثر من عشرين ألف ليرة.

ويلاحظ ان الإنتقادات الموجهة اليوم للطبقة السياسية الحاكمة لم تعد تستثني أحدا من رموزها، رغم كثرة ثرواتهم. وهي تؤكد أن الممارسة العملية لجميع أفرادها أبرزت خللا حادا في أخلاقيات الطبقة السياسية الفاسدة، وتراجع مصداقيتها الإنسانية كثيرا عما كانت عليه في مرحلة الإستقلال. فلم يعد الفكر السياسي اللبناني وطنيا جامعا بل توافقيا يعتمد أسوأ أشكال المحاصصة الطائفية والمذهبية.

وتدرك القوى الإجتماعية الفاعلة في لبنان أن النظام الطائفي لم يعد قادرا على اقامة العدالة الاجتماعية أو التوازن بين المناطق والطوائف والطبقات الاجتماعية. ودلت أبحاث علمية معمقة على ان التمسك بالنظام الطوائفي، سواء بنسخته الاصلية المسندة إلى الميثاق الوطني أو بالنسخة الجديدة مع وثيقة الطائف أو بأية نسخة أخرى، سيقود حتما الى الانفجار الاجتماعي عبر نزاعات أهلية وصدامات دموية تستدرج تدخلات إقليمية تهدد بقاء لبنان كدولة مستقلة وذات سيادة تامة على أراضيها. كما أن سيطرة الرأسمال الريعي الكبير على مقدرات لبنان المالية والاقتصادية والعقارية عبر شركات محلية وعربية ودولية لا تخضع لرقابة لبنانية صارمة سبب دعم الطبقة السياسية الفاسدة المشاركة في رساميلها وأرباحها. فوجدت تلك الشركات في لبنان واحة خصبة للتوظيف المجزي بفوائد عالية جدا دون ان تدفع ضرائب تذكر قياسا لما تدفعه تلك الشركات في الدولة ذات الرقابة المالية الفاعلة.

علما أنه بعد أن تم ربط لبنان تبعيا بالمراكز المالية العالمية حظي نظامه المالي بثقة تلك المراكز، وإعتبرها بعض المحللين أنها كانت ثقة مفيدة لاستنهاض الإقتصاد اللبناني في حال إعداد البرنامج الاقتصادي والاجتماعي العقلاني الذي ينطلق من تعزيز دور الانسان اللبناني كقوة اساسية في الانماء والاعمار، وليس لتغطية مشاريع غير منتجة تعطي الأولوية للمشاريع المنتجة. فشهد الفكر السياسي في مرحلة ما بعد صراعات حادة على مختلف المستويات: صراع بين أركان السلطة، وصراع بين جماعة الطائف داخل الحكم، وصراع بين السلطة والمعارضة البرلمانية، وصراع بين السلطة والمعارضة الشعبية. ودخلت صيغة الطائف مرحلة الاحتضار بعد ان تخلى عنها دعاتها، وباتت الكتابات النظرية تشير إليها بوصفها صيغة وفاقية مرحلية أنجزت وظيفتها بانهاء الحرب في لبنان دون أن تحصن شعبه من حروب محتملة. إذ لم تكن في الاساس صيغة للتغيير الجذري بل لوقف الحرب. وأصبحت الادارة اللبنانية مرتعا للفاسدين والمفسدين بعد تعطيل كل أجهزة الرقابة أو

شلهـا. ولم تجـد الدولة وسيلة لمعالجـة الازمات الحـادة، والفضائح المتلاحقـة، والفساد المستشري الا بكمّ الافواه، ومنع التظاهر، والتضييق على وسائل الاعلام. وكلها تدابير تقود الى زيادة الاحتقان الشعبي وتهدد بسلسلة من أعمال العنف المدمر، بأشكال مختلفة .

بعض الملاحظات الختامية

أمعن النظام السياسي الطائفي في لبنان في ترسيخ توازنات مذهبية تعزز الولاء للزعيم الطائفـي علـى حساب الولاء للوطن الموحد. ورفض زعمـاء الطوائف أي تغيير جذري يطول بنيـة هـذا النظام السياسـي أو يمنع خلافة الأبنـاء للآباء في سلسلة مـن الوراثة السياسية العائلية المستمرة منذ مئات السنين. فكان على حركة التغيير الديموقراطي السلمي المطالبة بتطويـره علـى أسس وطنية غير طائفية لتحقـق الإصلاح الشمولي عبر نقـل اللبنانيين من رعايـا إلى مواطنين أحرار ومتساوين في الحقـوق والواجبات في دولة القانون والمؤسسات. وتبنـت مقولـة سليمة تشدد على أن الشباب هم قوة التغيير الأساسية وأنهم الأكثر قدرة على بناء نظام سياسي وطني جامع.

جمع زعمـاء الطوائف بين الزعامـة السياسيـة، والعصبية الطائفيـة، والنفوذ المالي، والترهيـب الميليشياوي في صراع مستمـر لإضعاف الدولة المركزيـة ومؤسساتها. ونشرت دراسـات علمية رصينة حول الظاهـرة الطائفية التي تحولت في لبنان والمنطقة العربية إلى عصبيـات قاتلـة، داخـل الطائفة الواحدة وفي مـا بينها. وما زالت حتـى الآن تتحكم بمسار الدولـة والمجتمع فـي تاريخ لبنـان المعاصر. ونظـرا لتفجر الأزمـات المعيشيـة والتربوية والصحيـة والإجتماعيـة يعيشـ المجتمع اللبناني اليـوم حالة ركود حضاري لأنـه يسير في الاتجـاه المعاكـس لمسـار التاريخ المعاصـر. فكان بد مـن لا خوض معركـة مصيرية تعيد للبنـان القيـم الحضاريـة فـي الممارسـة اليومية. وقـد وصف بعضـ المؤرخيـن المرحلة الراهنـة بأنهـا عودة من الدولة الوطنيـة إلى الدولة الطائفية لا بـل المذهبية، ومن الإنتماء الوطنـي إلى الانتماء الطائفي بشكلـه الأكثر تزمتا. وهناك مؤشرات لا حصر لها تؤكد فشل الدولـة الحديثة فـي لبنان بسبب خضوعهـا لزعماء الطوائف وميليشيـات الحرب، والفساد المستشـري فـي غالبيـة مؤسساتها الرسمية والخاصـة، وهيمنة رأسماليـة ريعية تقوم على الربح السريع،والصفقات،والسمسرات، والمضاربات العقارية وغيرها. وهي تمتلك عشرات مليـارات الدولارات المكدسة في البنوك اللبنانية وخارجها دون توظف الحد الأدنى منها في مشاريع إنتاجية تساهم في التنمية البشرية والإقتصادية المستدامة في لبنان. وبات واضحا أن نشـر التفاؤل الخادع بزوال النظـام الطائفي هو مجرد أوهام طالما أن النظام السياسي اللبناني ما زال يبنى على الطائفية .

لـذا دعـا المتنورون اللبنانيـون مرارا إلـى بناء دولـة ديموقراطية علمانيـة تساوي بين المواطنيـن في الحقـوق والواجبات. مع التنبيه إلـى أن القوى الديموقراطيـة والعلمانية لم تثبت كفاءة عالية في مواجهة القوى الطائفية المدعومة بقوة من الطبقة السياسية الفاسدة. ساهمـت ثقافة المقاومة للاحتلال الإسرائيلي وللفساد السياسـي والإداري والمالي بإدخال تغييـر جـذري في النظام السياسي اللبناني تجلى بإجمـاع اللبنانيين على العداء لإسرائيل، والدعـوة لتثقيـف الشباب فـي الأحزاب والمنظمـات والطلابية والنسائية فـي لبنان بثقافة وطنيـة وقومية معاديـة لإسرائيل. وهي ثقافة حضارية ترفض كل أشكال الاحتلال، وتقدس الحريـة، وتتمسك باستقلال لبنان التام، وسيادتـه الوطنية على كامل أراضيه. ولبنان اليوم منحاز بقوة إلى جانب قيم الحرية، والإبداع بالكلمة وبالموقف العملي. واللبنانيون متمسكون بتراثهـم المقاوم بوصفه أولا فعل التـزام بتحرير الأرض والإرادة معا. وأن اللبناني مواطن حـر، ينتسـب إلى شعب يعشق الحريـة، ويمارس حقه الطبيعي في الحيـاة على أرض حرة لا يدنسهـا أي احتلال من أي نـوع كان، ولا تشاد عليها قواعد عسكرية تكبـل الإرادة اللبنانية. وليس بمقدور أي مثقف لبناني حر أن يصافح اليد التي إغتالت دور لبنان الحضاري وحولت بيـروت إلى مدينـة أشباح بعد إنفجـار مرفإها، وهجـرة قسم كبير مـن مبدعيها، وإغلاق منابرها الثقافية الواحدة تلو الأخرى.

تخوض القوى الديمقراطيـة في لبنان معركة الحرية، والإستقرار الإجتماعي، وإستعادة الإزدهار الإقتصادي. وتنخرط وسائل الإعلام اللبنانية إلى جانب القوى الحية في الدفاع عن حرية الثقافة والمثقفين. وتتلاقى المنابر الثقافية المتباعدة جغرافيا والمتجانسة من حيث الأهـداف والتطلعات وأساليب النضال علـى طريق الفعل الثقافي الموحد. والمثقفون العرب معنيون بتجديد دور لبنان كمساحة للثقافة والإبداع بعد أن إمتلأت المنافي في الخارج بآلاف المثقفين المناضلين بالكلمة، و اللوحة، والمسرحية، وسلاح الموقف الثقافي والإعلام الحر. ويبقى لبنان على الدوام فسحة ثقافية عربية بامتياز لأن التنوع البشري والثقافي فيه مصدر غنـى إنساني وحضاري. فقد تبنى منذ بداية النهضـة العربية ثقافة وطنية وقومية وإنسانية كانت نتاج تاريخ طويل من التفاعل الخلاق بين الحضارات والشعوب. وبالتالي، فتهميش دور لبنـان الحضاري في مرحلة الدولة الفاشلة والطبقة السياسية الفاسدة، والنزاعات الدموية المستمـرة بأشـكال متنوعة يقود إلى نتائـج وخيمة تجرد الجماعـات اللبنانية من مخزونها الثقافي والنفسي وتحولها إلى كتل بشرية عدائية مستنفرة دوما للنزاعات الطائفية المدمرة والتـي حولـت الجماعات اللبنانية إلى كتل بشرية متجاورة مع بعضها دون تفاعل حر، وتعيش حالة من الإرتياب المتبادل في النظرة الهجينة إلى التراث الثقافي الملتبس لكل منها. وهي الآن منهكـة بثقافـة إستهلاكية متفلتة مـن الضوابط والقيم الأخلاقيـة، تبثها وسائل إعلام

تجارية تخضع لإغراء الربح السريع.

لا بد إذن من التعاطي الإيجابي مع القيم الإنسانية والأخلاقية لدى المجتمع الأهلي للحفاظ على التماسك الإجتماعي في لبنان. وهناك مقولات نظرية في التاريخ الحضاري تساعد على تطوير الهويات الطوائفية ودفع جماهيرها للمشاركة في بناء الهوية الوطنية الجامعة. فمستقبل لبنان الحضاري رهن بتهدئة الهويات الطائفية والإستفادة من القيم الدينية والإنسانية في إعادة بناء الإستقرار الإجتماعي والإزدهار الإقتصادي فيه. وهو بحاجة ملحة إلى مشروع ثقافي كبير يعيد إليه دوره الرائد في إقامة التواصل بين المثقفين العرب والمنابر الثقافية العالمية المهتمة بقيم الحرية،والعدالة الاجتماعية، وإحترام الثقافات المحلية. والمشروع الحضاري الذي يحتاجه لبنان في مواجهة تحديات العولمة وثقافتها الكونية يقوم أولا على تعزيز موقعه في نشر ثقافة إنسانية تشكل النقيض لثقافة العنف الدموي، والتمييز العنصري، وعدم تغليب مصالح زعماء الطوائف على مصلحة لبنان الوطن والمواطنيين الأحرار فيه. وتاريخ لبنان الحضاري حافل بالدروس التي تؤكد أن العنف عاجز عن حل أي من المشكلات الكبرى بل يزيدها تعقيدا. كما أن فرض ثقافة إستهلاكية كونية على الثقافات المحلية يقود إلى تدمير الركائز البنيوية لحضارة لبنان مع الخوف من التمسك الغوغائي بالثقافات المحلية من منطلق الحفاظ على التراث والأصالة ورفض التغريب والاستلاب. وبعد أن عاث الفساد السياسي والإداري والمالي، والدمارالإقتصادي، والإفقار الإجتماعي، والتشويه البيئي، يحتاج لبنان إلى تغيير جذري في نظامه السياسي الطائفي الذي شوه وجه لبنان الحضاري لصالح زعماء الطوائف والميليشيات. ويكمن الحل السليم بتبني ثقافة عقلانية وعلمانية من نوع جديد تستند إلى التراث الحضاري، والقيم الأخلاقية والإنسانية. فرغم الأزمات السياسية والإقتصادية والمالية والإجتماعية مازال نظام القيم الثقافية والحضارية في لبنان قادرا على إطلاق مؤسسات جديدة تساهم في نشر الثقافة الجادة، وإحتضان المبدعين من المثقفين والفنانين وحماية الأعمال الإبداعية، الفردية منها والجماعية، للحفاظ على ركائز تاريخ لبنان الحضاري في وقت عملت فيه الطبقة السياسية الفاسدة تراكم الأموال المنهوبة وإفقار اللبنانيين وحرمانهم من النشاط الثقافي والإبداع الفني.

ختاما، أصيبت مؤسسات الدولة المركزية بنزف حاد جعلها عاجزة عن الصمود.وأصاب الشلل مؤسسات المجتمع المدني بسبب هيمنة الطبقة السياسية الفاسدة على مؤسسات المجتمع والدولة. وذلك يتطلب تفعيل مؤسسات الدولة المركزية وتماسكها في ظروف مصيرية الحفاظ على وحدة الشعب والأرض والمؤسسات في هذه المرحلة البالغة الخطورة من تاريخ لبنان السياسي والحضاري. أما شعارات الإصلاح، ومحاربة الفساد، وبناء الدولة

الديموقرطيــة العادلة، ومحاكمــة الفاسدين وناهبي ودائــع اللبنانيين فتبــدو مؤجلة إلى ما بعد حل مشكلات المهجريــن، ومعالجة الدمار الإقتصادي، وتوافق الدول الكبرى المتحكمة بمصيــر منطقة الشرق الأوسط ودولها وشعوبها. ويعانــي النظام السياسي اللبناني تراجعا كبيــرا في دور القــوى الديموقراطية والعلمانية. وهي ظاهرة خطيــرة منتشرة في جميع دول الشــرق الأوســط وتؤشر لوجود مخططــات أميركية جاهزة لإعادة تقسيــم المنطقة وتجاوز الحــدود التي رسمهــا التحالف الفرنســي - البريطاني عبر إتفاقيــات سايكس-بيكو. وذلك يتطلــب التصدي لصراع العصبيات المذهبية المنغلقة في لبنان وعلى إمتداد العام العربي. وتتحمــل منظمات المجتمع المدني مسؤولية كبيرة في نشر ثقافة التنوير الديني والسياسي. وعليها أن تبلور مقولات نظرية جديدة يمكن الإستفادة منها في تنظيم نضالات مشتركة تجمع أبناء الطوائــف في ساحة النضال من أجل الإصلاح السياســي، والإقتصادي، والإجتماعي، والتربــوي، والإعلامــي، والديني . وهي مدعوة إلى توثيــق علاقاتها مع القوى الديموقراطية الفاعلة، داخل النظام السياسي وخارجه، إلى جانب نخب سياسية وثقافية وإقتصادية تريد فعــلا بناء دولــة ديموقراطية عصريــة وعادلة في لبنــان. ودعاة لبنان الحضــاري مطالبون بحمايــة المجتمــع التعددي والتنــوع الثقافي فيــه. فمصير القيم الحضاريــة والأخلاقية في لبنــان رهن بتوليد تيار عقلاني علماني يتجاوز جميــع الطوائف والمناطق، ويحافظ على كل مــا هو إيجابي لدى اللبنانيين على إختلاف طوائفهــم. والقوى الشبابية المتنورة مدعوة إلى وأد النزاعــات الطائفية والفتن المذهبية، وإقامة التوازن الدقيق بين قيم الأصالة وتحديات ثقافــة العولمة، والمشاركة الفاعلة في ثورات العلم والإعلام والتواصل. وإقامة تحالف واسع يضم القوى الوطنيــة والديموقراطية للعمل معا على قيام الدولة الوطنية العادلة على قاعدة صلبة تحترم تاريخ لبنان الحضاري وتفتح آفاقا مستقبلية للمشاركة في عولمة أكثر إنسانية.

بعض مصادر الدراسة

- تويني،غسان: الجمهورية في إجازة، دار النهار، بيروت ١٩٩٢.

- سنو، عبــد الــرؤوف: حــرب لبنــان ١٩٧٥-١٩٩٠: تفكك الدولــة وتصــدع المجتمع. مجلــدان، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨.

- = : لبنان الطوائف في دولة ما بعد الطائف، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت ، ٢٠١٤.

- شرف، جان: الإيديولوجيا المجتمعية: مدخل إلى تاريخ لبنان الإجتماعي، بيروت ١٩٩٦.

- صلح، رغيد: لبنان والعروبة، الهوية الوطنية وتكوين الدولة. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٦.

-طرابلسي، فواز: تاريخ لبنان الحديث،من الإمارة إلى اتفاق الطائف. دار رياض الريس، بيروت ٢٠٠٨.

عيراني، جورج (مشرف): التهجير والمصالحة في لبنان ما بعد الحرب .منشورات الجامعة اللبنانية الأميركية، بيروت ١٩٩٧،

- قرم، جورج: مدخل إلى لبنان واللبنانيين: دارالجديد ، بيروت ١٩٩٦.
- قصيـر، سميـر: حرب لبنان، من الشقاق الوطني إلى النـزاع الإقليمي ١٩٧٥-١٩٨٢.دار النهار، بيروت ٢٠٠٧.
- كسبار، توفيق: إقتصاد لبنان السياسي ١٩٤٨-٢٠٠٢. دار النهار، بيروت ٢٠٠٥.
- مجموعة باحثين: اليوبيل الذهبي لإستقلال لبنان. منشورت الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٩٦.
- مركـز الحريري الثقافي (ناشر) : لبنان في تاريخـه وتراثه.،بإشراف الدكتورعادل إسماعيل.بيروت ١٩٩٣.
- نعمة، أديب: الدولة الغنائمية والربيع العربي.منشورات دار الفارابي، بيروت ٢٠١٤.
- ضاهر، مسعود: لبنان، الإستقلال والميثاق والصيغة . دار الفارابي ،طبعة ثالثة ٢٠١٦ .
= : لبنان في وثائق الأرشيف الأميركي ١٨٣٥- ١٩٥٩.منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ٢٠١٤.

-HUDSON، Michael: The precarious Republic :Political Modernization in Lebanon. New York 1968& 1985.

- Khalaf، Samir: Civil and uncivil Violence in Lebanon. Columbia University Press، New York 2002.

Makdisi، Ussama: The culture of sectarianism: community، history، and violence in nineteenth-century Ottoman Lebanon، Berkeley، California Press، 2000.

-Noujaim، Paul: La Question du Liban،.Jounieh-Liban 1961.

-NaccacheGeorges، Un Reve Libanais 1943-1972>Editions FMA،Beyrouth 1982.

- RABBATH، Edmond: «: La Formation historique du Liban-Essai de Synthèse. Publications de l’Université Lebanese، Beyrouth، 2éme Edition- 1986.

- SALEM، Elie Adib : Modernization without Revolution ، Lebanon’s Experience.

SHEHADI ، Nadim and HAFFAR MILLS، Dana (Editors): Lebanon: A History of Conflict and Consensus. Centre for Lebanese studies – London 1988.

- TOYNBEE، Arnold: Le Liban ،Expression de L’Histoire. prononcée le Mai 1957 et Publiée dans les Conférences du Cénacles ،.Numero6،1957 . pp.43-49.

بعد مئة سنة وسنة على قيام الدولة اللبنانية الحديثة المعوّقات المانعة للتغيير وبناء الدولة الوطنية

أ. د. محمد مراد

أولا: تقديم البحث والاشكالية

لـم تظهر الدولـة اللبنانية الحديثة نتيجـة طبيعية لتطورات ذاتيـة دفعت بالمقاطعـات اللبنانية قبل (1920) الـى الاندماج والتوحّـد في اجتماع سياسي لبناني واحد، وقيام دولـة لبنانية في إطار جغرافية اجتماعية وسياسية جديدة، وإنّما كانت ولادتها التي أعلنت في الأول من أيلول (سبتمبر)1920 استجابة لتقاطـع مصلحي اقتصادي – سياسي بين مشروعين اثنين: الأول، فرنسي، في تأمين نفوذ حضوري وازن فـي المشرق العربـي انطلاقا من السيطرة الانتدابية على لبنان وسوريـا وبغطاء من عصبة الأمم آنذاك، والثانـي، مشـروع رأسمالية تجارية طموحة (تتجير الحرير) الناشطة في متصرفية جبل لبنان والمنفتحة على الأسواق الفرنسية في مرسيليا وليون وبوردو وغيرها، والتي وجدت فرصتها في تكبير لبنان تحت ضغط الحاجـة الـى التمدّد الى المرافىء الساحلية فـي بيروت وطرابلس وصيدا وصور، والـى الأراضي الزراعية الخصبة في سهول البقاع وعكّار والجنوب.

جاء إعلان الدولة الجديدة ليشكّل تحولا نوعيا في الانتقال من جغرافية المقاطعات العثمانية السابقة كوحـدات إدارية غير مستقرّة وغير ثابتة، الـى جغرافية إدارية – سياسية لدولة مركزية محدّدة من حيث المساحـة المتريـة (نحو 10452 كلم2) وضمن حـدود طبيعية ودولية من جهة، ومـن حيث التقسيمات الادارية المتكاملة في إطار من الهرمية الوظائفية من جهة أخرى[(1)] .

اعتمـدت سلطات الانتـداب الفرنسي منهجية المأسسة للدولة الناشئة وفاقـا لنمط الدولة السائد في فرنسـا وغيرهـا من دول غرب أوروبا ذي الطبيعة الرأسماليـة، إلاّ أنّ هذه المنهجية لم تلبث أن اصطدمت بمعوّقـات مانعـة لقيـام مثل هذه الدولـة الحديثة، معوّقـات كانت مخزونة فـي البنيـة المجتمعية لجماعة المقاطعـات السابقـة، والتي لم تكن مؤهّلة بثقافتهـا التقليدية المحافظة للتفاعل مـع كيان سياسي جديد ومؤسسـات ادارية ودستوريـة وحقوقية، ومع سلطة مركزيـة تمارس الرقابة والظبـط المركزي على سائر تشكّلات الهرم الاداري والسياسي في الدولة ومؤسساتها ووظائفها .

انتهـت المرحلـة الانتدابية من غيـر أن تنتهي معها المعوّقات التي استمرت تحكـم بأزماتها المرحلة الاستقلاليـة الممتـدة منـذ العـام 1943 وصولا الى اليـوم، فقد ظهـرت خلالها ازمات حـادّة كادت أن تطيـح بكيان الدولة كاجتماع سياسي غير قابـل للاستمرار. من أبرز هذه الأزمات كانت أزمة الخمسينيات مـن القـرن الماضي (القرن العشرين) علـى أثر الانقسام العمـودي الطائفي – السياسـي من حالة المدّ القومي على أثر قيام الوحدة المصرية – السورية، ومن ثمّ أزمة الستينيات في الانقسام نفسه من الوجود الفلسطينـي المسلح على أرض لبنان، والذي رأت فيه القـوى المسيحية على أنّه يشكّل اختلالا في معادلات التـوازن الديمغرافي والسياسـي والأمني التي ارتكز اليها ميثاق الدولة الاستقلالية، وقد كان هذا الاختلال أحـد أبرز الأسباب لأزمتي الحرب: الأولى، الحرب الأهلية التي تواصلت بين 1975 – 1990، والثانية، الحـرب الاسرائيلية 1982، التـي أخرجت المقاومة الفلسطينية من لبنان، والتـي استمر معها الاحتلال الاسرائيلـي لثماني عشـرة سنة (1982 – 2000)، بعدهـا كانت أزمة اغتيال رئيس الـوزراء اللبناني

الأسبـق رفيق الحريري (14 شبـاط 2005) ليشهد معها لبنان السياسـي انقساما عموديا بين 8 و14 آذار، وتعثرا في مسلسل تأليف الحكومات اللبنانية وصولا الى الأزمة الكبرى التي انفجرت في تشرين الأول 2019، والتي مازالت تتزايد تعقيدا في الوضع السياسي والاقتصادي والمالي والمعيشي الى حد بات معها الاجتماع اللبناني بكليته أمام مصير حذر، إذ بات ينذر بنهائية الكيان وطنا ومجتمعا ودولة معا .

الاشكالية: ظاهرة التراكمية في الأزمات اللبنانية

يسعى هذا البحث الى معالجة إشكالية أساسية استمرت تحكم تاريخ لبنان الحديث والمعاصر في ظل دولتـه الحديثة التي مضى على قيامها قرن ونيّف من السنـوات . تتمثّل هذه الاشكالية بالظاهرة التراكمية التصاعديـة للمعوّقات التي حالت دون حدوث متغيّرات نوعية قادرة على احتواء الأزمات من ناحية، وتوفير المعطيـات الكفيلة بالتطوير الكلي وبناء مداميك الدولة الوطنية اللبنانيـة العميقة والعصية على التفكيك والتشظّي والانتهاء من ناحية أخرى .

إنّ المسار الذي حكم تطور الدولة اللبنانية منذ قيامها وحتى اليوم هو مسار أزماتي – تراكمي، ظلّت أزماته مستمرة بفعل أسبابها المعادة الانتاج والناجمة عن مخزون احتياطي ثقيل من مركّب بنية مجتمعية مـن ولاءات أولية طائفيـة ومذهبية وعشائرية وعائلية ومناطقية، ومن ريعيـة حاكمة لعلاقات انتاج ما قبل الرأسماليـة، وخدمية تجارية وزبائنية ليست في مصلحـة الاقتصاد الوطني، ومن تسلطية سياسية حكمت الدولـة ومجتمعهـا بعقلية اللادولة، والتي راحت تتوزّع السلطة والثروة العامّـة أنصبة طائفية سياسية على قاعـدة المحاصصة وفي الاتجاه الذي يسمح لها بتجديـد مواقعها على كل مستويات هرم السلطة والبنيان السياسي العام .

لـم تستطع قـوى المجتمع المدني بـكل هيئاتهـا وتشكّلاتها السياسيـة والنقابية وطروحـات أحزابها العلمانيـة واليساريـة والوطنية، لم تستطع مجابهة المعوّق الأزماتي – التراكمي الذي استمر يطبع المشهد اللبنانـي العام بدوّامة من الأزمـة – التسوية، وهي دورية مستمرّة حتى أنّهـا باتت ظاهرة ذات خصوصية لبنانيـة قائمـة على جدلية تربط بين الأزمـة والتسوية، بحيث كانت الأزمة تنتهي الـى تسوية ظرفية تؤجّل الأزمة دون أن تلغيها لتعود بعدها الأزمة من جديد تواصل صعودها التراكمي بانتظار تسوية جديدة وهكذا دواليـك فـي حلقة دورية من الأزمات – التسويات المستمـرة . إنّ تاريخ لبنان حافل بالأزمات – التسويات على أساس الشراكات الطائفية، كان أبرزها ثلاث :

الأولى، شراكة القائمقاميتين 1843 ومحورها ثنائية درزية – مارونية.

الثانية، شراكة 1943 الاستقلالية، ومحورها ثنائية مارونية – سنّية.

الثالثة، شراكة الطائف 1989، ومحورها ثلاثية شيعية – سنّية – مارونية.

حالت الشراكات المشار اليها دون تغليب الخيار الوطني وصولا الى تأكيد نهائية الدولة الوطنية كخيار

استراتيجي ضامن لوحدة الدولة والوطن والشعب اللبناني الواحد .

أهداف البحث

يحـاول هذا البحث تحديد المعوّقات الكبرى التي منعت الاجتمـاع السياسي اللبناني من سلوكه مسار التحديـث والتجديـد، وإبقائه في دائـرة المراوحة والتعثّر، مانعـة عليه قيام دولته الوطنيـة العميقة وفاقا لمرتكـزات المدنيـة والديمقراطية والعدالة التوزيعية، والاستقلال في قراراتهـا السيادية الوطنية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا واستراتيجيا .

ثانيا: المعوّقات المانعة للتغيير والبناء الوطني للدولة

كثيـرة هـي المعوّقات التي حالت دون حـدوث متغيّرات في الواقع الاجتماعـي والاقتصادي والسياسي وبنـاء الدولـة الوطنية العميقة في لبنان، سأكتفـي بتناول ثلاثة هي بمثابة المعوّقـات – المشكلات الأكثر بروزا والأكثر مقاومة للتغيير والبناء الوطني للدولة، وهي التالية :

الأول، المشكلة في وعي الدولة وفي تحوّلها الى ثقافة مجتمعية لبنانية عامّة

الثاني، المشكلة في التجنيد الطائفي والتطييف السياسي للسلطة

الثالث، المشكلة في الفجوات القطاعية والعجز الاقتصادي والفساد الاداري والمالي .

أولا : المشكلة في وعي الدولة وفي تحوّلها الى ثقافة مجتمعية لبنانية عامّة .

مع الاعلان عن «دولة لبنان الكبير» تحت الانتداب الفرنسي، سارعت السلطات الانتدابية الى هيكلة الدولـة الجديدة عبر إصدارها للعديد مـن القوانين التنظيمية الادارية والقانونية والتشريعات الاقتصادية والمالية والعقارية [(2)] ، وكل ما من شأنه المساعدة على إرساء بنية مؤسسية للدولة الناشئة تتكامل في إطار الوظيفـة العامّة لهذه الدولـة . كان الدافع الفرنسي وراء سياسة المأسسـة ينطلق من اعتبارات المصلحة الفرنسيـة العليا في انشاء دولة لبنانية تأتي متوافقة مع النمـوذج الراسمالي للدولة في غرب أوروبا، الأمر الـذي يحقّق الاستجابة المطلوبة للراسمالية الفرنسية فـي الربط السوقي للدولة الجديدة بحركة اسواقها وشركاتها التجارية والمالية ومشاريعها الاستثمارية.

غيـر أنّ المنطلقـات والتوجّهـات الفرنسية سرعـان أن اصطدمت بمعوّقات بنـى مجتمعية تقليدية لم يسبـق لهـا ان اكتسبت تجربة في الانتظام المؤسسي العام، والعمل في ظـل ممارسة رقابية وضبط مركزي من قبل سلطة مركزية عليا هي السلطة الحاكمة للدولة ومؤسساتها . دفعت هذه المعوّقات سلطات الانتداب المعنية الى التكيّف مع الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي السائد داخليا، لا سيّما في المناطق الطرفية فـي البقاع والشمـال والجنوب، حيث عبّرت جماعات من شيوخ العشائر والعائلات، ومعها جماعات اعيانية مدينية في بيروت العاصمة والمدن – المراكز في الساحل والداخل، عبّرت عن تمسكّها بتقاليدها المتوارثة لممارسـة السلطة ارتكازا الى اعتبارات الوجاهة والزعامة والمبايعـة والأعراف العشائرية والعائلية، والى

علاقات انتاج قائمة على المقاسمة والاستتباع الاجتماعي والسياسي للقوى المنتجة الفلاحية والحرفية في الأسرياف والمدن على السواء .

هكذا باتت الدولة اللبنانية الناشئة بين مفهومين متغايرين: الأول، فرنسي حداثوي ينزع نحو الماسسة وعلمنة الدولة، والآخر، أعياني تقليدي محافظ ينزع نحو الأعراف والتقاليد المخزونة في ثقافته التقليدية

هنا كانت الاشكالية التي واجهت مجتمع المقاطعات اللبنانية السابقة على قيام الدولة الحديثة، وهو مجتمع اهلي بولاءاته الأولية من طائفية ومذهبية ومليّة وعرقية وعشائرية ومناطقية، إشكالية تكمن في صعوبة اندماجه في مجتمع مدني حداثوي مؤسساتي، الأمر الذي جعل منه معوّقا إداريا وسياسيا واقتصاديا لعمل الدولة الحديثة، وحائلا دون قيامها بوظائفها من اجل قيادة المجتمع والنهوض به . فثقافة هذا المجتمع القديم، وكذلك ثقافة النخب التي تبوّأت مقاليد السلطة في الدولة الجديدة في العهدين الانتدابي الفرنسي والاستقلال الوطني فيما بعد (انتخابات، دساتير، برلمانات، حكومات الخ ...)، ظلّت ثقافة محكومة بنزعة المحافظة على البنى التقليدية المتمثّلة بالطائفة والمذهب والجماعة الاثنية والعشيرة والعائلة وسواها .

لم تستطع دولة لبنان الحديثة أن تحدث انقلابا ثقافيا ومفهوميا في بنى مجتمعية قديمة، فقد استمرت هذه البنى تمثّل العنصر الأبرز في المواجهة الصراعية بين المفهومين الحداثوي الوافد والتقليدي المحافظ، وهي مواجهة نالت وما تزال، من تطور الدولة الحديثة في ادائها ووظيفتها، الأمر الذي جعلها تختلف،حسب الباحث الفرنسي «جاك فاليرس» عن مثيلتها في الغرب الأوروبي، ويزعم «فاليرس» أنّ «الدولة – الأمّة» هي ظاهرة أوروبية لم يعرفها الشرق العربي – الاسلامي، وكذلك فانّ المسار التاريخي الذي عرفته الطبيعة الخاصّة للدولة والسلطة في هذا الشرق العربي – الاسلامي هو مسار مختلف عن الغرب، وبالتالي، لا يمكنه انتاج نفس نموذج الدولة . فقد ظلّت الدولة الغربية ظاهرة غريبة عن الفكر السياسي العربي عبر مختلف المراحل والحقبات التاريخية. ففي رأيه «لم يحصل في الشرق هذا التدامج والتماثل التدريجي بين العناصر المكوّنة الثلاثة: الأرض، الأمّة، الهيئة السياسية، والتي أدّت الى تكوّن بلدان أوروبا الغربية التي تعتبر فرنسا أكثرها نضجا واكتمالا. ففي الشرق بقيت الدولة ترتبط بالأمير، والدولة – الأرض هي مجرّد تجاور مقاطعات (Juxtaposées) تعود للأمير نفسه. وهذا التعريف يبقى ذاته إن كانت الدولة عبارة عن امبراطورية امتدت الى القارات الثلاث، كما هي حال الأمويين والعبّاسيين ولاحقا العثمانيين، أو كانت عبارة عن تكوين أصغر كما هو الحال مع المماليك، أو إن اقتصرت على مدينة و احدة وضواحيها». وعن طبيعة الحاكم يضيف «فاليرس»: «أنّ هذا الحاكم، خليفة كان أو سلطانا، أو باشا أو أميرا، لا أهمية للقب، يبقى المبدأ واحدا: فالأمير وحده هو الذي يمثّل حقيقة الدولة، والتبعية للأمير وقومه تشكّل المنطلق»[3].

ويطرح «فاليرس» مشكلة الانتماء في المشرق العربي متسائلا: «واذا ما سألت فلاحا من الجزيرة أو

مــن المنطقــة الشرقية من لبنان (Anti-Liban)، أو عجلتون من يكــون؟ يجيبك أنّه من هذه القبيلة أو تلــك، أو مــن تلك القرية، يجيبك أنّه مسلم، أرثوذكسي، أو درزي ... لكن لا يجيبك بعفوية أنّه عراقي، أو سوري، أو أردني ... قد يقال إنّ هذه دول حديثة وكيانات اصطناعية هذا لا شكّ فيه، ولكن أليس من المؤكّد أننا نحصل على النتيجة نفسها في حال ملاحظتنا للفلاّح في مصر؟ هو أيضا يجهل وطنه بالرغم أنّ مصر هي أكثر بلاد العالم تهيوءا لانتاج هوية وطنية» [4].

لا ينطلق «فاليرس» في نظرته لمفهوم الدولة في الشرق من نفس الآليات التي حكمت نشأتها في الغرب، تلــك الآليات التي أنتجت في سيــاق الصراعات الطبقية التي انتهت بتهديم بنـــى النظام القديم، وسيطرة العلاقــات الرأسماليــة بالكامل معزّزة توحيــد السوق، والمحصّلــة الثقافية وتكامل وانسجــام المؤسسات وتأطيرها عبر أجهزة متداخلة ومتكاملة. إنّ مثل هذه الآليات غير متوفّرة في الشرق العربي، وهذا ما جعل الدولــة العربية في النظام الاقليمي العربي تعيش مأزق مشروعهــا في البناء الوطني وفي التأسيس لتجربة في البناء الاجتماعي والاقتصادي والسياسي تكون كافية لضمان بقائها واستمرارها [5].

انتهــت المرحلــة الانتدابية بعد مايقرب من الربع قرن على ولادة الدولــة لتتواصل بعدها هذه الأخيرة فــي ظــل عقود وعهود تعاقبت مــن الحكم الاستقلالي الوطنــي، وفي ظل حاجة الدولة الــى التزود بخبرات إداريــة وتطويرية تستجيــب لقضايا ومصالح أهل الدولــة في مجتمعها المحلي، فكانــت الاستعانة الدائمة بالبعثــات الدولية وبتوفير الــكادرات اللبنانية المتخصّصــة في علوم القانون والحقــوق والتشريع والادارة والتعليــم والخدمــات على اختلافهــا، فقد أفادت الدولة مــن دراسات وتقارير عديــدة، فكانت «بعثة جيب» (JEEB) 1948، وبعدهــا «بعثة إيرفد» (IRFED) ســ 1960 – 1961، هذا الى جانب دورات متتاليــة من خريجي «معهد الادارة والتدريب»، واعتماد آليــات تطويرية لإدارة المؤسسات والمرافق العامّة مــن خلال مجلس الخدمة المدنية والتفتيش المركزي والتنظيــم المدني والجامعة اللبنانية وغيرها الكثير من مؤسسات التحديث والتطوير لوظائف الدولة.

هنــا، ينبغي التفريق بيــن الدولة والسلطة التي حكمت الدولة منذ 1943 وصــولا الى اليوم . السلطة التــي قامت بادارة الدولــة كمؤسسات مشرّعة ومقوننة في صياغات قانونيــة وتشريعية ودستورية، المشكلة تكمــن في الالتباس الحاصل بين الدولــة والهيئة الحاكمة للدولة، أي السلطات المنتشرة على هياكل الدولة المؤسسيــة والاداريــة، فالمؤسسة ليست هي الفاسدة أو الفاشلة أو المتهرّبــة من الضريبة، وإنّما جماعات السلطة التي تدير المؤسسة وتسيّرها .

إذن، المدخل الأساس للاصلاح ينبغي أن يتركّز على توفير سلطات كفوءة ونظيفة وواعية لادارة الدولة ومرافقها العامّة، وهذا الأمر ينسحب بصورة مباشرة على السلطة الرأسية الحاكمة (رؤساء، وزراء، نوّاب، قضاة الخ ...).

إنّ المنظومــة السياسية والادارية التي حكمت الدولــة لمرحلتي ما قبل الحرب الأهلية وما بعد تسوية

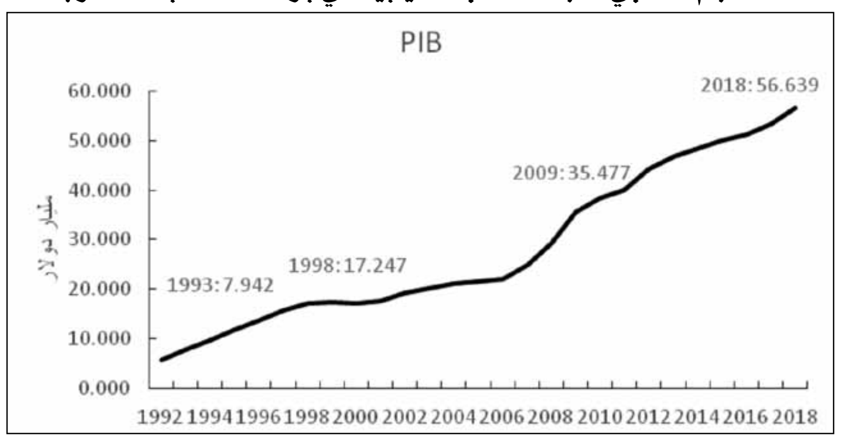
الطائـف، حكمـت الدولة وادارتها بعقليـة تسلطية قامت علـى المحاصصة والتطييـف السياسي والتجنيد الطائفــي من أجل محافظة المنظومة على الثبات في مواقعها وإعادة انتاج نفسها في غير مجلس وزاري أو نيابي أو تولي مفاصل الادارة والمؤسسات المختلفة .

قبـل الحـرب الأهلية تركّبـت السلطة الحاكمة من تحالـف زعامات عائلية وعشائريـة من كبار ملاّك الأراضــي الزراعية (إقطــاع سياسي) مع تجّار ورجال أعمــال من أصحاب الرأسمــال المديني في بيروت وباقي المدن – المراكز. أما بعد الحرب، أي بعد تسوية ألطائف وحتى اليوم، صعدت الى حكم الدولة قوى وأحزاب طائفية سياسية كانت بمعظمها ميليشيات مسلّحة مشاركة ميدانيا في الحرب وجبهاتها العسكرية والطائفية. استغلّت هذه القوى وجودها على رأس السلطة الحاكمة للدولة وراحت تزيد من عمليات التجنيد الطائفي – السياسي في محاولة استئثارية هي الأعنف لطوائفها، حتى باتت الطائفة بقيادة حزبها السياسي هي السمة البارزة التي طبعت صورة الدولة وجغرافيتها الاجتماعية والمناطقية والوظائفية والسياسية .

استمـرت قـوى وأحـزاب الطوائـف السياسية تربط بقـوّة بين بنيتهـا الطائفية من جهـة، والاستئثار بحصّتهـا السياسيـة والمغانمية من جهة ثانية، واحتكار امتيازاتها في تجميـع الثروات وتكديسها من جهة ثالثـة، واعــادة انتاج نفسها كنخبة استئثاريـة للوظائف ولمقاعد العضوية في المجالـس الوزارية والنيابية مــن جهة رابعة . وهذا ما تدلّ عليه انتخابات المجالس النيابية الست التي أجريت بعد الطائف (1992، 1996، 2000، 2005، 2009 و2018)، من حيث محدودية التجديد للنخب البرلمانية في ظل هيمنة القوى والأحزاب على المجالس الست المذكورة .

الشكل البياني الرقم (1)

الحجم النسبي لتجدد النخبة النيابية في برلمانات ما بعد الحرب



المصـدر: محمد مراد، الانتخابـات النيابية في لبنان : القوانين، الدوائـر، النوّاب، منشورات

الجامعــة اللبنانيــة و قسم الدراسات التاريخيــة الرقم (53) ، بيروت، طبعــة اولى، 2013، ص، 694، مع إضافة برلمان 2018 من محاضرة ألقاها الباحث في المعهد العالي للدكتوراه، سنّ الفيل، أيار 2018 .

عــام 1992 بلغــت نسبــة التجــدد 82 % عمّــا كانــت عليه في آخــر برلمان ما قبــل الحرب (1972) ، وهذا يدلّ على إحدى أبرز النتائج التي أفرزتها الحرب الأهلية (1975 – 1990) ، والتــي تمثّلت بسقوط وانهيار القوى السياسية التقليدية (قوى ما قبل الحرب – الاقطاع السياسي) مــن جهــة، وتراجــع فصائل اليســار والقــوى الوطنيــة والتقدمية من جهة اخــرى . أمّا مــع النخبة النيابيــة الجديــدة فلم تزد نسبة التجدد عن 28 % لمجلــس العام 2000، وعن 20 % لمجلس 2018 الأخير، مع الاشارة الى أنّ التجدد هو فقط في الأسماء دون أن يأتي على مستوى الثقافة والفكر السياسي والبرنامج الانتخابي والرؤية المستقبلية للبناء الوطني وتطوير الدولة . تبقى اشارة مهمّة على هذا الصعيد وهي أنّ القوانين الانتخابية لدورات ما بعد الحرب جاءت كلّها مفصّلة على قيــاس قوى الطوائف السياسية الحاكمــة للدولة، وليس على قياس الديمقراطية الشعبية والمشاركة الموسّعــة لنخــب وطنية جديدة متخصّصة فــي الاقتصاد والسياســة والادارة والتنمية والتخطيط، وقادرة على استيعاب حاجات المجتمع اللباني الى التطوير والتنمية المستدامة.

ثانيا: المشكلة في التجنيد الطائفي والتطييف السياسي للسلطة

انسحبــت المقاييس الطائفية في توزعات السلطة علــى البنيان العام السياسي والإداري للدولة اللبنانيــة الحديثة منــذ النشأة الأولى لهــذه الأخيرة في العام 1920، مــروراً بالإستقلال الوطني لعــام 1943 وصــولاً إلــى صيغــة الطائف التــي أوقفت الحــرب الأهلية فــي العــام 1989. فقد استمــرت المحاصصــة قاعــدة ثابتة في كل مــرة يعاد فيها تشــكل السلطة،لاسيما تــوزّع المناصب الحكوميــة والبرلمانيــة بين النخب الطائفيــة التي عرفت ثباتاً طويلاً في الحكــم، والتي كانت تضع نفسها فوق الدولة وفوق القوانين العامة التي اعتمدت كآليات لتسيير الدولة وشؤونها.

ولمــا كان لبنان مجتمعاً تعددياً ضمَّ حوالي تسعة عشر مذهباً طائفياً، فقد كان من الطبيعي أن تصادف عملية توزّع السلطة إلى أنصبة بين الطوائف المختلفة عقبات لا بل صعوبات جمة، لاسيما وأنَّ عملية المحاصصة بحد ذاتها كانت على إرتباط وثيق بمتغيرات القوى الطائفية في صعودها أو هبوطها من ناحية، وبدور العوامل الخارجية الإقليمية والدولية ذات التأثير البالغ على حركة الوضع اللبنانــي الداخلــي من ناحية أخرى. من هنا، كان مسلسل الأزمــات اللبنانية ظاهرة ثابتة في تاريخ لبنــان الحديــث والمعاصر، فمــا كادت تختفي أزمة حتى كانت تطل أزمة جديــدة وذلك في كل مرة تتعثر فيهــا عملية،محاصصة السلطة بفعل المتغيّرات الحاصلة على مستوى القوى الطائفية نفسها

على مستويين:

الأول، داخلي ويتمثل بمتغيرات سكانية واجتماعية واقتصادية وثقافية وعسكرية من جهة، الثاني، خارجي ويعكس المتغيرات الإقليمية والدولية وتقاطعاتها مع الداخل اللبناني من جهة أخرى. لقد استمرت البنية السياسية اللبنانية، وهذا هو الأخطر في تطور لبنان السياسي منذ قيام الدولة الحديثة وحتى اليوم، في كونها بنية مخزونة بعناصر خارجية. فالعناصر الحاملة لهذه البنية من داخلية وخارجية كانت تتحول باستمرار إلى عناصر تضاد داخل البنية نفسها مع مجرد أي تأزم يطرأ داخلياً أو خارجياً، ذلك أنَّ أي أزمة داخلية كانت تجد لها أصداء سريعة في الخارج الإقليمي أو الدولي، وكذلك فإنّ أي أزمة في هذا الخارج كانت تثير أزمة موازية أو امتدادية لها في الداخل اللبناني المحلي.

إنَّ توصيفاً موضوعياً لحركة المتغيرات الطائفية، وكيف أنَّ هذه المتغيرات أفضت إلى اختلال التوازن في توزّعات السلطة، يظهر، إلى حد بعيد، أنّ ثمة قانوناً تاريخياً طائفياً – سياسياً حكم إنتاج أزمات لبنان المستمرة بحيث بات معها المجتمع اللبناني أقرب إلى الانقسام العمودي السياسي – الطائفي، وهو انقسام كان، يهدد ،في كل مرة، مستقبل الكيان الوطني اللبناني ويضعه أمام المجهول.

سنكتفي بالتوقف عند ثلاث محطات تاريخية أسهمت في إحداث متغيرات مفصلية تشابك فيها الطائفي – السياسي الداخلي مع الخارجي الإقليمي والدولي.

المحطة الأولى: تسوية 1943 وطوائف دولة الاستقلال

إرتكزت تسوية 1943 إلى معادلتين إثنتين: الأولى، ظهور ثنائية قطبية طائفية جديدة مارونية – سنّية بدلاً من الثنائية المارونية – الدرزية التي سادت سابقاً في عهدي الإمارة والمتصرفية، الثانية، الخروج بصيغة ميثاقية توافقية[6] عكست التلازم بين المتغيرين الداخلي والإقليمي وتمثلت باستعداد مسيحي للإنفتاح الإيجابي على المحيط العربي (العربنة)، مقابل استعداد إسلامي بقبول الشراكة والاندماج في الدولة اللبنانية (اللبننة) بعد أن كانت مرفوضة إسلامياً منذ إعلانها تحت الانتداب الفرنسي في الأول من أيلول 1920.

كيف كان واقع الطوائف اللبنانية مع ولادة دولة الإستقلال عام 1943؟ سنكتفي بالتوقف عند أربع منها:

الطائفة المارونية: هي الطائفة الأكثر وزناً سياسياً في الدولة الاستقلالية، أسندت إليها رئاسة الجمهورية بصلاحيات واسعة قادرة على الإمساك بكل الدولة ومؤسساتها، إضافة إلى تمثيل وازن في السلطتين التنفيذية (مجلس الوزراء) والتشريعية (مجلس النواب) وفي غير وظيفة من وظائف

الدولة (القطاع العام) والمؤسسة العسكرية (قيادة الجيش) وسائر وظائف القطاع الخاص.

القوى المارونية الفاعلة في الحياة السياسية تمثلت بالبطريركية المارونية التي لعبت دور المرجعية الدينية والسياسية، إضافة إلى أحزاب سياسية أبرزها إثنان رئيسيان: حزب الكتائب اللبنانية الذي تأسّس في العام 1936 برئاسة الشيخ بيار الجميل، وحزب الوطنيين الأحرار 1949 برئاسة كميل شمعون الذي تولى رئاسة الجمهورية (1952-1958). امتيازات هذه الطائفة على صعيد حصتها في الدولة عكست المقولة التالية: « كل ما لها في الدولة فهو لها، وكل ما هو لغيرها فهو لغيرها»[7] .السند الخارجي لهذه الطائفة كانت فرنسا، بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

الطائفة السنّية: مثّلت القطبية الإسلامية على مستوى شراكتها في توزّعات السلطة. فرئيس مجلس الوزراء هو منها وأمَّنت حضوراً معتبراً لها في مجلسي الوزراء والنواب، وكذلك في غير وظيفة من وظائف القطاعين العام والخاص. إلا أنَّ شراكة هذه الطائفة ظلَّت دون التكافؤ مع الطائفة المارونية، فرئيس مجلس الوزراء السني لم يكن في الواقع العملي يتمتع بصلاحيات ذات شأن، كان عملياً منصباً فخرياً وشكلياً أكثر منه منصباً يتمتع بصلاحيات مميزة، لذلك في كل الوزارات التي تألفت بين الاستقلال (1943) والطائف (1989) كان رئيس الوزراء يحتفظ بوزارة حتى يكون مشاركاً عملياً في الحكومة والحكم[8]. من هنا ظلَّت تطرح هذه الطائفة شعاراً مركزياً عنوانه رفع الغبن اللاحق بها خصوصاً وبالمسلمين عموماً.

برز من هذه الطائفة زعامات بارزة تنتمي إلى عائلات مدينية عريقة أمثال عائلات: الصلح (صيدا)، سلام (بيروت)،كرامي (طرابلس). أما السند الإقليمي لهذه الطائفة فكان العمق العربي ذي الأغلبية السنية. وهناك أربعة مرتكزات قوة لها في العمق العربي هي:

- الوزن القومي الذي مثله الرئيس جمال عبد الناصر والذي انعكس في لبنان على ظهور فصائل ناصرية، لاسيما في الأوساط السنية المدينية بيروت طرابلس صيدا وفي البقاع.
- الوزن الاقتصادي والإسلامي الذي مثلته المملكة العربية السعودية.
- الوزن الإسلامي الذي مثلته مؤسسة الأزهر كمرجعية إسلامية عربية.
- الوجود الفلسطيني المسلَّح على أرض لبنان بعد العام 1967، حيث مثَّل قوة عسكرية وسياسية وسكانية انعكست إيجاباً على أهل السنَّة في لبنان قبل غيرهم من الطوائف الإسلامية الأخرى.

الطائفة الشيعية: شراكة ضعيفة في توزعات السلطة، وشراكة إلى حدّ التهميش في إدارات الدولة ومؤسساتها. احتفظت هذه الطائفة منذ العام 1943 بمنصب رئيس مجلس النواب، غير أنه لم يكن في الواقع سوى منصباً فخرياً إذ لم يكسب الشيعة منه سوى ترديدهم عبارة «عطوفة

الرئيس». مثَّل الطائفة في مجلسي النواب والوزراء زعامات ارتكزت في صعودها الاجتماعي – السياسي إلى ملكيات الأراضي في الأرياف الزراعية في الجنوب والبقاع. أشهر هذه الزعامات الأعيانية التي ظلّت أسماء عائلاتها تتردد في غير مجلس نيابي أو وزاري بين الاستقلال والطائف: الأسعد، عسيران، حماده، الزين، الخليل، بيضون، الحسيني، شاهين، الصبَّاح، عرب، صفي الدين...

إنخرط العديد من أبناء هذه الطائفة في صفوف الأحزاب الوطنية التي تنادي بإلغاء الطائفية وبإقامة دولة العدل والمساواة الإجتماعية. وقد وصل الأمر بالانتماء الحزبي لعناصر من هذه الطائفة إلى أن شكلوا المساحة الأوسع من القاعدة الحزبية لسائر الأحزاب الوطنية والتقدمية من المنظمات الشيوعية، إلى الحركات الناصرية، وأحزاب البعث، والقومي السوري الإجتماعي، والتقدمي الإشتراكي وسواه.

شكلت سوريا السند الإقليمي لهذه الطائفة بدءاً من الدخول السوري إلى لبنان في ربيع العام 1976، ومن ثم مثَّلت إيران السند الأقوى في أعقاب انتصار الثورة الإسلامية فيها في شباط 1979.

الطائفة الدرزية: تحولت، مع دولة الاستقلال 1943، إلى أقلية طائفية وكانت مشاركتها في الدولة ومؤسساتها أقرب منها إلى التهميش منها إلى المشاركة المعتبرة. لذلك كانت هذه الطائفة أكثر نزوعاً نحو رفع شعار إلغاء الطائفية السياسية وتقديم الاعتبارات الوطنية والمواطنة كأساس معياري للشراكة بين اللبنانيين، لا بل أنَّ أفكاراً أكثر تقدمية شكلت المنطلقات الفكرية والسياسية والنضالية للحزب التقدمي الإشتراكي الذي أسسه كمال جنبلاط في الأول من أيار عام 1949. فقد استطاع كمال جنبلاط أن يؤثر ويتأثر بحركة التحرر العربية والعالمية. وعلى الصعيد اللبناني المحلي تحول إلى مرجعية مركزية لقيادة العمل الوطني، فأسس الحركة الوطنية اللبنانية[9]،التي تبنت مشروع بناء الدولة الوطنية كبديل استراتيجي للدولة الطائفية وأزماتها المستمرة.

المحطة الثانية: الطوائف والحرب الأهلية اللبنانية (1990-1975)

– الطائفة المارونية: تراجع ملفت تحت وطأة الحرب لأسباب ذاتية داخلية وأخرى موضوعية خارجية إقليمية ودولية.

– الطائفة السنية: فقدان بعض مرتكزات القوة، لاسيما غياب عبد الناصر ومن ثم غياب الدور القومي لمصر في أعقاب إتفاقية كامب ديفيد 1978. وكذلك الخروج الفلسطيني من لبنان في أعقاب الإجتياح الإسرائيلي لبيروت عام 1982، وأيضاً إشغال المملكة العربية السعودية بالحرب الإيرانية – العراقية (1988-1980).

- الطائفة الشيعية: تحولات نوعية عرفتها هذه الطائفة أبرزها:

«1 - سقـوط الزعامات التقليدية التاريخية وظهور زعامة بديلة تمثلت بالزعامة الدينية للسيد موسى الصدر، الذي اتخذ من واقع الحرمان الذي تعيشه الطائفة منطلقاً لتأسيس «أفواج المقاومة اللبنانية» (أمل)، على أن تكون هذه الحركة بمثابة الجامع لأبناء الطائفة من أجل توحيد مقاومتهم الإجتماعية لرفع الحرمان الواقع من الدولة من جهة، والتصدي للخطر الصهيوني المهدد لمستقبل الطائفة في وجودها كونها على تماس جغرافي مع الحدود الفلسطينية في الجنوب اللبناني من جهة أخرى.

«2 - حصـر المقاومة المسلحة للعدو الصهيوني بحركة أمل ومن ثم بحزب الله الذي ظهر في أعقاب الإجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982. فقد عملت أمل أولاً، وحزب الله ثانياً، على مركزة المقاومـة وجعلهـا أحادية المرجعية القيادية والعملياتية بعد ان كانـت تضمّ فصائل متعدّدة وطنية لبنانية وفلسطينية .

«3 - دعـم إقليمـي مزدوج سوري – إيرانـي لنشاط أمل وحزب الله، مـع دور سوري في تعزيز موقـع حركة أمل داخـل البنيان السياسي العام للدولة اللبنانية، مقابـل دور إيراني في تعزيز ودعم حزب الله ماديا وعسكريا ومؤسساتيا، وتزويده بالخبرات العسكرية والقتالية في مواجهته المسلّحة للإحتلال الإسرائيلي في منطقتي الجنوب والبقاع الغربي.

الطائفـة الدرزية: التحـول الهام الذي عرفته هـذه الطائفة خلال الحرب الأهليـة تمثل بحالة مـن الضعف لسببيـن أساسيين: الأول، غياب كمال جنبلاط (القائد المعلـم) الذي اغتيل في آذار 1977، الأمـر الـذي أفقد الحـزب التقدمي الإشتراكي ومعه الحركة الوطنيـة اللبنانية الرأس المدبر. الثاني انجرار الحزب إلى حرب الجبل التي ما لبثت أن أخذت بعداً طائفياً درزياً – مارونياً، الأمـر الذي نقل الحزب التقدمي الإشتراكي من الفضاء الوطني اللبناني الواسع إلى فضاء الطائفة الدرزيـة المحكومة بعقدة الأقلية والتهميشـ في دولة تتوزعها الطوائف في قسمة غير متوازنة وغير متكافئة.

المحطة الثالثة: الطوائف بعد تسوية الطائف 1989:

أسهمـت تسويـة الطائف (23 تشريـن الأول 1989) بوضع حدٍ للحـرب اللبنانية التي توالت فصولهـا المأساوية على مدى خمسـ عشرة سنة. إلا أنّ إيقاف الحربِ لم يشـكل أساساً موضوعياً لإنهـاء الأزمة التاريخية اللبنانية، وهـي الأزمة التي كانت تعيد إنتاج نفسها تبعاً لذات الشروط التي تدخل في عملية تشكلها، والتي كانت باستمرار، عبارة عن جدلية بين السبب والنتيجة، فالسبب هو المتغير الطائفي، والنتيجة هي اختلال توازنات السلطة تبعاً للمتغير المشار إليه.

أما أهم المتغيرات التي أحدثتها تسوية الطائف فقد طالت الطوائف الثلاث الكبرى: المارونية، السنية والشيعية.

على مستوى الطائفة المارونية، شهدت هذه الطائفة تقليصاً مهماً في صلاحيات رئيس الجمهورية[10] ،وهو الرئيس الذي برز تاريخياً كموقع حصري للموارنة في الوقوف على قمّة السلطة في الدولة اللبنانية. والتمثيل الوزاري للموارنة بات محكوماً لمعادلة تقول بالمثالثة ضمن المناصفة، أي عدد وزراء الموارنة موازٍ لكل من وزراء السنة والشيعة، الأمر الذي أفقد الطائفة المارونية وزنها التمثيلي الذي طالما احتفظت به دون سائر الطوائف الأخرى، والأمر نفسه ينطبق على توزعات وظائف الدولة، لاسيما وظائف الفئة الأولى وسواها.

مع هذا التراجع في نصيب الموارنة من الدولة برز تحولان على المستوى السياسي، الأول، انكفاء القوى المارونية التقليدية المتمثلة أساساً بالبطريركية المارونية وبحزبي الكتائب والوطنيين الأحرار. الثاني، ظهور قوى جديدة ارتضت الواقعية السياسية وراحت تتعامل مع الواقع اللبناني العام من خلال معطياته الجديدة السكانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. تمثلت القوى الجديدة بالعماد ميشال عون الذي أسَّس التيار الوطني الحر، وهو حاليا برئاسة صهره جبران باسيل بعد انتخاب عون رئيسا للجمهورية في أيلول 2016 لست سنوات تنتهي في أيلول 2022. لقد أبرم عون « وثيقة تفاهم مع حزب الله عام 2006 «، وهي وثيقة ميثاقية تكاد أن تستحضر النموذج الميثاقي لعام 1943 بين رياض الصلح وبشارة الخوري، ولكن هذه المرة بثنائية مارونية – شيعية بدلا من مارونية – سنية في مطلع العهد الاستقلالي.

على مستوى الطائفة السنية: مع الطائف شهدت هذه الطائفة تعزيزاً لموقعها السياسي على صعيدي الصلاحيات التي منحت لرئيس مجلس الوزراء[11] من جهة، والتمثيل السني في مجلسي الوزراء والنواب وكذلك في الجهاز الوظيفي العام للدولة من جهة أخرى. أما التحول النوعي الذي عرفته الطائفة على أساس تسوية الطائف فكان انبثاق زعامة سنية جديدة تمثلت بالشيخ رفيق الحريري الذي استند في زعامته السياسية إلى كتلة رأسمالية وازنة جعلت من رأس المال القائم على المراكمة أساساً معيارياً في نشوء السلطة على قاعدة توظيف رأس المال في خدمة السلطة وليس على قاعدة تجديد الإقطاع السياسي أو الدور السابق للملكية العقارية الواسعة.

شكل رفيق الحريري معظم الوزارات بعد الطائف، وبات الزعيم السني بلا منازع يستند إلى قوة رأسماله من جهة، وإلى قوة الصلاحيات الممنوحة له من دستور الطائف من جهة أخرى.

إلا أنّ اغتيال الحريري (شباط 2005) جاء ليطرح جملة من التساؤلات تدور حول فرضية انتقاص الطائفة السنية من زعامة بوزن الحريري وبدوره الذي تجاوز الساحة اللبنانية إلى الساحتين الإقليمية والدولية.

علـى مسـتـوى الطائفـة الشيعية: كانت الطائفـة الشيعية أكثـر الطوائف اللبنانيـة التي شهدت تحولات نوعية بعد الطائف، أبرز هذه التحولات:

1 - صلاحيـات مهمـة لرئيس مجلـس النواب الذي تحول من مقولـة «عطوفة الرئيس» قبل الطائـف، إلــى «دولة الرئيس»[12] تدليلاً على حجم المشاركـة الشيعية الوازنة بعد الطائف. أضف إلى ذلك المشاركة الشيعية في سائر مؤسسات الدولة.

2 - بـروز الشيعـة فـي الانتخابـات النيابية في دوراتها السـت بعد الطائـف، ليمثلوا الكتلة الناخبـة المتحكمـة ليس فقط في اختيـار ممثلي طائفتهم وحسب، وإنما أيضـاً في التحكم بمصير غير مرشح من سائر الطوائف الأخرى في بيروت العاصمة ومحافظات جبل لبنان والبقاع والجنوب.

3 - قوة حزب الله التنظيمية والعسكرية، واتساع قاعدته الشعبية، واعتماده على المؤسسات، وصمـوده فـي مقاومة العـدوان الصهيوني، لا سيّما عـدوان تمـوز -آب 2006، كل ذلك جعل من حزب الله ليس قوة لبنانية وحسب، وإنما إقليمية أيضاً دخلت في معادلات القوى الإقليمية وفي رسم استراتيجيات المنطقة على المديين المنظور والمتوسط على الأقل.

أمـام هذا الصعود النوعي لظاهرة حزب الله، راح الحزب يضغط داخلياً باتجاه إرساء معادلة لبنانيـة تأخذ بنظـر الاعتبار واقع القوى المحلية المكوّنة للمجتمـع اللبناني، معادلة تعيد النظر في توزعات السلطة على أساس أحجام الطوائف السكانية والاقتصادية والعلمية والسياسية والعسكرية.

خلاصة القول أنّ الصراع السياسي – الطائفي على السلطة بات يطرح مستقبل الكيان الوطني اللبنانـي ويجعله مفتوحـاً أمام أكثر من احتمـال. الخشية كل الخشية أن يتطـور الصراع السياسي المحتـدم حاليـاً في لبنـان إلى صراع عسكري لا يأتـي على لبنان الوطن والدولة بـأي منفعة، وإنما المستفيد الوحيد منه هو المشروع الأمريكي – الصهيوني المتمثل بإقامة شرق أوسط جديد يرتكز فـي أحد جوانبه الأساسية إلى خلق صراع مفتوح وأبـدي في المنطقة (صراع سني – شيعي) يكون بديـلاً للصراع العربي – الصهيوني الذي لـم يكن مستقبله لصالح الدولة الصهيونية ووجودها في المنطقة أبداً وذلك بفعل مؤشرات التطور المستقبلي التي ستكون حتماً لصالح العرب دون الصهاينة بالاستناد إلــى مؤشرات سكانية واقتصادية وعلمية وعسكريـة.إنّ انفجار المنطقة العربية بحروب مفتوحة بدأت في مطالع العقد الثاني للقرن الحالي، وماتزال مستعرة في عدد من الأقطار فهو يزيد فـي التاكيد على الدور الصهيوني والقوى الداعمة له مـن أجل تشظّي المنطقة وتفكيك جغرافياتها السياسيـة والاجتماعية وصولا الى الرضوخ الطوعي في تطبيع العلاقات العربية – الصهيونية ليس علـى حساب فلسطين وحدها وحسب، وإنّما على حساب دول المنطقة واستقرارها وتنميتها وبنائها الوطنـي . وهـذا ما يدفع على الاعتقاد بأنّ الأزمة اللبنانية الأخيـرة غير المسبوقة في تاريخ أزماته السابقـة، أنّها تدخل فـي سياق المخطط الصهيوني المدعوم أميركيـا ودوليا من أجل إرغام لبنان

على الانضمام الى منظومة التطبيع واللحاق بدول عربية لها وزنها سبقته الى هذا الخيار .

إنّ استنتاجا رئيسيا يمكننا تسجيله في مجال التجنيد الطائفي والتطييف السياسي الذي حكم تطور لبنان مجتمعا ودولة وسلطة حاكمة، يبقى هو بمثابة العنصر الحامل الأكبر لأزماته المتواصلة منذ قيام دولته الحديثة وصولا الى الوقت الحاضر، وأن لا امكانية لبناء دولة وطنية عميقة الاّ بإلغاء مفاعيل الطائفية من بنية الدولة اداريا ووظائفيا واقتصاديا وسياسيا، وهذا الأمر يقتضي إعادة النظر بتشكّلات الحركات والتيارات والأحزاب السياسية، ومعها سائر هيئات المجتمع المدني من نقابات عمّالية ومهنية ومنظمات اهلية على اختلافها .

ثالثا : المشكلة الاقتصادية : خلل قطاعي، مديونية عالية، فساد اداري ومالي

أبرز معوّقات الاقتصاد اللبناني التي أوصلت العجز الاقتصادي الى نقطة القمّة على هرم العجز كانت أربعة اساسية :

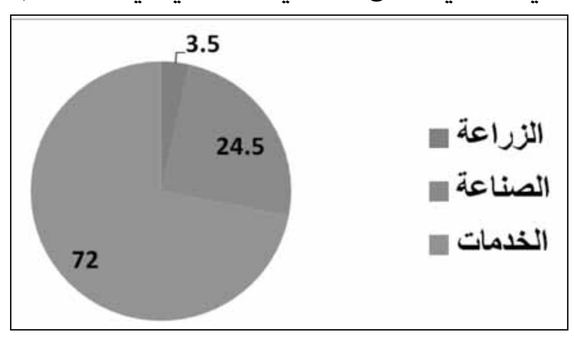
- اختلال وفجوة عميقة بين قطاعات الانتاج
- تعاظم في الناتج الاجمالي المحلي بسبب المديونية العالية وليس بسبب تطور الانتاج
- خدمة دين وعجز دائم في الموازنات الحكومية
- فساد اداري ومالي وتهرب ضريبي

1 – اختلال وفجوة عميقة بين قطاعات الانتاج

لعلّ الشكل البياني الرقم (2) يوضح مديات الاختلال والفجوة القطاعية على ما هو مبيّن في التالي :

الشكل البياني الرقم (2)

التركيب القطاعي النسبي للناتج المحلي الاجمالي في لبنان عام 2016 (%)



المصدر: الشكل من عمل الباحث بالاستناد الى التقرير الاقتصادي العربي الموحّد 2017،

الملحق الرقم (3/1)، ص، 304 .

يتضـح من الجدول أنّ قطاع الزراعة لا يسهم بأكثر من 3.5 % في تركيبة الناتج، والصناعة 24.5 %، أي أنّ القطاعين معا لا يشكّلان أكثر من 28 % من اجمالي الناتج، في حين ترتفع مساهمة قطاع الخدمات الى 72 % أي بما يوازي الثلاثة أضعاف لقطاعي الزراعة والصناعة معا.

أولت حكومات ما بعد الحرب أهمية استثنائية لإعادة إعمار ما دمّرته الحرب، وكان التركيز على العاصمة بيروت في محاولة لاستعادة دورها التاريخي كعاصمة خدمية متفوّقة عربيا وشرق أوسطيا . لذلك، لم تعر الحكومات المتعاقبة الأهمية المطلوبة لقطاعي الانتاج الرئيسيين الزراعي والصناعي، الأمر الذي ابقى هذين القطاعين في دائرة التهميش الاقتصادي من ناحية، وفي محدودية مشاركتهما النسبية في تركيب الناتج المحلي الاجمالي من ناحية أخرى . تركت هذه المحدودية لقطاعي الزراعة والصناعـة تراجعـات انحدارية فـي الكميـات المنتجة للاستهـلاك المحلي دلت علـى ذلك الفجوة الغذائيـة التي راحـت تتسع بسبب الاعتماد على الاستيراد الخارجي للسلـع الزراعية الغذائية من من ناحية، وعلى تراجع في حجم القوى العاملة في الصناعة من ناحية أخرى .

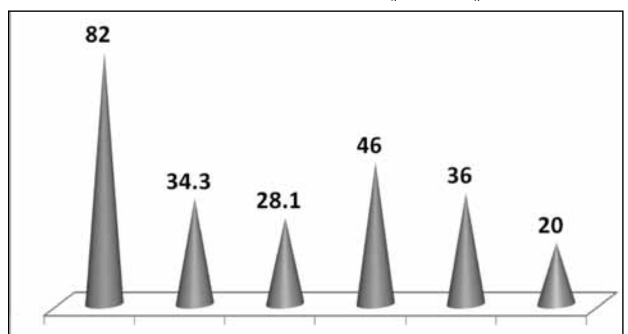
2 - **الناتج الاجمالي المحلي يتطور على قاعدة أزمة بين عامي 1992 – 201**

أسهمـت عوامـل متعددة بعـد توقف الحـرب بإحداث قفـزات خطية في زيـادة حجم الناتج الاجمالـي المحلـي، بحيـث ارتفع، بالاسعـار الجارية، مـن 7.94 مليار $ في العـام 1993 الى 17.25 مليـارا فـي العام 1998، الى 35.48 مليارا عام 2009، الى 49.97 مليارا عام 2015 وصـولا الـى 56.64 مليار$ عام 2018 (9). يتضـح هذا التطور وفقا لما هو مبيّن في الشكل البياني الرقم (3) التالي[13]:



الشكل البياني الرقم (3)

تطور الناتج الاجمالي المحلي بين 1992 – 2018 (مليار دولار)



يتضـح مـن الشكل (3) أنّ حركة الناتـج الاجمالي المحلي في لبنان راحـت تسجّل، على مدى

العقـود الثلاثة التي أعقبت الحرب، نموا خطيا بوتائـر متسارعة، اذ ارتفع مؤشر النمو من 2.09 % عام 1993، الى 6.25 % عام 2009 (بعد مؤتمر الدوحة)، ثمّ عاد الى 3.25 % في عام 2018 [14] .

هـذا الارتفـاع التصاعـدي في أرقام النـاتـج المحلي الاجمالي وفـي وتائر نمـوّه المتسارعة لم يكـن ناتجـا بسبب عوامل طبيعية فـي التخطيط وفي اعتماد سياسة انتاجية تأخـذ بمبدأ التراكمية الانتاجية والتنميـة الاقتصادية المستمرة، وإنّما كان بسبب الأحجام المرتفعة في المديونية (ديون خارجيـة وداخليـة)، وهذا يدفـع في الوصول الى ما يمكـن تسميته بالاختنـاق الاقتصادي وبالتالي المالي للأقتصاد والمالية العامة للدولة .

إنّ ارتفـاع معـدلات النمو في النـاتج الاجمالـي المحلي لا تعني أنّ البنيـان الاقتصادي اللبناني يتسـم بالتطـور الإيجابي وبالسلامة الهيكلية لتركيبته القطاعيـة، فهذا النمو بين عامي 1993 – 2018، كان شديـد الارتباط والتلازم مع المديونيـة التراكمية التي اعتمدتها سائر الحكومات المتعاقبـة، الأمـر الذي جعل من الاقتصاد اللبناني اقتصاد دين، بحيث وصل حجم الدين في العام 2018 ليشكل أكثر من 154 % من الحجم الاجمالي للناتج المحلي، من هنا، فإنّ تطور حجم النـاتـج كان يقابلـه، في الواقع الاقتصادي، أزمة بنيوية ناجمة عـن ارتفاع المديونية من جهة، وعن توجّـه حكومي غالـب نحو إعادة الاعمـار الذي كان أكثر تركّـزا في أسواق بيـروت التجارية بهدف تنشيـط قطـاع الخدمات والتجارة الخدميـة من جهة ثانية، وعن عدم اعتمـاد آليات رقابية لضبط الانفـاق ومكافحـة الفسـاد الاداري والمالي والهـدر النـاجم عـن المحسوبية والزبائنيـة في سائر المرافق العامة للدولة من جهة ثالثة .

بين عامي 1992 – 2018 بلغ مجموع النـاتج الاجمالي في لبنان لكل السنوات 505.444 مليار $ منها 168.5 مليار $ ذهبت هدرا أي ما يوازي 3/1 من اجمالي النـاتج [15]، وهذا يشير الى حجم الفساد المتحكّم في إدارة المال العام للدولة، الأمر الذي احتل معه لبنان المرتبة الرابعة عالميـا في تصنيف الدول الدائنة والتي تعاني من ارتفاع في مؤشرات الفساد المالي وسوء الادارة، وهـذا ما أشارت اليـه منظمة الشفافيـة العالمية عندما أدرجـت لبنان بين أكثر الـدول الحاضنة للفساد، بحيث سجّل مؤشّر الفساد اللبناني الرقم (10) أي 90 % فساد وذلك لسنوات 1995 – 2004، ثمّ الرقم (30) عام 2010، والرقم (20) عام 2018[16]، أي أنّ نسبة الفساد كانت 70 % و 80 % على التوالي لعامي 2010 و 2018 .

إنّ الفساد هو العامل الأكثر خطورة على استنزاف الثروات الوطنية، وهو المسؤول عن الفجوات الاقتصاديـة وتعثر الإدارات والمؤسسات العامـة . الفساد الاداري والمالي هو حالة أمسكت بالدولة اللبنانيـة منذ توقّف الحرب الأهلية وحتى اليوم، وقـد باتت هذه الحالة مستشرية في سائر مفاصل

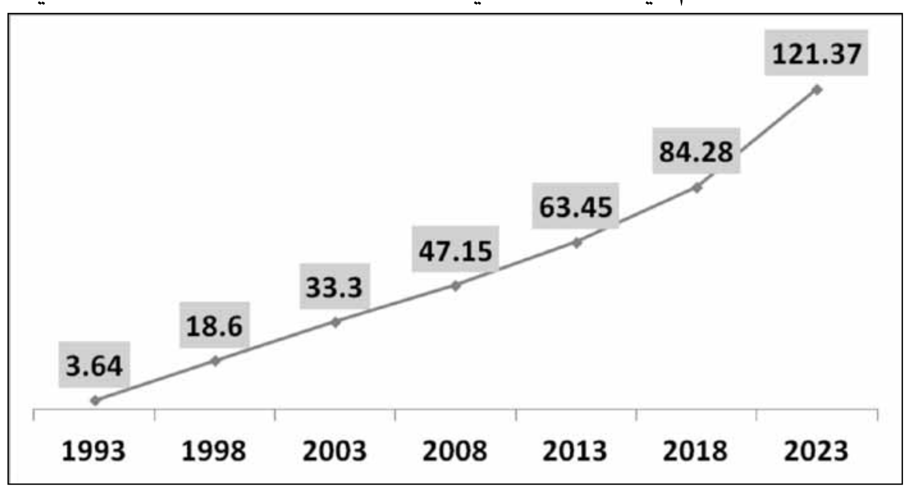
الدولـة مـن أعلى هيئـة حاكمة نزولا الـى مختلف المؤسسـات العامة وصولا الـى الادارات المحلية (البلديات).

إنّ استنهاض الديناميـة الاقتصادية للدولة الوطنيـة اللبنانية يقتضي معالجـة ثورية حاسمة وسريعـة تقـوم على اجتثاث الفساد ليس فقـط في اقتلاعه من مرافق الدولـة الاقتصادية وحسب، وانما ايضا في تنظيف بيئته السياسية الحاضنة لرعايته واستمراره .

3 - مديونية عالية وعجز في الموازنات الحكومية:

فـي مواجهتهـا تعثّر العملية الانتاجية والركود الاقتصادي، لجـأت حكومات ما بعد الحرب الى الاستدانـة مـن الداخل ومؤسسـات االدين الدولي . فبعـد ان كان الدين العـام الاجمالي المتوجب علـى الدولة اللبنانية في السنـوات الأولى التي اعقبت الحرب الأهلية لا يتجاوز 3.7 مليارات دولار أميركـي عـام 1993 ، أخذ هذا الدين مسـارا تراكميا خطيا ليرتفع على النحـو المبيّن في الشكل البياني الرقم (4).


الشكل البياني الرقم (4)
تطوّر الدين العام في لبنان بين عامي 1993 – 2018 (مليار دولار اميركي)



المصـدر: الشكل من عمل الباحث بالاستناد إلى قاعـدة بيانات الأمم المتحدة والبنك الدولي وصندوف النقد الدولي ووزارة المال.

وبذلـك يكـون الدّين العام قد سجّل خلال ثلاثة عقود علـى انتهاء الحرب ارتفاعا خطيا متوقع أن يصـل فـي العام 2023 الى أكثر من 33 مرة عمّا كان عليه فـي العام 1993 ، وبنسبة ارتفاع 3334 %، الأمر الذي بات معه لبنان يتبوّأ المرتبة الثالثة بين الدول الأكثر مديونية في العالم. وبالتـوازي مع حجم الدين العام فـإنّ خدمة هذا الدين كانت هي الأخـرى تسجّل تصاعدا تراكميا

متواصــلا ، ففــي العام 2018 سجّلت خدمة المديونية 8214 مليار ليرة لبنانية (قرابة 5476 مليــار $) علــى مجموع نفقات الموازنة العامة التي سجّلــت بدورها لعام 2018 حوالي 23891 مليــار ليــرة لبنانيــة (قرابة 15.9 مليــار $) ، وبذلك تكون خدمة الدين تشــكّل نحو 35 % من مجمــوع الإنفاق فــي الموازنة، والأمر نفسه يكاد أن ينسحب علــى الموازنة المقترحة لعام 2019، والتي رفعت في مشروع قانون من مجلس الوزراء الى المجلس النيابي من أجل تصديقها ، حيث بلغت 23105 مليار ل.ل أي ما يوازي قرابة 15.4 مليار $، أمّا خدمة الدين فيها فبلغت 8312 مليار ل.ل وبما يوازي 5.54 مليار $. هذه الخدمة المرتفعة للدين كانت العبء الأكثر ثقلا على الموازنة التي سجّلت بدورها عجزا بلغ 5204 و 4322 مليار ل.ل اي بما يوازي ما يقرب من 3.5 مليار $ و 2.9 مليار $ لعامي 2018 و 2019 على التوالي (17) .

ولمّــا كان الشعــب اللبناني هو المعني بسداد هذا الدين مع خدمته، فــإنّ هذه الشعب راح ينوء تحــت ثقل المديونية التــي كانت تتزايد باستمرار، وبالمقابل كان يتزايد معها نصيب الفرد اللبناني مــن جرّاء تحمّله أعباء الدين وعلى حساب حياته المعيشية ومتطلباته من الغذاء والكساء والصحة والتعليم وغير ذلك .

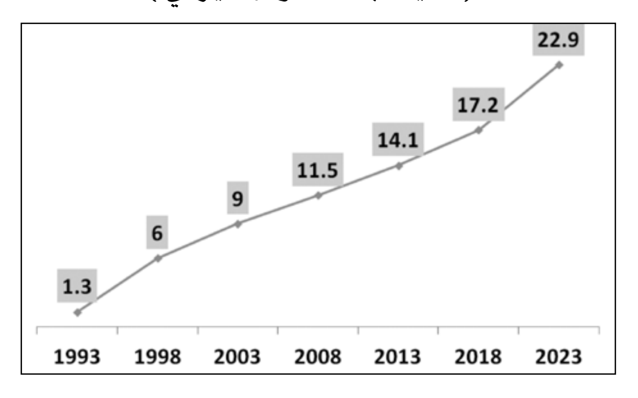
لقــد تزايدت اعداد السكان اللبنانيين المقيمين على الأراضي اللبنانية من 2.8 مليون نسمة عــام 1993 الى 3.1 ملايين، 3.7 ملاييــن، 4.1 ملايين، 4.5 ملايين الى 4.9 ملايين عام 2018، ومن المتوقّع أن يرتفع هذا العدد الى 5.3 ملايين نسمة في العام 2023 .

كان علــى الســكان المقيمين من اللبنانييــن أن يتحمّلوا أعباء سداد الديــن العام وخدمته، بحيث سجّل نصيب الفرد الواحد من هذا الدين بين عامي 1993 و2018 وفقا للشكل البياني الرقم (5).

الشكل البياني الرقم (5)

تطوّر نصيب الفرد اللبناني المقيم في لبنان من مجمل الدين العام

(القيمة بالألف دولار أميركي)



المصــدر: الشكل من عمل الباحث بالاستناد إلى قاعدة بيانــات الأمم المتحدة والبنك الدولي

وصندوف النقد الدولي ووزارة المال.

إذن مركّب الأزمة الاقتصادية من فجوة واسعة بين قطاعات الانتاج، ومديونية عالية مرهقة لخزينة الدولة، وفساد اداري وهدر مالي وتفريغ المؤسسات من أرصدتها لتسيير شؤونها مع سيطرة مكشوفة للمنظومة السياسية التي تسلطت على الدولة ومرافقها العامة بعد الحرب، كلّ ذلك أوصل الى الأزمة الراهنة التي انفجرت في العام 2019 وما تزال في ترمي بثقلها على الشعب اللبناني الذي وقع بأكثريته الساحقة في دوائر الفقر المذقع والحرمان والجوع، ودفع بالعناصر الشابّة الى هجرة غير مسبوقة باتت تنذر بتفريغ المجتمع اللبناني من قواه الحيّة، والدولة اللبنانية من العناصر الضرورية لإدارة مؤسساتها ومرافقها ومستقبلها .

خلاصة واقتراحات

من أول أيلول 1920 الى أول أيلول 2021 يكون المدى الزمني لعمر الدولة اللبنانية قد سجّل مئة سنة وسنة واحدة، وهي باتت معه تلامس الإشارة الحمراء التي تنذر باحد اتجاهين إمّا الزوال والاندثار، وإمّا البقاء وتجدّد الحياة .

إنّ إنقاذ الدولة ليس بالأمر المستحيل أو العصي على الحلول، لكنّ المسألة تتطلّب المزيد من العقلنة والصبر والتحمّل الى جانب المتابعة والمثابرة والتضحية واجتراح الحلول المضمونة النتائج .

ثلاثة مرتكزات حاملة للنهوض بالدولة تتميز بالقدرة الكافية لمجابهة المعوّقات – المشكسلات الكبرى التي ناقشتها هذه الورقة البحثية، وهي على النحو الآتي :

أولا : في مجابهة المعوّق السياسي

1 – على قوى المجتمع المدني بكل تشكيلاته الأهلية والثقافية والسياسية الانخراط في مجالس فكرية وندوات ومحاضرات ومؤتمرات علمية تخرج بمقاربات لمشكلات الدولة اللبنانية وباقتراحات علمية برنامجية للانقاذ الوطني وإعادة بناء الدولة على ركائز جديدة وقوية .

2 – اعتماد الانتخابات على مستوى السلطة القاعدية، والنيابية على مستوى السلطة الرأسية، في تطوير الحياة الديمقراطية التي هي بمثابة خشبة للخلاص الوطني واستنهاض الدولة . وهذا الأمر يقتضي تفصيل قانون جديد للانتخابات يستجيب لمصلحة الدولة وأهلها، ويمنع على محتكري السلطة اعادة انتاج مواقعهم التسلطية على الدولة ومرافقها وثرواتها العامّة .

3 – على الوزارات المعنية الامتناع عن اعطاء التراخيص لأحزاب مذهبية وطائفية، واقتصار العمل الحزبي على أحزاب وطنية منتشرة على الجغرافية الادارية والاجتماعية للدولة اللبنانية بكليتها .

ثانيا : في مجابهة التجنيد الطائفي والتطييف السياسي

1 – وجوب التفريق بين الطائفة كوجود اجتماعي ثقافي روحي، ووجودها السياسي – الأيديولوجي . في كل دول العالم المتقدّم هناك مؤمنون دينيا، واعتقاديون متعددو المذاهب الدينية، لكن لا أثر ولا فعل لانتماءاتهم الدينية – الروحية في التوظيفات السياسية وتوزّعات السلطة ومحاصصة الدولة . هنا، ينبغي الخروج من تجربة الطائفية السياسية التي لازمت الدولة منذ قيامها، والشروع لإخراج الطائفية من السياسة والسياسة من الطائفية، وهذا أمر ينبغي أن ينسحب عل كل المشهد المدني الاجتماعي والثقافي بصورة عامّة .

2 – سحب السلطة من رجال الدين ومن مؤسساتهم كمرجعيات حاكمة موازية لمؤسسات الدولة، ناهيك عن امتيازاتهم المالية والاقتصادية والوقفية وصلاحياتهم في نطاق الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وارث وغير ذلك . والأهمّ من ذلك حصر دورهم في شؤون اجتماعية وثقافية صرفة بعيدا عن التدخلات السياسية وتشكيل مراكز قوى سلطة داخل الدولة .

ثالثا : في مجابهة المعوّق الاقتصادي

1 – اعتماد سياسات اقتصادية انتاجية توازن بين قطاعات الانتاج بهدف ردم الفجوة بينها، والتأسيس لقاعدة انتاجية تاخذ بالتخطيط الاستراتيجي للتنمية والتطوير الاقتصادي لمديات مستقبلية بعيدة .

2 – وجوب إنشاء وزارة للتخطيط الاقتصادي تقوم بإعداد الدراسات العلمية والاحصائية والاستراتيجية التي تساعد على هندسات اقتصادية كفيلة باحداث تطورات خطية في الاقتصاد تستجيب لحاجات الناس الى التنمية البشرية المستدامة .

3 – وجوب اعتماد معيارية الكفاءة في وظائف القطاع العام في الدولة وذلك من خلال تطبيق قوانين مجلس الخدمة المدنية، ومعاهد الادارة والتدريب، والمعاهد الجامعية العليا .

4 – تفعيل الهيئات الرقابية واجهزة المحاسبة والمساءلة من خلال تطبيقات صارمة لديوان المحاسبة والتفتيش المركزي، واتخاذ العقوبات الكفيلة بردع المالفات، واجتثاث الفساد الاداري والمالي، ومنع الاختلاسات المالية والهدر الضريبي، لا سيّما من كبار موظفي الجمارك والمرافىء والمطار وسائر المرافق الحيوية الأخرى .

إنّه التحدّي الذي يواجه اهل الدولة بمصيرها، فهل تكون الاستجابة لبقائها واستنهاضها دولة وطنية مدنية ديمقراطية عميقة ؟ .

الهوامش

1 – بشان التقسيمات الادارية لدولة لبنان الكبير راجع القرارات : 318، 336 و3066 في : مجموعة المقررات لدولة لبنان الكبير من 1 ايلول 1920 حتى 31 كانون الاول 1923، مطبعة

الآداب، بيروت 1925، ص17-16.

Etat du Grand Liban، « Arrêtés et Décisions administratives durant les Années 1924-1925 »، No. 3066، « Portan Réorganisation Administrative de l'état du Grand Liban » le 9 avril 1925، Beyrouth، 1925 p.73-81.

2 - انظر بهذا الصدد: مقررات المفوضين السامين، اصدار محمد توفيق جانا، ثلاثة مجلدات، محفوظات الجامعة الاميركية في بيروت، ايضا : محمد مراد، العلاقات اللبنانية-السورية في ظل الدولة الحديثة 1950-1920، دار الرشيد للعلوم، طبعة اولى، 1993، ص 67-56.

3 - Weulersse، Jacques: paysans de syrie et du proche-orient، Gallimard، Paris، 1946، p.79.

4 - Op.cit، p.84.

5 - وجيه كوثراني، بلاد الشام، السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، معهد الانماء العربي، بيروت، طبعة ثانية، 1984، ص 74.

6 - ميثاق الاستقلال الوطني هو ميثاق شفوي غير مكتوب بين الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح، وهو متضمن البيان الوزاري الاول لحكومة الاستقلال في 7 تشرين الاول 1943، وفي خطاب القسم للشيخ بشارة الخوري الذي القاه في مجلس النواب بعد انتخابه رئيسا للجمهورية في ايلول 1943.

7 - منشورات مركز السفير للمعلومات،«المارونية السياسية»، بيرقت 1978.

8 - نجلاء عطية، لبنان المشكلة والمأساة، بيروت، طبعة اولى 1977، ص 64-59.

9 - تولى كمال جمبلاط منصب وزير الداخلية عام 1972، حيث منح العديد من التراخيص لاحزاب يسارية محلية، وفي العام 1975 تولى رئاسة الحركة الوطنية اللبنانية التي تقدمت بوثيقة برنامجية للاصلاح الوطني وبناء الدولة.

10 - انظر صلاحيات رئيس الجمهورية المقرّة في وثيقة الطائف التي باتت في صلب الدستور اللبناني في ما بعد.

11 - انظر صلاحيات رئيس مجلس الوزراء في وثيقة الطائف والدستور.

12 - انظر صلاحيات رئيس مجلس النواب في وثيقة الطائف والدستور.

13 - http://Data.albankaldawli.org

14 - http://Data.albankaldawli.org

15 - http://Data.albankaldawli.org

16 - http://perspective.UsherBrook.ca/Liban

17 - قانون الموازنة العامة والموازنات الملحقة لعامي 2019-2018

سقوط الأمن الغذائي للبنان نموذَجَي مكتب القمح وإهراءات المرفأ

أ. د. ألكسندر أبي يونس

سعــى الإنســان منذ وجوده إلى تأمين قوتــه اليومي. فالأمن الغذائي حاجــة ضرورية للشعوب الأمر الــذي يفرضــ على الحكومــات اعتماد سياســات تأمينه وتخزينــه تفاديًا للمجاعة خــلال الأزمات، وإلاّ اندلعت ثورات وانقلبت أنظمة حكم في حال فقدانه. ولبنان لم يشذّ عن هذه القاعدة، فهو يضم الأراضي الخصبــة اللازمة بخاصة سهل البقاع الذي مدّ الامبراطورية الرومانية بالمحاصيل الزراعية وأصبحت بعلبــك بمثابة إهراءات روما ومستودعًــا للقمح. كما حوّل اللبنانيون جبالهم إلى مدرّجات زراعية، وهذا الاختــراع يُسجّل لهم، وطالب معظمهم بضــم سهول البقاع وعكار وصيدا والخيام إلى دولة لبنان الكبير فــي العام ١٩٢٠ ليؤمّنــوا للشعب أمنهم الغذائي، بالإضافة إلى ضم نهــر الكبير والليطاني والحاصباني والعاصــي والأولي وغيرهــم لتأمين الري والأمن المائي. لكن على الرغم من أهمية مقوّمات الحياة التي توافرت في لبنان خلال عهد الانتداب الفرنسي ومرحلة الاستقلال وما بعده من مياه وسهول ومرافئ، إلاّ أن الشعــب اللبناني عرف حادثتين في تاريخه المعاصر ذكّرتاه بالمجاعة التي أصابت أهالي متصرفية جبل لبنان خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) حين توفّي ثلث سكّان الجبل، فتخوّف من تكرار التجربة مع أزمة مكتب القمح سنة ١٩٣٨، ومع تفجير مرفأ بيروت وتضرّر إهراءاته سنة ٢٠٢٠. فما هو مكتب القمح؟ وما هي إهراءات المرفأ؟

المكتب الوطني للقمح أو مصلحة القمح

بــدأت الدولة اللبنانية في العام ١٩٣٨ بالتفكير بالأمن الغذائي للمواطن، فأنشأت «مصلحة القمح» مــن أجــل تأمين مقادير كبيرة من القمــح تكفي اللبنانيين لمدى عــام دون أن يحتاجوا لاستيراد كميات مــن الخــارج، وذلك عبر زراعة الحنطة في جميع أراضي الجمهورية اللبنانية وزيادة مساحتها، لأنّ تلك الأراضــي تنتــج ما بيــن ٤٥ و٥٠ ألف طن سنويًا، بينمــا يستهلك اللبنانيون ١٣٠ ألف طــن سنويًا، لذلك تــمّ دراســة تطوير زراعة القمــح لتكون المواسم كافيــة وذلك بمنح حوافز وجوائــز ومكافآت للفلاحين اللبنانيين(١).

بعدهــا، بدأ التــداول بفكرة إنشاء مكتب القمح وزراعة الحنطة وتموين البلاد بالقمح كي لا يتعرّض لبنان لمجاعة في حال حدوث حرب عالمية، شبيهة بتلك التي حدثت خلال الحرب العالمية الأولى بعدما استشعــر رئيســ الجمهورية إميــلٍ إدّه (١٩٣٦-١٩٤١)(٢) بخطر الحرب مجدّداً فــي العالم عشية العام ١٩٣٩. ولكــي لا يتحكّم التجار اللبنانيون والسوريون بالأســواق اللبنانية، ويرفعون سعر القمح والطحين والحبوب من جرّاء احتكارهم هذه المواد، وفرض ضريبة دخولية عليها، خطّط إدّه لإنقاذ لبنان من هذه المشكلــة مــن دون أن يخبر أحداً عمّــا سيتّخذ من خطوات، مكتفيًا بالقول بأنــه سيسافر إلى باريس في أواخــر شهــر حزيران ١٩٣٨ من أجل الإستشفاء، وذلك لكي لا يعرقل أحــدٌ مشروعَه الذي ينوي تنفيذه. فما هو هذا المشروع؟

اجتمــع الرئيســ إدّه مــراتٍ عدّة وهو فــي باريس مع مدير بنــك سوريا ولبنان للتباحــث بمنح لبنان

سلفــة قدرها عشرون مليون فرنــك من أجل تنفيذ مشروع القمح[٣]، على أن يتمّ تسديدها تدريجيًا كلّما بيــع قسم من القمــح. كما جرى اتّفاق بين الطرفيــن على أن تأخذ الحكومة اللبنانيــة قرضًا من البنك المذكــور، قــدره عشرون مليون فرنــك أيضاً من أجل مشروع الــريّ. لكن أليس هنــاك تناقض في بلاغ الحكومــة عــن الاتّفاق الذي تمّ بين الرئيس إميل إدّه وبنك سوريا ولبنان، إذ كيف يتطرّق في الشقّ الأول إلى سلفة لمشروع القمح، وفي الشقّ الثاني يتطرّق إلى قرضٍ لمشروع الري؟ وبين السلفة والقرض فرقٌ كبير. لكن هل كانت هي تلك الإجراءات التي سيعتمدها الرئيس إدّه في سياسته لتخزين القمح؟

أوضــح الرئيســ إدّه لمحرّر جريدة الأحــرار، إنّ المحادثات التي أجراها لا تهــدف إلى أخذ قرض مالــي لشــراء القمح، لأنّه لو كان كذلك، لما تمكّن من إتمام مفاوضاته، لأن القرض بحاجة إلى تصديق المجلســ النيابــي. لذا اتّفق إدّه مع بنك سوريا ولبنان على تسليــف الحكومة اللبنانية مبلغًا وقدره مليون ليــرة، من أجل تمكيــن الحكومة من شراء كمية من القمح وتخزينها في مستــودع خاص. وقال إنّ لبنان لا ينتــج مــن القمح سوى أربعين ألــف طن، أي ثلث حاجته، لذا يضطرّ الأهالــي إلى استيراد الثلثين من الخارج، عندها تصبح أسعار القمح تحت رحمة التجار والمحتكرين، ليبلغ ثمن رطل الطحين ٢٧ قرشًا أو ٣٠ قرشًــا. لذلــك ارتــأى الرئيســ إدّه أن تؤمّن الدولة حاجاتهــا عن طريق شــراء ٣٠ أو ٤٠ ألف طن مــن القمــح، يُصار إلى وضعها في مستودع خاص يُبنى وفقًا للطــرق الفنيّة، والدولة تشتري الحبوب من المزارعيــن إذا شاؤوا بيعها بسعر مقبــول. وعندما ترى الدولة أنّ القمح نفد من السوق وإنّ المحتكرين رفعــوا الأسعــار، ستضخّ كمية مــن القمح المخزّن من أجــل إبقاء الأسعــار مخفّضة. ونبّــه الرئيس إدّه الفلاحيــن مــن بيع قمحهم بأسعار بخيســة لأنّ التجار يستفيدون من الأسعــار الباهظة فيما بعد، لذا لا يجــب على الفلاح بيــع محصوله، بل عليه أن ينتظر إعلان الدولة شراء القمح، عندها يؤمّن المزارعون مــورد دائم ويزيدون من زراعة القمح، فتبقى الأموال فــي البلد ولا ترسل إلى الخارج، ويحصل المزارع على سعر معقول يساعده على تأمين النفقات. «فالدولة تشتري القمح وتبيعه من الأهالي بسعر لا يتجاوز السبعة عشر أو الثمانية عشر قرشًا. وإذا كان هناك فرق بين الشراء والبيع، يمكن للدولة أن تستعين به لتوزيع القمح على الفقراء بسعر عشرة قروش، أو إثني عشرة قرشًا للرطل الواحد. وبهذه الطريقة يأكل الفقــراء القمــح أرخص من الطبقات الباقيــة. على هذا الأساس فاوض الرئيســ إدّه، مدير بنك سوريا ولبنــان من أجل منح سلفة للحكومة اللبنانية وقيمتها مليون ليرة، تُخصّص لشراء القمح، على أن تكون هذه السلفة في حساب مصرفي جارٍ لا قرض، يستعيدها المصرف بعد أشهر عندما تبيع الدولة القمح.

أمّــا فيمــا يختصّ بقرض الريّ، فنفى الرئيســ إدّه أن يكون قد عقده مع المصــرف، وجلّ ما فعله، أنّــه تفاوض بشأنه على أن تستلمه الحكومة بعــد أن تنتهي من إنفاق المبلغ المرصــود، أي بعد عامين. هــذا مــع العلم أن مشاريع الريّ في لبنان تكلّف ثلاثة ملايين ليرة، وليس متوفّرًا منها سوى مليون و٢٥٠ ألــف ليرة فقط. وقد شدّد إميل إدّه على ضرورة تنفيــذ مشروع الريّ لتحويل الأراضي اللبنانية إلى جنّة خضــراء، ولكي تصبح الخضــار والفاكهة في متناول الجميع بعدما كان جــزء كبير من الأهالي محرومٌ

منها. وهكذا، عندما يؤمّن الشعب اللبناني احتياجاته من الخضار والفاكهة بفضل سياسة الريّ، ستعمد الحكومة إلى عقد اتفاقيات تجارية مع بلدانٍ أخرى من أجل تبادل السلع، تمامًا كما فعلت فرنسا بإعفاء الليمون اللبناني من الرسوم الجمركية(٤)، بعد أن طلب الرئيس إدّه منها ذلك.

فالقطـاع الزراعي هو أساسي لاقتصاد لبنان، لذا بعـد أن تكاثرت الأشجار المثمرة وتأمّنت حاجة السـوق اللبناني، عمد الرئيس إدّه إلى تسهيل تصدير المنتوجات الزراعية اللبنانية الفائضة إلى أسواقٍ خارجيـة مـا عزّز العلاقات الدولية المالية مع لبنان. فلبنان هـو بلد زراعي قبل أيّ شيءٍ آخر، لذا يجب أن تصـرف الدولـة جهودهـا لتحسين هذا القطاع وتنشيطـه لأنّ رخاء المزارعين إنّمـا هو رخاء لبنان وازدهاره.

تعرّض الأمـن الغذائـي في لبنان للخطـر عندما بدأ الغش يعـمّ السوق اللبناني بعـد خلط الدقيق بالنخالـة. حتّـى إنّ هذه الحيلة انطلت على الحكومة اللبنانية التي اشتـرت كمياتٍ من القمح المغشوش من دون علمها بذلك، الأمر الذي دفع بالحكومة إلى تكليف المحافظين بإجراء تحقيقاتٍ عمّا بيع ويُباع من الدقيق لجهة نوعيّته ووزنه وما إذا كان مخلوطًا بمواد أخرى(٥). ومع بداية التحقيقاتٍ، تبيّن للحكومة أنّ الفساد قد طال القمح وهدّد المواطن اللبناني بلقمة عيشه. وهذا ناتج عن الإهمال في المراقبة الذي شجّع بعض الملتزمين باللجوء إلى الغش من أجل الاستفادة ماديًا(٦). عندها أوقفت الحكومة التصدير من لبنان ريثما يتمّ إحصاء محاصيل البلاد، ووقف توزيع الدقيق، الأمر الذي دفع بالكثيرين إلى عرض بضائعهـم في الأسواق لقبضـ ثمنها بسرعة، ما انعكس على سعر القمح الـذي انخفض قنطاره من ٢١ ليـرة لبنانيـة سورية إلى ١٨ ليـرة، أمّا سعر الدقيق فقد انخفض من ٨٧٥ لشـوال الزيرو إلى ٨٥٠ ليرة، ومـن ٨٥٠ ليرة لشـوال الفاخر إلى ٨٢٠ ليرة. هذا بالإضافة إلى ورود الحنطـة بكمياتٍ كبيرة إلى مرفأ بيـروت مـن حلب وحماه والجزيرة والإسكندرونة، ما دَفَعَ إلى تدنّـي سعر الدقيق من ٢٠ إلى ٢٥٪. وممّا ساهم في تدفّق هذه الكميات من القمح أيضاً، هو ردّة الفعل للتجار في شمال سوريا على تجار دمشق(٧).

وفـي ٢٠ حزيـران ١٩٣٨، أصدر وزيـر الاقتصاد خليل كسيب بلاغًا، نفى فيـه أن يكون القمح الذي توزّعـه الحكومة مغشوشًا لأنّـه من النوع البلدي المعروف بـ" راسو بعبو"، الذي يحتوي على كافة المواد الغذائيـة ومستخـرج منه النخالة الخشنة(٨)، بينما هناك أنواع أخـرى دخلت السوق بطرق غير شرعية ومتلاعب بها. لكن من واجبات الحكومة مراقبة كلّ المواد التي تدخل لبنان وفحصها. هذا وقد استمرّت أسعـار الحنطـة والدقيق بالانخفاض وذلك بسبب تجّـار الحبوب فـي الإسكندرونـة وإنطاكيا، الذين يصـدّرون حبوبهـم خوفًا من سيطـرة الأتراك على السنجق لأنّـه عندها سيطبّق القانـون التركي بمنع إخـراج المحصـول من الأراضي التي تقع تحـت سيطرتهم. لهذا السبب أَسْرَعَ هـؤلاء التجّار إلى شحن محاصيلهـم إلـى الخارج، بينما احتفظ تجار حـوران بحبوبهم بانتظار رفع الأسعـار. أمام هذا الواقع، حاولـت الحكومـة اللبنانية إستغـلال الفرصة من أجل فرضـ ضريبة جديدة على الدقيـق الذي يَدخُل بكميـاتٍ كبيـرة إلى لبنان. لكن نقابة تجّـار الدقيق في بيروت وطرابلس رفضت هـذه الضريبة وأعلنت

الأضراب من أجل تحسين السياسة الاقتصادية والجمركية في البلد[٩].

تراجعت الحكومة عن فكرتها أمام هذا الأضراب، وتابعت اهتمامها بمعرفة ما إذا كان القمح مغشوشًا، لأنّ همّها أن يكون القمح مستوردًا من القامشلي في سوريا، لكنّها لم تكن تعلم بوجود عدّة أنواع منه. هنا يحصل الغش من قبل الملتزم، إذ يخلط عدّة أنواع من القمح في المطحنة، وبعدها يستخرج منه صنف الزيرو الممتاز ويبيعه لحسابه الخاص، في حين يبيع الدولة الصنف الأقل جودة. لذا على الحكومة أن تفرض مراقبًا فنيًّا على الملتزم، للتأكّد من تطابق الأصناف، ومراقبًا فنيًا آخر لمراقبة القمح عند طحنه ليكون من نوع «راسو بعبو». لكن يبدو أن الحكومة لا تريد أن تزعج نفسها، ويكفي التاجر أن يملأ الشعب بطنه والسلام[١٠]! أمام هذا الواقع، تزايدت شكاوى المواطنين، ولم يعد بوسع الحكومة تغطية الموضوع وإهماله، فأوقفت توزيع الدقيق الذي لديها[١١]. عندها زال الكابوس عن تجّار بيروت، وزال معه الاحتكار الذي قام به تجار حوران ودمشق، فانتعشت أسواق لبنان من جديد، وزادت حلب وسوريا الشمالية من تموين لبنان بالحنطة والدقيق[١٢].

لكن بعد أن استطاعت الحكومة والشعب اللبناني معالجة أزمة القمح من ناحية نوعيّته وسعره، سارعت المفوّضية العليا الفرنسية، وبشكلٍ مفاجئ إلى إباحة التصدير، فسهّلت بعملها هذا لفريق من التجار في دمشق أن يتمسّكوا بأسعارهم، وأن يمتنعوا عن عرض بضائعهم في أسواق البلاد لكي يصدّروها إلى الخارج طمعًا بالربح الفاحش[١٣]؛ كما اعتمدت سوريا سياسة النكايات مع لبنان باستيفائها رسوم الدخولية على البضائع اللبنانية[١٤]. لكن لماذا هذا القرار المفاجئ من قبل المفوّض السامي؟ هل لأنّ له يدًا في سمسرة القمح؟ أم لأنّ فرنسا تريد الحصول على الحبوب لتخزينها من أجل استعمالها خلال الحرب العالمية المتوقّع اندلاعها؟ إنّ هذا القرار الجائر، أدّى إلى التلاعب في عملية البيع والشراء، وذهب ضحيّته الفقير المسكين، وأرغم الحكومة على العودة إلى سياسة الإلتزام الفاسدة، وتسهيل السبيل لفئة من الناس لجمع الأرباح الطائلة. لهذه الأسباب سافر الرئيس إميل إدّه إلى فرنسا وليس للاستشفاء، ولمعالجة ملفّات خلافية مع المفوّض السامي، من بينها ملف القمح، من دون أن يُعلم «دي مارتيل» عن ذلك وعمّا سيقترحه. لم يرحّب إدّه بسياسة التصدير التي أباحها المفوّض السامي، لأنّ لبنان لم يؤمّن بعد حصته من القمح[١٥]، كما يسمح هذا القرار للتجّار التلاعب بالأسعار، بينما سوريا استطاعت الحصول من المفوّضية العليا على ترخيصٍ يبيح لها إدخال كميّة معينة من قمح العراق إلى أراضيها من دون دفع رسوم جمركية عليه، فتكون بذلك قد وازنت بين التصدير والاستيراد[١٦]. لكن كيف يمكن للبنان موازنة ذلك، ومحصوله لا يكفيه؟ لذلك أراد الرئيس إدّه إيجاد حلاًّ يحمي المستهلك الفقير، فأبرق للحكومة اللبنانية في ١٠ تموز ١٩٣٨، كاشفًا لها عن مفاوضاته مع البنك السوري-اللبناني من أجل الحصول على قرضٍ بقيمة مليون ليرة أو مليونين من أجل تموين لبنان بالقمح[١٧]، وتخزينه في مستودعات من أجل الاستفادة منه خلال الحرب العالمية في حال اندلعت. وكشف الرئيس إدّه أيضاً في برقيته، أنّ الخلاف مع المصرف هو حول فائدة هذا القرض،

فالبنــك يريدهــا ٦٪ والرئيس إدّه يريدها أقـلّ من ذلك. في هذا الوقت سارعـت الحكومة السورية إلى إبلاغ الجانب اللبناني عن قرارها في تعديل ضريبة الدخولية رغبةً منها في إقامة الصلات الاقتصادية والتجاريــة الحسنة بين سوريا ولبنان، ولتسهيــل التبادل التجاري بين البلدين، آملةً أن تتراجع الحكومة اللبنانية عن قرارها القاضي باستيفاء الرسوم الجمركية على المنتجات السورية[١٨].

بعـد تطوّر وتسارع الأمــور في ملف القمح، كشف مندوب الأهرام في جنيف، عن الأسباب الحقيقية التي دفعت بإميل إدّه إلى السفر إلى باريس والتي مهّد لها منذ فترة، وهي رغبته في أن يستكمل الوسائل المادية والاقتصادية الأساسية التي تمكّنه من تحقيق سياسة إنشائية جديدة يعتمد عليها لخير اللبنانيين ومصلحــة المزارعيــن والفلاحين بنوع خاصــ[١٩]. وهذه السياسة الإنشائية تقــوم على قاعدتين: الماء والقمــح، وهمــا أوّل حاجات الشعوب. فًإذا استطاعت الإدارة اللبنانيــة تحقيق البرنامج الاجتماعي ولم تفشــل بسبب المنازعات الحزبية، فلا شك بأنّ لبنان سيجني من هذه السياسة، وللمرة الأولى، الفوائد التــي هــي من حقّ كل شعــب. فمشاريع الريّ بدأ العمل بهــا، وسيُعتمد سياسة جديــدة في القمح، ترمي إلــى تحرير لبنان من حاجتــه الإلتجاء إلى الأسواق الخارجية، وفكّ ارتباطــه بتلاعب الأسعار، وتحرير المــزارع والفلاح من حاجتــه لبيع محصوله زمن الأسعــار المتدهورة. ولتحقيق هاتيــن الغايتين، لا بدّ للحكومة اللبنانية النزول بنفسها إلى السوق، وتحديدها الأسعار بشكل يمنع الحيف والغبن عن الفلاح، وتَحوّل دون إرهاق المستهلكين في الأوقات الأخرى. ولتحقيق هذا المشروع، لا بدّ من توافر الأموال من أجـل الهيمنة على ســوق القمح، في البيع والشراء. لذا كان يجب الحصــول على الأموال اللازمة لشراء القمــح وتخزينها في مستودعات حديثة. وإنّ مبلــغ ٢٠ مليون فرنك هو كافٍ في المرحلة الأولى بالنسبة لإدّه لتحقيــق المشــروع، نظراً للمبلغ الذي يدفعــه لبنان على القمح المستــورد والبالغ قيمته ١٤٠ مليون فرنــك. والفــارق ما بين الرقمين، دليل كاف على صواب سياسة القمح الجديدة وما يمكن أن ينتج عنها مــن وفر للّبنانيين الذين حان لهم أن يتذوّقوا طعــم الفوائد الاقتصادية والاجتماعية الصحيحة بعد أن أرهقتهمً زمنًا طويلًا السياسات الشخصية والتجاذبات الحزبية التي لا تجدي نفعًا.

وانطلاقًــا مــن سياسة الرئيســ إدّه الجديدة، قــدّم بنك سوريا ولبنــان مشروعًا جديــدًا للحكومة اللبنانية، وهو إنشاء مصرف زراعي-صناعي، يساعد على تنشيط هذين القطاعين في لبنان برأسمال مــا بين ١٠٠ و٢٠٠ ألف ليرة سورية-لبنانية. وقد اتّفـق الطرفان على إنشاء هذا المصرف خلال مطلع عام ١٩٣٩[٢٠]. إنّ بداية التحضير لإنشاء مصرف زراعي صناعي، واتّجاه الحكومة اللبنانية إلى استيراد ١٢٠ ألف طن من الحبوب العراقية من دون دفع رسوم جمركية عليها، أدّيا إلى هبوط أسعار الدقيق في لبنان[٢١].

وفــي ٢ آب ١٩٣٨، عــاد الرئيســ إميــل إدّه مــن باريســ[٢٢]، وتناول مــع زوّاره في الســراي أمور اقتصاديــة، وبــدأت المعلومات السلبية تتصاعــد وتنتشر بين الناس، وهــي أنّ المفوضية العليا غير موافقــة علــى مبدأ القرض الذي عقــده الرئيس إميل إدّه مــع مدير بنك سوريا ولبنــان، مع العلم أنّ

الحكومة قد فوّضته بذلك رسمياً قبل مغادرته لبنان[٢٣]، لذلك سيصرف النظر عنه، وتسقط سياسة تموين لبنان بالقمح[٢٤]. لكن لكي لا تذهب جهود الرئيس إميل إدّه سدىً، دعا الحكومة للانعقاد على عجلٍ في منزله في صوفر، بخاصةٍ بعد التهجّم المفتعل من قبل صحف عديدة على سياسة القروض ورفضهــا لها خوفًا على الخزينة العامة للدولة[٢٥]. لكن هذا القرض الذي كان يريده إميل إدّه هو من أجـل تموين البلاد بالقمح وعـدم تعرّض اللبنانيين للمجاعة كما حصل معهم خلال الحرب العالمية الأولــى. يبــدو إنّ المفوّض السامي كان قد أوعز قبل سفره إلــى فرنسا في ٣ آب، إلى بعض الصحف لشنّ حملة على الرئيس إدّه وسياسة القروض المصرفية كردّة فعل منه عليه لأنّه لم يخبره قبل سفره بما ينوي القيام به، ولكي تبقى السمسرة قائمة وحمايةً للمستفيدين منها. عندها، أصدرت الحكومة اللبنانية بيانًا بعد اجتماعها بصوفر، نفت فيه فكرة عقد القرض، وكشفت أنّ الحكومة ستأّخذ سلفة فقــط مــن البنك السوري «لا تستخدم في تموين البــلاد إلاّ إذا دعت الحاجة»، وذلك كردّ على الذين استنكـروا مــا قام به رئيس الجمهوريــة من مفاوضات مــن دون أن توكّله بها الحكومــة[٢٦]. لكن هل هــذه المهمة تستلــزم توكيل رئيس البلاد وهو يسعى إلى انقاذ لبنان من الفاسدين والسماسرة، وإلى تأمين القوت اللازم للشعب زمن المحنة والشدّة لكي لا يذوقوا طعم المرارة والمجاعة كما حصل في الحرب العالمية الأولى؟ وإنّ بيان الحكومة كما صدر، جاء كمحاولة منها ومن رئيس الجمهورية، إلى إنقاذ الجهود الرامية إلى تأمين الغذاء للّبنانيين خلال الحرب في حال اندلاعها، وقطع الطريق على المفوّض السامي للسمسرة في هذا الملف، لذلك استعملا مصطلح السلفة بدل القرض تجنّبًا لإقدام دي مارتيل على إلغاء الاتّفاقية برمّتها. وتباحث مجلس الوزراء في الحلول الممكن اللجوء إليها، وقد غلــب الحــلّ القائل بشراء الحكومة لـ ٤٠ ألف طن من القمح بعد إجراء مناقصات حولها كون الدولة هــي أكبر تاجر، علــى أن يتمّ إيداعها في مخازن تُبنى على الطريقــة الحديثة في بيروت، وطرابلس، وجبيل، وصيدا[٢٧]. وقد شرعت الحكومة بتنفيذ ما اتّفقت عليه بعد إجراء بعض التعديلات، فوضعت شــروط المناقصة التي تختلف كل الاختلاف عن شروط التلزيم، فهي تضمن سلامة القمح والدقيق من الغش، وتقيّد الملتزم بقيود مالية وضمانات تجعله دائمًا تحت رحمة الحكومة[٢٨]، على أن تطرح كميــات من القمــح على أربعة دفعات للمناقصـــة على أن تكون كل دفعة مــن ٥٠٠٠ طن. بقي مشروع القمــح بين أخذٍ وردّ، ولم يُنفّــذ، وتلاعبت أسعاره حسب العلاقة بين سوريـا ولبنان وبحسب بورصة رسم الدخول بينهما[٢٩]، وبحسب سعر صرف النقد[٣٠].

لطالمــا شدّد الرئيس إدّه على حرص لبنان على علاقاتــه مع الأقطار المجاورة[٣١] مقابل تهديد السورييــن الدائــم بقطع العلاقات، أو محاولــة الاستعلاء على اللبنانيين. فبعــد أن أرسلت الحكومة السوريــة برقيــةً إلــى الحكومــة اللبنانية، حــدّدت بموجبها تاريــخ ١٥ آب ١٩٣٨ كآخــر موعد للبنان لإعفــاء المنتوجــات السورية من الرسوم الدخولية، ومهدّدةً إيّاه بإعــادة فرض الرسوم السورية على المنتوجــات اللبنانيــة[٣٢]، ردّت الحكومــة اللبنانية، مذكّــرةً سوريا بأنّ لبنان لم يكــن هو البادئ في

فرض تدابير الرسوم الدخولية، ومع ذلك فهو مستعدّ للمفاوضة لأنّه لا يريد كسر عُرى المودّة القائمة بين البلدين. لم يُعجب هذا الجواب رئيس الحكومة السورية، جميل مردم، فشنّ هجومًا عنيفًا على لبنان معتبرًا إيّاه طُفيليًّا، عاش على كتف سوريا ١٨ عامًا، مدّعيًّا تهمًا إفترائيةً بحقّه[٣٣]، آخذًا قرارًا بإلغاء وظيفة أمين السر العام في بلدية دمشق التي كان يشغلها أنطون إدّه، وذلك بحجّة احتفاظه بهويّته اللبنانية[٣٤]. يعتبر القرار هذا انتقامًا من الرئيس إدّه وعائلته، لأنّه يسعى إلى تعزيز وحماية المصلحة الوطنية. عندها عقدت الحكومة اللبنانية اجتماعات عدّة لبحث قضية رسوم الدخل بين البلدين، وقرّرت عدم اتّخاذ أيّ قرار بشأنها قبل أن تعتذر الحكومة السورية عن الإهانات التي وجّهتها للبنان[٣٥].

وعلى الرغم من تدخّل المفوّضية العليا لثني لبنان عن الردّ بقساوة، صدر الردّ اللبناني قاسي اللهجة[٣٦]، الأمر الذي دفع الحكومة السورية إلى التفكير بإعادة علاقات حسن الجوار، فزار جميل مردم الحكومة اللبنانية، وطلب من الصحافة السورية إلى وجوب مراعاة اللّياقة فيما تكتب عن الحكومات ورؤسائها[٣٧]. كما أعلن مردم عن إعفاء الفاكهة اللبنانية من الرسوم الجمركية[٣٨]، وهذا القرار جيّد من أجل تحسين العلاقات بين البلدين، غير أن الفاكهة اللبنانية لا تدخل بكميات كبيرة إلى سوريا لأنّ هذه الأخيرة يمكنها زراعة هذه المحاصيل بكثرة، لذا قصد جميل مردم من قراره هذا أن يوهم اللبنانيين بأنّه يريد حلّ المشكلة مع لبنان، ومن جهة أخرى يمكّن البضائع السورية من الدخول إلى لبنان من دون دفع رسوم عليها. غير أنّ هذه اللعبة لم تنطلِ على اللبنانيين، فاستمرّ الاختلاف في وجهات النظر بين لبنان وسوريا حول المصالح المشتركة والجمارك. وفي محاولة لحل المشكلة، عقد الوفدان السوري واللبناني مفاوضات في فندق مسابكي في شتورة[٣٩].

في هذا الوقت، عاد المفوّض السامي من باريس في ٦ أيلول ١٩٣٨، وارتبطت عودته بالوضع الدولي الخطير، فألغى إجازات الضباط والجنود في لبنان وسوريا، ودعت الحكومة الفرنسية الجنود الإحتياطيين إلى حمل السلاح[٤٠]. لم يكن الرئيس إدّه من بين المستقبلين للمفوّض السامي إثر عودته من فرنسا، لكنّه زاره في اليوم التالي من أجل التفاهم على التدابير العسكرية والإدارية التي سيتّخذها لبنان في حال اندلعت حربًا عالمية[٤١]. هذا وقد قرّرت الحكومة الفرنسية إرسال بعثة عسكرية إلى سوريا ولبنان من أجل درس موقعهما الحربي[٤٢]. وعندما صرّح هتلر بأنّه «يجب سحق فرنسا لأنّ اوروبا لا تتّسع لدولتين كبيرتين»[٤٣]، سارعت الحكومة اللبنانية إلى الانعقاد من أجل إقرار سياسة تموين لبنان بالقمح، وأوفدت الوزيرين كميل شمعون وخليل كسيب إلى المفوّض السامي لإطلاعه على الخطوات التنفيذية، فتفاجآ بما أبلغهما إيّاه، إذ طلب منهما صرف النظر عن سياسة التموين، متعهّدًا بتموين لبنان بالقمح والقضاء على كل احتكار أثناء الحرب[٤٤]. وقد منع دي مارتيل اللبنانيين من إنشاء المكتب الوطني للقمح متحجّجًا بالتعليمات التي وصلته من وزارة الخارجية الفرنسية، التي لا توافق رأي الحكومة اللبنانية، ولا تصل بها مخاوفها من الحرب والأزمات الدولية

إلى هذا الحدّ قائلاً: «ثقوا أيها السادة، بأنّ تأمين الخبز للبنان سيكون إذا وقعت الحرب أوّل ما أهتمّ بـه، رغم مشاكلي الكثيرة، وأنّني أعدكم منذ الآن، أنّ المفوضية ستضرب بيد من حديد المحتكرين والمضاربيـن وغيرهم ممن يحاولون تجويع هذا الشعب أو حبس الرغيف عنه»، مردفاً ذلك بضرورة التخفيف عن كاهل اللبنانيين قروضًا إضافية[٤٥].

لكـن في حال اندلاع الحرب، هـل سيضمن دي مارتيل بقاءه في لبنان، وهـل سيتفرّغ إلى تأمين إعاشـة اللبنانيين أم إعاشة الفرنسيين؟ أمّـا بخصوص ضرب المحتكرين بيد من حديد، فلماذا لم يفعلها معهم في الأشهر الماضية خلال الأزمة التي ضربت لبنان، ولماذا أباح تصدير القمح؟ فقرار المفوّض السامـي أتى ردًّا على جهـود الرئيس إميل إدّه في تأمين الإعاشـة للّبنانيين خلال الحرب، ولأن إدّه لم يستشره ولم يطلعه على خطواته في هذه القضية.

ومـا لبث أن نشر المفوض السامي قـراره بإلغاء فكرة إنشاء المكتب الوطني للقمح، حتى حدثت بلبلـة فـي الأسواق، فأقبـل الناس على شـراء حاجاتهم الضروريـة[٤٦]، الأمر الـذي أدّى إلى ارتفاع أسعـار الأرز والسكـر والدقيق، عندهـا قرّرت الحكومة شـراء ١٠٠ طن من الدار البيضـاء[٤٧] علّها تضبط أسعار السوق، وعادت سياسة النكاية الاقتصادية بين لبنان وسوريا بفرض رسم دخولية على منتوجـات جديدة متبادلـة بين البلدين[٤٨]، عندها أصـدر المفوّض السامي قـرارًا نصّ على إعفاء القمـح المستورد من الخارج من الرسـوم الجمركية[٤٩]، وألحقه الرئيس إميل إدّه بمرسوم نصّ على وقف استيفاء ضريبة على الحبوب والدقيق والبرغل والحنطة، وأباح استيراد القمح[٥٠].

وعندمـا اندلعـت الحرب العالمية الثانية فـي الأول من أيلول ١٩٣٩ ما بيـن ألمانيا وإيطاليا من جهة، وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى[٥١]، أبرق الرئيس إميل إدّه المتواجد في باريس إلى حكومته، وذلك من أجل منع تصدير الحبوب ومنع الفوضى في الأسواق[٥٢]. كما أصدر المفوّض السامي قرارًا منـع بموجبـه تصدير بعض المواد الغذائية مـن البلدان الخاضعة للانتـداب الفرنسي[٥٣]. وألحقت المفوّضيـة الفرنسيـة هذا القرار بعـدّة قرارات عن التدابيـر الواجب اتّخاذها عـن اندلاع الحرب، بخاصة تسليم السلطة العسكرية البرق والبريد[٥٤].

أمـام قلق اللبنانيين، حاولت الحكومة مكافحة الغلاء والمحتكريـن[٥٥]، وتأمين المواد الغذائية ومعالجـة أزمة البنزين[٥٦] بخاصة بعدما امتنعت الشركات عـن تسليم الكميات المطلوبة منها ومن الكاز[٥٧]، وتمّ تشكيل لجان شعبية في مختلف المناطق لتحديد أسعار المواد الغذائية، بخاصة بعدما امتنعـت سوريـا عن تصدير القمح إلى الخارج[٥٨] الأمر الذي خسّر الحكومة اللبنانية ٧٠٠٠ ليرة في إحدى صفقات القمح[٥٩]. وهكذا ألغي مكتب القمح واستقال إميل إده من رئاسة الجمهورية بتاريخ ٤ نيسـان ١٩٤١ لأن الفرنسيين منعوه من إنشاء هذا المكتـب ومن تأمين إعاشة اللبنانيين، ولأنه أيقن فـي حال واجه واستمر بمنصبه سيرتد هذا العمـل سلبيًّا على اللبنانيين ولبنان، لذلك فضّل التنازل من أجل مصلحة الشعب على أن يراه يتخبط بأزماتٍ بسببه.

إهراءات المرفأ

يعــود مرفأ بيروت إلى عهــد الفينيقيين منذ القرن الخامس عشر قبــل الميلاد[٦٠]. وخلال العصر الرومانــي (٢٧ق.م.-٣٩٥) تطــوّر المرفأ إلى مركز تجاري واقتصــادي. وخلال العصر الأموي (٦٦١-٧٥٠)، أصبــح مركــزًا للأسطــول العربي الأول. أما فــي عهد الصليبييــن (١٠٩٦-١٢٩١)، فقد كان له دور مهــم فــي التجارة البحريــة بين الشرق والغرب. وقــد تعزّز هذا الدور في عهــد المماليك (١٢٥٠-١٥١٦) عندمــا تحــوّل مركــزًا تجاريًا يــزوره حجــاج الأراضي المقدســة. ومع ازديــاد تصدير الحرير مــن جبــل لبنان إلــى أوروبا خلال القــرن التاسع عشــر[٦١]، تمّ إنشــاء مرفأ بيروت، ومنحــت السلطنة العثمانيــة فــي ١٩ حزيــران ١٨٨٧ امتيــازًا لاستثمــار الميناء لمــدّة ١٠٠ سنــة لشركة فرنسيــة باسم، Compagnie du Port des Quais et des Entrepôts de Beyrouth، علــى أن تكون خاضعة للقانون العثمانــي، وعمدت إلى بناء سد بحري لتوسيع الميناء وتطويره بما يسمح لهــا بتخزين جميــع البضائع العابرة التي تمر عبــر الجمارك وحملها، وعلى أثــره أصبحت بيروت ولاية عثمانية سنة ١٨٨٨. وسنة ١٨٩٤ افتتح المرفأ رسميًّا ووزّعت أحواضه بين رأس الشامية ورأس المدور. ومــع تأسيــس دولة لبنان الكبير في العــام ١٩٢٠ وخلال عهد الانتداب الفرنســي (١٩٢٠-١٩٤٣) تطوّر مرفــأ بيــروت، لكنه شهــد انفجارًا في الأول مــن كانــون الأول ١٩٣٤ جرّاء مواد متفجّــرة مخزّنة بشكل غيــر سليم في إحــدى المستودعات، فذهب ضحيتــه ٢٠ شخصًا و١٤ جريحًا ولم يتوصّــل التحقيق إلى أي نتيجــة ولــم يتم مقاضاة أي أحد، وتــمّ محو ذكرى الكارثة مكانيًا إذ تمّ بنــاء صف من المستودعات الجديــدة فوق مكان الانفجار[٦٢]. وفــي ١٣ نيسان ١٩٦٠ تغيّر اسم الشركة ومُنحت شركة لبنانية اسمها «Compagnie de Gestion et d'Exploitation du Port de Beyrouth» امتيازًا لمدة ٣٠ عامًا انتهى في ١٩٩٠/١٢/٣١.

وفي الرابع من آب ٢٠٢٠ تمّ تفجير مرفأ بيروت، فوقع ٢١٥ شهيدًا وأكثر من ٦٥٠٠ جريحًا بالإضافة إلى خسائر مادية واقتصادية وأبنية تراثية، وسقطت جرّاءه إهراءات القمح. فما هي هذه الإهراءات؟

علــى غــرار معظم الــدول التي تستــورد قمحها ولا تزرعــه، كان لا بد من وجود صوامــع في الميناء كــي تكون قريبــة المناولة من السفن الناقلة بسرعة وعملانية وبكلفة زهيــدة. يعود بناء هذه الإهراءات إلــى أواخــر ستينيات القرن العشريــن؛ ففي عهد الرئيس شــارل حلو، إتّخذت الحكومــة في عام ١٩٦٥ قــرار بناء صوامع لتخزيــن القمح في المرفأ، لأن عملية تخزين الحبــوب والقمح كانت تتم عبر مخازن خشبيــة أو بلاستيكيــة، مــا كان يسبب تلف المواد المخزنــة لارتفاع نسبة الرطوبة عنــد مستوى شاطئ بيــروت وفي المدينة، كما إنّه يعرّضها لإمكانية دخــول القوارض والحشرات والفتك بالحبوب المخزّنة. فبــدأ بناء إهــراءات مرفأ بيروت لتخزين القمــح والحبوب بطريقة متطوّرة في العــام ١٩٦٨ حين وضع رئيــس الجمهورية اللبنانيــة شارل حلو وأمير الكويت الشيخ صباح السالم الصباح حجر الأساس لها في ١٦ أيلــول ١٩٦٨[٦٣]. وقــد أُنجزت عملية بنــاء الصوامع بفضل قرض حصلت عليــه الدولة اللبنانية من

الصنـدوق الكويتي للتنميـة الاقتصادية العربية لتمويل مشروع صوامع الغلال في مرفأ بيروت وذلك في ٨ آب ١٩٦٨، وقد ردّ لبنان قيمة القرض على مراحل[٦٤]. واستمرت عملية بناء الإهراءات من عام ١٩٦٨ الى عام ١٩٧٠ حين افتتحت رسميًا بحضور أمير الكويت شخصيًا.

تضمّنت الإهراءات ٩٨ صومعة اسطوانية بارتفاع ٦٣ مترًا (١٣ مترًا أساسات تحت الأرض والباقي فوقهـا) وبقطـر داخلي ٨،٥ أمتار، وسماكـة الجدران ١٧ سنتم (تتقاطع جـدران الأسطوانات في ثلاثة صفـوف. ومع ذلك، تم فصـل الصفوف عن بعضها البعض، وهناك ٥٤ صينية أخـرى بينها)، وبسعة إجمالية تصل إلى ١٥٠ ألف طنًا من الحبوب والقمح، بينما أكبر صومعة في تشيكوسلوفاكيا كانت تتسع لــ ٩٢ ألف طن من الحبـوب[٦٥]. فهذه الإهراءات هي خزان القمـح الإستراتيجي للبنان، فهي تضم ٤٨ مخزنًـا كبيـرًا، يستوعب كل منها ٢٥٠٠ طـن، وكذلك تضم ٥٠ مخزنًا صغيـرًا يستوعب كل واحد منها حوالـي ٦٠٠ طن، وهي تخزّن ما نسبته ٨٥٪ من حبـوب لبنان وقمحه[٦٦]، وبعد التفجير خاف المواطن اللبنانـي الذي أصيب برزقه وبقوت عياله وبمسكنـه لفقدان المخزن الرئيسي للقمح في لبنان بالكامل، وأصبح لبنان معرّض للمجاعة بحسب الأمم المتحدة بخاصة وإن أزمة اقتصادية ومالية تتضربه بسبب الفساد السياسي.

صَمّمت الإهراءات مجموعـة هندسية سويسرية (Bühler Group)، وقد تولّت عملية تنفيذ التجهيزات الميكانيكية والكهربائية، وتم تلزيم أعمال الباطون والبناء لشركات لبنانية وتشيكوسلوفاكية (Průmstav) نفّـذت بدورها الأعمال الخرسانية الإسمنتية المسلّحة بإشراف الشركة السويسرية (استخـدم العمـال ٢٥٠٠٠ متر مكعب مـن الإسمنت، صبّوا معظمهـا في قوالب، لبنـاء ركائز اسمنتية مسلّحـة وهياكل الأساسـات، بينما صبّوا ٣٢٠٠ متر مربع أخرى في قوالب صلبة للأجزاء فوق الأرض). كما يوجد أسفل المبنى أروقة مدعّمة بالإسمنت المسلّح أيضاً، تم إنشاؤها مع بداية الحرب الأهلية سنة ١٩٧٥، بهـدف إختبـاء الموظفين في داخلها هربًا من القذائف التي كانت تطال المرفأ في بعض جولات الحـرب المشؤومـة. وقد بلغت تكلفة بناء هذه الإهراءات حوالـي ٢،٥ مليون دولار. ومن بعد ما أصبحت هــذه الإهــراءات جزء من تاريخ لبنـان المعاصر، وتضرّرت جرّاء انفجار مرفـأ بيروت في ٤ آب ٢٠٢٠، أعلنت الكويت عن تعهّدها بإعادة بنائها كما شيّدتها في المرّة الأولى.

الخاتمة

يتبيّـن لنا أن الأمن الغذائي للبنان معرّض للخطر لأسبـاب سياسية واقتصادية وعسكرية وإدارية، على الرغم من أنه يملك الأراضي الخصبة اللازمة التي تمكّنهً من الاكتفاء ذاتيًا، لكنه للأسف يستورد ٨٠٪ مـن المـواد الغذائية مع العلم أن شعبه قادر على تأمينهـا وتصنيعها محليًا. فماذا تنتظر الحكومة اللبنانية؟ هل تنتظر أن تأتي روسيا وتنفّذ ديبلوماسية القمح لتحقيق أهدافها من خلال جعل لبنان مركزاً للقمـح للشرق الأوسط؟ ففكرة مكتـب القمح عظيمة لو تحقّقت، وإهراءات المرفـأ فكرة أعظم لو تمّت

المحافظـة عليهـا وتجنيب المرفأ كل ما يضر بحركته الاقتصاديـة لأنه من المرافئ المهمة على البحر المتوسـط، وانفجاره اعتبر الثالث عالميًا من حيث قوّته، وتداعياتـه وضعت لبنان بين الدول المعرّضة للمجاعـة. للأسـف، التاريـخ يُعيد نفسه في لبنـان بسبب اللبنانييـن الذين عليهم العـودة إلى استثمار أراضيهـم زراعيًا مثل أجدادهم وعدم المساهمة بتحويل دولتهم إلى جمهورية الباطون، وعدم الاعتماد على الاستيراد فقط، فلبنان كان اقتصاده قويًّا في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين بفضل نظامـه الليبرالي الحرّ، والمهن الحـرّة، وصادراته الزراعية والصناعية والحرفيـة، وخدماته وأماكنه السياحيـة، وعملتـه القوية التي كانـت تُصرف في جميع أنحاء العالم، وبفضل رجـال الدولة الذين بتنا اليوم نفتقد إلى أمثالهم.

الهوامش

١- البيرق في ٧ نيسان ١٩٣٨، ص ٤.

٢- ألكسندر أبي يونس: إميل إدّه (١٨٨٣-١٩٤٩) قدّة الجمهورية اللبنانية، بيروت، ٢٠١٩.

٣- البيرق في ٥ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٤- كان خيـر الديـن الأحـدب، رئيسًـا لحكومـة لبنـان، قـد زار باريس خلال شهـر حزيـران ١٩٣٨، وتباحث مع الدوائـر الفرنسيـة المختصـة بالمشاريـع الاقتصاديـة التـي يحتاجهـا لبنـان. وقدّم مذكـرة إلـى وزارة الخارجية الفرنسيـة طالـب فيها بتصديـر المحاصيل اللبنانية إلى فرنسا بخاصة التبغ والليمـون. بيروت في ٢ تموز ١٩٣٨، ص ٤. كمـا رفـع رئيـس غرفة الصناعـة والتجارة فـي صيدا، يوسف أبـو ظهر، مذكـرةً إلـى الرئيـس إدّه قبل سفره إلـى فرنسـا وذلـك في ١٨ حزيران ١٩٣٨، تتعلّق بالليمـون البرتقالي والحامض، راجيًا إيّـاه التفاوض مع السلطات الفرنسيـة مـن أجـل تخفيض الرسـوم الجمركية عن هذيـن المنتوجين، أسـوةً بمعاملة فرنسا لليّمـون الإيطالي والإسبانـي، أو إعفـاء ٢٥٠ ألـف صنـدوق مـن تلك الرسـوم كما فعلت مـع بلاد مراكش وبعض البلـدان الإفريقية. البيرق في ٢٥ حزيران ١٩٣٨، ص ٢.

٥- بيروت في ١٦ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

٦- بيروت في ١٧ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

٧- بيروت في ١٩ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

٨- بيروت في ٢١ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

٩- بيروت في ٢٣ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

١٠- البشير في ٢٣ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

١١- بيروت في ٢٣ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

١٢- بيروت في ٢٦ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

١٣- بيروت في ٢٨ حزيران ١٩٣٨، ص ٤.

١٤- بيروت في ١ تموز ١٩٣٨، ص ٤؛ والبشير في ٥ تموز ١٩٣٨، ص ٤.

١٥- البيرق في ٢ تموز ١٩٣٨، ص ١.

١٦- بيروت في ٧ تموز ١٩٣٨، ص ٤.

١٧- بيروت في ١٢ تموز ١٩٣٨، ص ٤.

١٨- بيروت في ٨ تموز ١٩٣٨، ص ٤؛ وفي ٩ تموز ١٩٣٨، ص ٤؛ وفي ١٢ تموز ١٩٣٨، ص ٤.

١٩- بيروت في ١٦ تموز ١٩٣٨، ص ٤.

٢٠- بيروت في ٢٧ تموز ١٩٣٨، ص ٤.

٢١- بيروت في ٢ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٢٢- صوت الأحرار في ٣ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٢٣ - البشير في ١٩ تموز ١٩٣٨، ص ١.

٢٤- بيروت في ٣ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٢٥- البيرق كانت من بين الصحف التي شنّت هجومًا على سياسة القروض خوفًا من رزح لبنان تحت الديون، لكن لماذا لم تخاف على لقمة عيش الشعب اللبناني، وكيف سيؤمّنها خلال الحرب في ظل المضايقات السورية عليه وقيود المفوضية الفرنسية! البيرق في ١٤ تموز ١٩٣٨، ص ٢ و٨.

٢٦- صوت الأحرار في ٤ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٢٧- بيروت في ٥ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٢٨- بيروت في ٩ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٢٩- بيروت في ١٧ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٣٠ - بيروت في ١ أيلول ١٩٣٨، ص ٤.

٣١ - البشير في ١٨ آب ١٩٣٨، ص ١.

٣٢ - البشير في ٦ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٣٣- المصدر نفسه.

٣٤- البشير في ١٠ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٣٥- البشير في ١١ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٣٦ - البشير في ١٢ آب ١٩٣٨، ص ٤. من العبارات التي جاءت في الرد: «إن لبنان لا يعيش طفيليًا على أيّ كان، فموارده كثيرة ومتنوعة تساعده أكثر من أي بلاد أخرى على أن يشتري المواد السورية الزراعية والمصنوعة بفضل مقدرته على الشراء الناتجة عن جهود أبنائه المختلفة. ولبنان في داخل حدوده النهائية هو حقيقة تاريخية وسياسية لا تعبأ بالنظريات السطحية، وهو يزداد كل يوم تضامنًا وصلابة، ولا يطلب إلاّ أن يعيش باتفاق مع جميع جيرانه. أما صداقته التقليدية مع دولة فرنسا التي يغتبط بأنه أقرّها نهائيًا، فهي في أعين اللبنانيين أمتن الضمانات لحريّاته واستقلاله».

٣٧ - بيروت في ١٧ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٣٨ - بيروت في ١٨ آب ١٩٣٨، ص ٤.

٣٩- بيروت في ٢٣ آب ١٩٣٨، ص ٤. الوفد السوري كان برئاسة فائز الخوري، والوفد اللبناني برئاسة كميل شمعون.

٤٠ - بيروت في ٦ أيلول ١٩٣٨، ص ٤.

٤١ - بيروت في ٨ أيلول ١٩٣٨، ص ٤.

٤٢- بيروت في ١٣ أيلول ١٩٣٨، ص ٤.

٤٣ - البشير في ١٤ أيلول ١٩٣٨، ص ١.

٤٤ - بيروت في ١٤ أيلول ١٩٣٨، ص ٤.

٤٥- البشير في ١٦ أيلول ١٩٣٨، ص ٤.

٤٦- بيروت في ٢٧ أيلول ١٩٣٨، ص ٤.

٤٧- بيروت في ٢٩ أيلول ١٩٣٨، ص ٤.

٤٨ - أبرزها العنب. بيروت في ٣٠ أيلول ١٩٣٨، ص ٤؛ والبشير في ١ كانون الأول ١٩٣٨، ص ٤.

٤٩- قرار رقم ١٢٢ ل. ر.، تاريخ ٢٩ أيلول ١٩٣٨.

٥٠ - بيروت في ١ تشرين الأول ١٩٣٨، ص ٤؛ والبشير في ١ تشرين الأول ١٩٣٨، ص ٤.

٥١- بيروت في ٢ أيلول ١٩٣٩، ص ٤.

٥٢- البشير في ١٦ آب ١٩٣٩، ص ٤.

٥٣- البشير في ١٧ آب ١٩٣٩، ص ٤.

٥٤- البشير في ١٨ آب ١٩٣٩، ص ٤؛ وبيروت في ٢٩ آب ١٩٣٩، ص ٤.

٥٥- البشير في ٢٠ آب ١٩٣٩، ص ٤؛ وفي ٢٤ و٢٥ آب ١٩٣٩، ص ٤؛ وفي ٢٨ آب ١٩٣٩، ص ٤.

٥٦- البشير في ٢١ و٢٤ آب ١٩٣٩، ص ٤.

٥٧- بيروت في ٢٥ آب ١٩٣٩، ص ٤.

٥٨- بيروت في ٢٦ و٢٩ آب ١٩٣٩، ص ٤؛ والبشير في ٢٦ و٢٧ آب ١٩٣٩، ص ٤.

٥٩- بيروت في ١ أيلول ١٩٣٩، ص ٤.

٦٠- Josette ELAYI، Un quartier du port phénicien de Beyrouth au fer III، Perse، archéologie et histoire، Gabalda، Paris، ٢٠٠٠.

٦١- Dominique CHEVALLIER، La société du Mont Liban à l’époque de la révolution industrielle en Europe، Geuthner، Paris، ١٩٩٨.

٦٢ - LE JOUR، ٣ Décembre ١٩٣٤، p. ١; Et Mohamad EL-CHAMAA، «Port de Beyrouth، tirer les leçons de l’explosion oubliée de ١٩٣٤»، L’Orient le jour، ٤ août ٢٠٢١.

٦٣ - هالة حمصي: «صوامع الحبوب في مرفأ بيروت بناها العثمانيّون؟ إليكم الحقيقة»، النهار في ٩ آب ٢٠٢٠.

٦٤- المرسوم رقم ١١٢٩٤، تاريخ ١٩-١١-١٩٦٨.

٦٥ - Jan Zikmund: موقع Idnes الإخباري التشيكي، في ٦ آب ٢٠٢٠.

٦٦- عاطف البعلبكي: «إهراءات مرفأ بيروت: أمن لبنان الغذائي، ... قاومت الإنفجار بقوة وبقيت شاهدًا على الكارثة !!» وزارة الإعلام اللبنانية، في ١٨ أيلول ٢٠٢٠.

الخطاب السياسي في وسائل الإعلام اللبنانية

د. منى طوق

مقدّمة:

يشغَل الخطـاب السياسي اللبناني حيزاً مهماً في وسائل الإعـلام اللبنانية، إنما هذه الوسائل تقتطـع أجزاءً منه لنشرها، فيصل إلى المتلقي بالصيغة التي ترتأيها هذه الوسائل التي تعكس واقع المجتمع اللبناني.

وإن يكـن، فالخطــاب السياسي يحتاج إلى الإعـلام لإيصاله إلى الرأي العــام، والإعلام بدوره يستخـدم مضمـون الخطاب لاستقطاب هذا الرأي العام. لكن ما يهم هذه الدراسة هو الإطلاع على المعاييـر والأسس التـي تعتمدها وسائل الإعلام فـي اختيار أجزاء معينة من الخطــاب السياسي؟ يتضح الجواب عندما يدخل الخطاب السياسي "المطبخ الإخباري" كما هو متعارف عليه في مجال الإعلام.

وهنا تكمن المشكلة، بحيث يأتي الإجتزاء متنوعاً بتنوع الوسائل الإعلامية التي تناولت الخطاب ذاتــه، وقد يعود ذلك إلــى السياسة العامة للوسيلــة الإعلامية أو القيمين عليهــا أو أصحاب النفوذ فيهــا. وتكثر التساؤلات حـول كيفية تعاطي وسائل الإعلام مع أي خطــاب سياسي لأي من الأطراف السياسية خصوصاً، وأن الانقسامات السياسية تنسحب على غالبية وسائل الإعلام.

تساهــم هذه العوامل مجتمعة في معرفة المسببــات التي تتداخل في اجتزاء الخطاب السياسي في الإعلام، الذي ينطوي على أحد الهدفين: إما لإيصال الخطاب بالهدف المرسوم له أو باستخدام مقتطفات منه وتوظيفها لأغراض جمة.

خصوصيّة المجتمع اللبناني:

إن التجربــة اللبنانيــة في ممارسة الحريــة الإعلامية «المميزة فــي ديموقراطيتها وجرأتها»[1] تساعــد في توضيح التساؤلات ووضــع اقتراحات تراعي خصوصية المجتمــع اللبناني ضمن معايير حريــة التعبير عن الــرأي بما لا ينعكس سلباً علــى الأداء المهني نتيجة مواجهة ضغـوط سياسية أو غيرها.

يجــدر فهــم واقع مجتمعنا لمعرفة واقع الإعــلام في لبنان. إن بنية هــذا المجتمع، دولة وشعباً وأفراداً، تحكمه خصائص عدة تميزه عن غيره من الأوطان. بعض هذه الخصائص إيجابي وبعضها الآخــر سلبــي. إن النظام السياسي هو حصيلــة سلسلة من التطورات التي رافقــت استمراريته منذ نظام القائمقاميتين حيث كانت الطائفة محور الحياة السياسية ولا تزال حتى اليوم، ولطالما شكلت الطائفية السياسية أحد مقوماته.

هــذا يقــود الى أن النظام السياسي المعمول به حالياً هو "نظــام قائم على التسويات المستمرة بيــن أركان الحكم، وهو نظام تعددي يمثـل - وإن نظرياً - مختلف التكتلات والجماعات والفعاليات والقوى السياسية. وتعتبر التعددية السياسية هي من صلب الديموقراطية الصحيحة التي تقوم على

فصل السلطات، لكن واقع الأمر يثبت العكس، بحيث أن السلطة الاجرائية تتداخل مع السلطتين التشريعية والقضائية وأيضاً السلطة الرابعة أي الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية"[2].

يُستنتج مما سبق، أن «بنية المجتمع اللبناني على درجة كبيرة من التعقيد، فالجماعات الدينية تشكل الوحدات الأساسية في تكوينه، وقد اكتسبت، في سياق التطور التاريخي لهذا المجتمع كيانات سياسية تتمتع بشبه استقلال ذاتي. فالدولة اللبنانية تبدو كاتحاد بين جماعات دينية – اجتماعية - سياسية تتقاسم سلطتها وتشارك في حياتها السياسية وترتبط ببعضها في ظل دولة موحدة، كما تتداخل هذه الجماعات وتحتل مستويات غير متوازية في تركيبة السلطة تحددها قدراتها الذاتية والدعم الخارجي الذي ترتكز عليه»[3]. ما أدّى إلى بناء النظام اللبناني على قاعدة التوافق والتوازن بين الطوائف الرئيسية، وتحقيق التعايش في إطار دولة موحدة، هذا التنظيم مّيزّ طبيعة النظام السياسي اللبناني وانعكس على عمل مؤسساته الدستورية.

وانطبع لبنان ببنية مجتمعية جعلت قضية العيش المشترك بين الجماعات الدينية محور الحياة السياسية.

خلاصة القول، أن تركيبة المجتمع اللبناني المتنوع أفرزت واقعاً اجتماعياً متعدداً في اتجاهاته وانتماءاته. هذا التنوع في السياسة والواقع الاجتماعي انعكس تنوعاً في مجالات عدة لا سيما منها في المجال الإعلامي. ومما لا شك فيه، أن كل وسيلة اعلامية على شاكلة مكونات المجتمع تتبع لجهة سياسية وتعمل على تسويق خطابها بالطريقة التي تخدم أهدافها السياسية في المجتمع. لذلك تزايدت الشرعات الإعلامية لوضع المبادئ العامة التي ينبغي على أي وسيلة التقيّدّ بها.

وأكثر ما يبدو جلياً أن التنوع الإعلامي هو صورة عن التنوع السياسي الحاصل وما يترجم فعلياً على أرض الواقع، لا سيما أن «السياسة لا يمكن فصلها عن الإعلام»[4] فهو - أي الاعلام - يتأثر بها، وهي - أي السياسة - تؤثر عليه.

وفي لبنان، من البديهي أن»لا نطلب المثالية من وسائل الإعلام وهي المحكومة بمعايير سياسية واقتصادية ومالية ومملوكة من أصحاب نفوذ لن يفسحوا في المجال أمام أحد للسيطرة عليها أو التحكم بها»[5].

التنوُّع الإعلامي:

يُعرف لبنان بالتنوع السياسي في مختلف مؤسسات المجتمع، وفي مقدمها وسائل الإعلام. إذ لا ينحصر في التمثيل النيابي أو الحكومي أو الرئاسي فحسب بل ينسحب أيضاً على هيكلية الأحزاب والقطاعات الاجتماعية وغيرها، وتحديداً وسائل الإعلام التي تعكس التركيبة البنيوية للنظام السياسي من ناحية والمجتمع من ناحية أخرى، بحيث تُظهر وسائل الإعلام التنوع السياسي والاجتماعي في المجتمع.

ورغم التجربة الإعلامية الغنية في لبنان لا سيما مع الصحافة المكتوبة، «لا يزال الإعلام حتى اليوم أسير الانقسامات السياسية والطائفية، بحيث أنه اعلام متعدد وليبرالي وحر وفي الوقت ذاته اعلام منقسم طائفياً وحزبياً خاضع لسلطة المال السياسي»[6].

بشكل عام، إن وسائل الاعلام هي صورة واضحة للانقسام السياسي في المجتمع اللبناني «تعطي رؤيتها الخاصة لما يحصل وهي رؤية تتلاءم مع أهدافها»[7]، فالممارسة الإعلامية تعكس حيثيات الواقع السياسي وتموضع المؤسسات الإعلامية التي تمثلها جهات سياسية أو حزبية أو غيرها. هذا طبيعي لأن الوسيلة الإعلامية سواء الجريدة أم التلفزيون «هي حزب سياسي مترجم إعلامياً ولغوياً[8]، تنقل الأحداث من وجهة نظرها وبطريقة أحياناً مختلفة.

وفي ظل الانقسام السياسي منذ العام 2005، زادت حدة تعاطي وسائل الإعلام مع الأحداث، بحيث أن لكل مؤسسة خلفية إعلاميّة سياسية تحدُّ من استقلاليتها وملكية سياسية لا تستطيع أن تتخطاها، وتبقى التشريعات والمواثيق الاعلامية مجرد حبرٍ على الورق، لأن المسببات لهذا الواقع الإعلامي لا تزال موجودة ومنها على سبيل المثال «الوضع القانوني المتمثل بالمحاصصة في الرخص الإذاعية والتلفزيونية، الوضع المالي بالعجز الذي تعاني منه كل المؤسسات الإعلامية، ضعف الأجهزة المنظمة للقطاع الإعلامي، تفكيك الإعلام الرسمي، غياب آليات المحاسبة والرقابة والتقييم عن وسائل الإعلام، انعدام مواثيق الشرف في المؤسسات الإعلامية ... كل هذه الأسباب أفقدت وسائل الإعلام استقلاليتها وحولتها إلى أبواق دعائية تسعى لإملاء قناعاتها على الجمهور أكثر منها أدوات أخبار وثقافة»[9].

وبذلك أضحت هذه الوسائل وتحديداً المرئية منها، امتداداً مباشراً للأحزاب السياسية والطائفية، الأمر الذي انعكس على مضمون الرسالة الإعلامية بإعادة الانقسامات والتناقضات والخلافات الحاصلة في المجتمع الى الواجهة.

تقاسم وسائل الإعلام:

في الواقع، إن تعددية وسائل الاعلام سواء المكتوبة أو المرئية أو غيرها لم تعد تشير الى التنوع والتفاوت في الآراء، إنما الى التعددية التي تعود للأحزاب أو لجهات داعمة مادياً سواء كانت محلية أو إقليمية أو دولية. ومن الواضح أن غالبية وسائل الإعلام تعود ملكيتها في الغالب الى أحزاب أو تيارات سياسية «خصوصاً بعد اتفاق الطائف وإقرار التراخيص لوسائل الاعلام المرئية والمسموعة التي تمّت بالمحاصصة والتوزيع بين القوى السياسية والطائفية، مما سمح للقوى السياسية والطائفية استكمال عملية التعبئة بتقنيات اعلامية حديثة مكرّسة بذلك واقع الإنقسام الحاصل في المجتمع، ومراقبة وسائل الاعلام العاملة حالياً في لبنان تبين بسهولة هويتها السياسية والطائفية- المذهبية، أما الصحف فيصعب تصنيفها وفقاً للفرز الطائفي الحاصل لكن

يمكن معرفة الاتجاه السياسي انطلاقاً من آرائها ومواقفها. فتحلل هذه الوسائل «الموقف السياسي بطريقة منسجمة الى حد كبير مع الإيديولوجية التي تتبناها كل منها، وضمن الخيارات التي يرى كل فريق أنها قضيته الوطنيّة»[10].

وقد تعمّق هذا الانقسام بعد العام 2005 الذي لا يزال متجذراً بقوة حتى اليوم، ويترجم على عناوين الصفحات الأولى في الصحف المصنفة سياسياً من الفئة الأولى وفي مقدمات النشرات الإخبارية المتلفزة.

من هنا، يمكن القول إن الاعلام اللبناني مقسوم سياسياً وثقافياً، وصورته هي نسخة طبق الأصل عن المشهد السياسي اللبناني، إذ لكل وسيلة إعلامية انتماؤها السياسي المبني على أساس طائفي، الذي يظهر للعلن عند أي قضية على صعيد الوطن، بحيث تحاول كل وسيلة أن تدافع عن حقوق الفريق السياسي الذي تؤيده، الأمر الذي ينعكس على الأداء الإعلامي للوسيلة .

هذا يدل على أن الإعلام هو مرآة المجتمع، والمجتمع اللبناني يشهد تأزماً سياسياً، يعني أن الإعلام اللبناني كذلك. وأصبح العديد من وسائله «يشكل جزءاً من المشاريع لأشخاص في السلطة، مما يدفع العاملين في هذه المؤسسات الى تكييف أسلوب عملهم مع متطلبات المشروع ويتحول إلى التربص بالخصم السياسي لهؤلاء»[11].

المشهد الإعلامي اللبناني:

للإعلام اللبناني مرتكزات أساسية، منها ما يتعلق بالمؤسسة ومنها ما يطالب به الإعلامي حفاظاً على الأمانة والصدقية والحقيقة لضمان حق المواطن في الاستعلام.

ينص الدستور اللبناني في المادة الثالثة عشرة بوضوح على حرية الرأي وفي المادة الثامنة على احترام الحرية الشخصية. وتعتبر حرية التعبير والرأي والإعلام من أهم الحريات الأساسية الواردة في الشرعة الدولية لحقوق الإنسان باعتبارها من ركائز المجتمع الديموقراطي التعددي لإتاحة الفرص للجميع، سواء كانوا من مؤيدي نظام الحكم أم معارضيه أو غيرهم. ويتميز الإعلام اللبناني بالتنوع المرتكز على هامش من الحريات، «وعندنا في لبنان ضمانات لحرية الصحافة تتجاوز حدود الضمانات القانونية والدستورية»[12].

هذا ما جاء أيضاً في تقرير للوكالة الأميركية للتنمية الدولية حول مؤشر استدامة الإعلام[13] بأن الإعلام في لبنان يتمتع «بهامش من الحرية، بيد أن هذه المساحة التي تسمح بالمناقشات الشاملة هي نفسها التي تخدم الأجندات السياسية للوسائل الإعلامية. وأن هذه الوسائل أصبحت أدوات في يد السياسيين بدلاً من أن تكون الأدوات التي تحاسبهم»، علماً أن «الإعلام ليس في خدمة السياسيين، بل في خدمة المشاهدين والقراء في عيشهم ومشاكلهم اليومية، وفي أهمية احترام حق المواطنين في الإعلام، وصحة الخبر وخلقية الإعلام في الممارسة اليومية للإعلاميين، وحق

الناس في المعرفة، ومن وظائف الإعلام نقل المعرفة بخلقية وصدقية والاهتمام بشؤون الناس بتواضع واستقامة وشجاعة»[14]، خصوصاً «أن الكلمة مسؤولية والدفاع عن هذه المسؤولية واجب إنساني مقدس»[15].

فالحرية الإعلامية ضرورية لكن يجب أن تقف عند حدود المهنية الأخلاقية وإلا فلا جدوى من المواثيق التي تنص على أهمية الأخلاق المهنية في العمل الإعلامي.

المحتوى الإعلامي والأخلاقيات الإعلامية:

ما هي الأخلاق المهنية؟ إنها «مجموعة قيم ومبادئ خلقية وسلوكية يلتزم بها الصحافي أثناء ممارسة عمله، وكذلك تلتزم بها المؤسسة الإعلامية. تتمثل هذه الأخلاق في قيم عامة وتقاليد وتصرفات، بعضها عام ومشترك كقيم الصدق والنزاهة والتوازن، وبعضها خاص بالمجتمعات أو بالمؤسسات. وقد باتت هذه المبادئ متجسدة في شرعات إعلامية أو مواثيق شرف مكتوبة أقرتها اتحادات صحافيين أو مؤسسات إعلامية أو هيئات نقابية»[16]. وترتبط الأخلاق المهنية أيضاً «بالقيم التي يعتنقها الإعلامي بملء حريته من دون أي إملاء أو فرض. وتتضمن مجموعة الممارسات والأفكار التي يبني عليها علاقاته مع الآخرين. وليست الأخلاقيات محصورة بمهنة الإعلام، بل لكل فرد أو مهنة أو مجتمع أخلاقيات تشكل إطاراً مرجعياً ومُعاشاً»[17].

هذه الأخلاقيات تنمي المسؤولية المهنية إن لناحية الصحافي في القيام بدوره أو لناحية المؤسسة الإعلامية في عدم الرضوخ للذين قد يتحكمون بها (من المموليين أو الداعمين أو النافذين...)،

لذلك، فالمعايير الإنسانية والأخلاقية تحمي الرسالة الإعلامية، وعندما تتلاشى أو تنهار تلك المعايير تنهار معها الصدقية والاستقلالية. لذلك «فإن الصرخة المدوّية التي أطلقها علماء الاتصال والإعلام حول انهيار الإعلام كرسالة أخلاقية، تستند على ما توفر لمصادر صنع القرار السياسي من امكانات مادية ومعلوماتية على درجة عالية من التفاعل والحكام التي أدّت إلى سلب المؤسسة الإعلامية استقلاليتها وحياديتها، وبالتالي جرى إخضاعها آلياً للقرار السياسي»[18].

تتطلب الممارسة الإعلامية «تنمية الخلقية الإعلامية بخاصة في مجتمع متعدد الطوائف كلبنان والتأسيس لثقافة إعلامية قادرة على حماية الحريات من جهة، وتنظيم الأداء الإعلامي ضمن أطر وقواعد وأصول المهنة والإرتقاء بمستواه العملي والقيمي في خدمة حاجات المجتمع»[19].

ما بين الإعلام والسياسة والمجتمع:

إن الإعلام هو القوة الأكثر تأثيراً في مسار حياة الشعوب وقيمّها، إذ «ثمة أمم صغيرة عديدة، برغم أنها لا تملك أي أهمية من حيث المقدرة السياسية والعسكرية إلا أنها تملك أهمية عالية جداً

من حيث الفكر والثقافة والتربية»[20].

وبات الإعلام من ناحية، يشكل جزءاً من الحِراك المجتمعي، حيث يستطيع أن يحدث تغييراً في كل مجالات الحياة السياسية وسلوكيات أفراد المجتمع؛ وتطال التغييرات الأعراف والقيم الاجتماعية... واستطاع رجال السياسة من ناحية أخرى توجيه أو استخدام وسائل الإعلام الى حدٍ ما لتحقيق أهدافهم - فغالبية وسائل الإعلام اللبنانية يملكها سياسيون أو لهم أسَهم في ملكيتها- لأن «رجل السياسة بحاجة الى الصحافة التي هي بدورها بحاجة إليه آمصدر من ناحية وكشخص يأتي ليغذي محتواها بتصريحاته ووقائع الفضائح التي يمكن أن تزيد من الجمهور وبالتالي من الاعلانات»[21]، الأمر الذي يبعد هذه الوسائل عن المفاهيم الأساسية التي وضعت ضمن مبادئها العامة حيث «يتحول العديد من المذيعين والمذيعات إلى شخصيات عامة ونجوم تضاهي شهرتهم السياسيين والفنانين، لأن التلفزيون «هو الوسيلة رقم واحد التي يتابعها غالبية الناس في مختلف أنحاء العالم ولمختلف الأعمار»[22].

ولأن لكل فئة أو تيار سياسي وسيلته الإعلامية، «فإن الصدقية هي الرهان الأساس لقناع جمهور معين بسلطة معينة. هذه الصدقية غالباً ما تكون معقدة لأنها يجب أن تخضع لشروط ثلاثة: الصراحة لقول ما هو صحيح، والانتقاد لمقاربة الوعود بالتحقيق، والقوة للتأكيد على أن الوعود هذه مقرونة بنتائج إيجابية»[23]. وبما أنه ليس هناك من إعلام مستقل في المبدأ تلجأ كل وسيلة إلى استخدام الانقسامات الاجتماعية والفئوية في الصراع السياسي. هذا أمر يدل على وجود مشكلة بنيوية وليست مشكلة طارئة.

في الواقع «كل خطاب سياسي لديه فكرة بأن الحدث السياسي قادر على إحداث تغييرات في المجتمع ويركز على قضايا معينة دون أن يسلم من الانتقادات التي قد يتعرض لها»[24]. ويحتاج هذا الخطاب السياسي الى وسائل الاعلام لإيصاله الى المتلقين. و«يعجب رجل السياسة بالاتصال لأنه الركيزة المثالية التي ليست في متناول اليد، والتي تمتص إرادات التغيير. أما موقف رجل السياسة من الاعلام فهو بوجه عام غامض. فالإعلام بالنسبة إليه مورد سياسي مهم والصحافي احتمالياً نافع ومضر في آن»[25]. وليربح الرجل السياسي«لا يكفي أن يتحدث بقوة أكثر من الآخرين بل أن يكون خطابه سهلاً وكلماته مختصرة ومعبِّرة»[26]. آما أن «الخطاب السياسي غالباً ما يبرز منه الجيد للدلالة على استراتيجية سياسية معينة»[27].

الخطاب السياسي في وسائل الإعلام:

للإعلام دور أساسي في السياسة، لأنه، أي الخطاب السياسي، مهما كان قوياً ومهماً يبقَ طي الكتمان إذا لم تظهره وسائل الإعلام إلى المواطنين. فالإعلام له القدرة في توجيه رسائل محددة وفاعلة (منذ وجود الإعلام في المجتمعات البشرية).

ويتمحـور دور الإعلام حول طريقـة إيصال هذا الخطاب الى الرأي العـام، إلا أنه قد يوضح أو يشوِّه. وقد يقول الحقيقة أو ما شابه، إذ يوهم الرأي العام بما لا يعنيه الخطاب ويضلله. يبني خبره علـى معلومـة مجتزأة من الخطاب ويعممه. يعنون على كلام يمر سريعاً ويهمل ما يستحق التوقف عنـده. يهتم بتفاصيـل ويبتعد عن أمور أساسية، إذ «تعبّر كل وسيلـة إعلامية عن مضمون الخطاب بطريقتهـا الخاصة»[28] بهدف غايات محددة، فإما تسوِّق الخطـاب السياسي لأن هدفها الخطاب بحـد ذاته، وإما تجتزئ ما يناسبهـا لاعتبارات معينة. فالوسيلة الإعلاميـة هي «التي تحرك الرأي العام لحسابها أو لحساب الآخر بغية دعم موقف سياسي اتخذته»[29].

الخطاب السياسي في الإعلام المرئي:

إن حـال الإعلام المرئي في لبنان شديدة الحساسيـة كما هي حال الخطاب السياسي الحالي، حيـن تشتد الأزمـة السياسية تتحول كل وسيلة إعلامية إلى منبر لهـذا التيار أو ذاك الذي غالباً ما يكـون له هوية طائفية أو سياسية، وتتجاهل المعايير المهنيـة المبنية على مبادئ نقل الخبر بأمانة والامتنـاع عـن تحريفه أو تضخيمه. وقد «شهدنـا في السنوات السابقة نماذج فـي الأداء الإعلامي تحـول معها التلفزيـون الى امتداد للخطاب السياسي أو حتى العسكري للطرف الذي يمتلك الوسيلة الإعلامية، بحيث أن لكل مذهب محطته التلفزيونية بنسبة حجم القوى داخل هذا المذهب أو ذاك، وقاد هذا التوزيع إلى توظيف على قاعدة الإنتماء المذهبي والطائفي»[30].

«هـذا، وأفرزت أحداث الأزمة اللبنانية ما يمكـن أن يتوافق على تسميته «إعلام الطوائف» إلى جانـب» إعلام الأحزاب»، بحيث أن الإنسان اللبناني لا ينتمـي إلى مفاهيم مثل الوطن بقدر انتمائه إلى الدين والمذهب والمؤسسة الدينية»[31].

واستتبـع هذا الفرز بالتقسيم السياسي لمحطات التلفـزة في التسعينات كما ذكر سابقاً، حيث فرض واقعاً إعلاميـاً جديداً، بحيث «تمّت محاصصة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وتوزيعها بيـن القوى السياسيـة والطائفية»[32]. وتعمّق هذا الانقسام في العام 2005 ، بحيث باتت التغطية الإعلاميـة لأي حـدث سياسي تنطلق من المفهـوم الذي تريده الوسيلة الإعلاميـة وتضع الخبر في السياق الذي يخدم توجهاتها السياسية.

و«تصبح كل محطة منبراً سياسياً يعبّر عن وجهة نظر أحادية الجانب، والجمهور حاضر ليقاطع الوسيلة التي تتخذ اتجاهاً لا يحاكي غريزته السياسية والطائفية[33].

هذا الإعلام ينشر الخطاب السياسي اللبناني وفق التوّجه السياسي المرسوم له، وتستهل غالبية محطات التلفزة اللبنانية النشرة الإخبارية بالأخبار السياسية التي يندرج الخطاب السياسي ضمن سياقهـا لمـا له تأثيرعلـى الحياة العامة في المجتمـع. وفي التلفزيون تتداخـل عوامل عدة «يخضع لهـا الخطاب السياسي من كادر الصورة والحركة واللـون ... فتؤثر على طريقة إبراز الخطاب عند

الخطيب»[34].

وبمـا أن وسائل الإعلام بما فيهـا المرئية، تعكس حالة التنوع الاجتماعـي، فهي أيضاً جزء من الانقسـام السياسـي الحاصل. لذلك، قد يعرضـ التلفزيون في الغالب جزءاً مـن الخطاب على أنه يمثل الصورة الحقيقية، ويركز عليه، ويقدمه للجمهور على إنه الصورة الحقيقية بكامل أجزائها.

ويخضع هذا الجزء للمعيار الذي تعتمده الوسيلة سواء أرادت تسويقه إيجاباً أم سلباً.

الخطاب السياسي في الصحافة المكتوبة:

تشـكل الصحافة المكتوبة إحدى وسائل إيصال الخطـاب السياسي إلى المتلقي، فعندما تنشر خطابـاً سياسيـاً بأسلوبها تتميز بنوعية التحليـل والتغطية وهي خاصيّة تنفرد بهـا. وكان لها الدور الأبرز ولا يزال في التعاطي مع الخطاب السياسي وإيصاله الى المتلقي ممهوراً بطابعها الخاص.

مـن هنا، تحتـل الأخبـار السياسية ومنهـا الخطـاب السياسـي الصفحة الأولـى والصفحات الرئيسيـة في الصحف المصنفة فئة أولى سياسية كـون السياسة هي من القضايا الأساسية التي سلط عليها الضوء في الإعلام وتعطى لها الأهمية. وتنشر الجريدة خطاباً سياسياً بكامله اذا كانت تدعم الفريق السياسي الذي يعبر عنه الخطاب.

ويكفـي الاطلاع علـى الصحف اللبنانية الصادرة «فهي توازي تقريبـاً عدد الأحزاب وغالباً ما قامـت الصحف بأدوار الأحـزاب مع أنها مستقلة عنهـا»[35] لإبراز مدى ارتباطهـا الشديد بالعمل السياسي وتعاطيها مع القادة لتسويق خطاباتهم.

من هنا، فالوسيلة الإعلامية المكتوبة التي تؤيد فريقاً سياسياً معيناً تسوّق له خطابه السياسي. ممـا يعنـي أنها تعبّر عـن تأييدها لهذا الخطاب علانيـة، وإذا كانت تعارضه تعتمـد الأسلوب الذي يشـوّه هـذا الخطاب من دون أن تراعي ما تنص عليه الشرعات الإعلامية لناحية واجبات الإعلامي والمؤسسة الإعلامية، والتمييز بين الحقائق والتعليقات والآراء، واعتماد الموضوعية وعدم الانحياز. ولئـلّا تفقـد الصحافة المكتوبة موقعها الإعلامي أمام ثـورة التكنولوجيا واقتصاد المعرفة فهي لم تقف مكتوفة اليدين إنما تخضع لمزيد من التطوير الذي طال الشكل والمضمون معاً، وهو ما سيؤمِّن موقعها الخاص على شبكة الإنترنت.

إجتزاء الخطاب السياسي:

عندما تجتزئ الوسيلة الإعلامية مقطعاً من الخطاب، يطرح السؤال: لماذا اجتزاء هذا المقطع بالذات؟ على أي أساس؟ هل لأنه مهم أم ثانوي؟ هل لأنه يرفع من قيمة الخطاب وشأن الخطيب أم العكس؟ هل يتوافق مع سياستها أم يعارضها ؟ هل يجسد المعنى الذي يقصده الخطيب أم أن هذه الوسيلة الإعلامية لا تريد أن تعكس هذا المعنى؟ هل يدلل على أهمية المناسبة أم يفقدها بريقها؟

عندما يتعرض الخطاب السياسي للإجتزاء في وسائل الإعلام قد «يتعارض مع المشاريع السياسية التي تطرح في الخطاب السياسي حيث أنه، أي الاجتزاء، يخدم جهة سياسية على حساب الأخرى ويخلق بلبلة في الوسط السياسي»[36]. ولأن «إنشاء غالبية وسائل الإعلام هو بدافع ودعم من السلطات السياسية»[37] ما يرتبط الإجتزاء بالضرورات السياسية، فمحطات التلفزيون تابعة كل منها لفريق سياسي أو لجهة تدعمها مادياً لنشر سياستها، كذلك هي حال الصحف التي تجتزىء من الخبر ما يلائم هذه السياسة أو تلك، لأن وسائل الإعلام «لا تكتفي بنقل ما يحدث بل إنما تبني بما يحدث»[38].

وما يقوم به الإعلام لا يعد إيجابياً أو سلبياً بالمطلق، ومن ينظر إلى عمله وممارساته من زاوية مهنية من خلال تطبيق المعايير المهنية، يجد أن معظمه قد خرج عن دوره وانحرف عن مهمته الأساسية، وهي نقل الخبر إلى المشاهد بأمانة من دون اجتزاء أو تضخيم أو تحريف. وكانت نتيجة انفلات هذه الضوابط المهنية أن انزلق الإعلام اللبناني إلى مستوى التراشق الطائفي تحت شعار الاختلاف السياسين المجموعات اللبنانية من دون الخوف من الوقوع في المبالغة.

يستدلّ من ذلك، أنه «لا نستطيع الحديث عن إعلام لبناني بل عن «إعلامات» لبنانية، وهو يتلون إما بشعارات أو بمنظومات سياسية. لذلك يحاول إبعاد صورة التموضع المذهبي الذي يحاول البعض إدخاله فيه، يحاول هو أن يعلن عن نفسه أنه تعددي وغير منحاز»[39].

في هذا السياق، قد يشوه الخطاب السياسي بسبب تبعية وسائل الإعلام والتزامها السياسي، وعدم قدرتها على التفلت من القيود التي تتحكم بها. بينما يترتب عليها مسؤولية التغطية الإعلامية «بتنقية كل خطاب إعلامي يتضمن تجريحاً وتهديداً أو دعوات إلى العنف»[40] لأنه قد «يحرك بعض الصحف نار الحرب»[41] فتحيد عن الرسالة الإعلامية.

فالديموقراطية التي تتمحور حولها وسائل الإعلام هي في أحد وجوهها إيصال الخطاب السياسي إلى الرأي العام، إنما لها خاصيتها في اختيار ما يتناسب مع توجهاتها وانتماءاتها السياسية التي تمّيز كل وسيلة عن غيرها. وبالتالي للمواطن حق في معرفة الأحداث، إنما يصعب ذلك إذا لم يتمّ احترام المبادئ والقيم السلوكية التي ينص عليها الميثاق الإعلامي اللبناني لا سيما منها الحيادية والدقة والاستقلالية ... مما يؤدي إلى انحراف الخبر عن سياقه، والتعامل معه بشكل سلبي بتعميم قضايا معينة وتجاهل أخرى.

تختلف طريقة تعاطي وسائل الإعلام مع الخطاب والخطيب والمناسبة. كل وسيلة تجتزىء من الخطاب ما يناسب سياستها، ما يدلّ على مدى حريتها ومسؤوليتها.

يُستنتج مما سبق، أن الاجتزاء في وسائل الإعلام يعتمد على معايير سياسية ويظهر إلى العلن بقالب إعلامي. تجتزىء وسائل الإعلام وتنشر ما يتوافق مع تطلعاتها السياسية وتُقدِّم مادة إعلامية محددة. وبذلك ، لم يعد الإعلام مجرد ناقل للحدث، بل أصبح مشاركاً في صنعه بطريقة أو أخرى،

وفي أحيان كثيرة صانعاً له، والإعلاميون لم يعودوا مجرد راصدين ومتابعين لسير الأحداث، بل هم فاعلون وموجهون لخطوط سيرها. كما أن العلاقة بين الإعلام والسياسة بلغت مستويات متقدمة من التداخل والتشابك، في ذلك الارتباط مخاطرعدة :

أولها: أن هذا التحالف ينعكس سلباً على وظيفة الوسيلة الإعلامية، ويحول صفتها من إعلام مستقل إلى إعلام «تابع»، مما يؤثر في صدقيتها لدى الجمهور.

ثانيها: أن ترك الباب مفتوحاً أمام وسائل الإعلام لإدارة معارك «بالنيابة» عن الآخرين قد يؤدي إلى تأثير سلبي في الانسجام الاجتماعي في المجتمع، عبر تحول المنابر الإعلامية إلى ساحات مواجهة بين مكونات المجتمع.

في الواقع، تنشر كل وسيلة ما يتناسب مع انتمائها السياسي، فيأتي الاجتزاء متعدداً نظراً لتنوع وسائل الإعلام التي ترتكز على هامش كبير من الحرية. فيكون الخبر انعكاساً لصورة الواقع اللبناني بكل انقساماته بين الأفرقاء السياسيين.

يُستخلص من هذه الدراسة أن الوسيلة الإعلامية تركزعلى أجزاء من الخطاب تتلاءم وسياسة القيمين عليها، أو ممن يعملون ضمن كوادرها. إذ تعطي الأفضلية للمعلومة انطلاقاً من معايير سياسية لا مهنية. كما أن الحالة الديموقراطية التي يتميز بها لبنان والحرية الإعلامية تعطي هامشاً كبيراً للمؤسسات بأن تعكس ما تمثله سياسياً بشكل مباشر أو غير مباشر من دون التقيّد بالحرية المسؤولة. وتتمتع غالبية هذه المؤسسات بالحرية في إجتزاء ما تريد من الخبر بالرغم من أنها قد تسيء الى مضمونه من خلال السياق الذي تنشر ضمنه الخطاب المجتزأ. ويخضع الإجتزاء لسياسة الوسيلة الإعلامية بهدف تسويق فكرة معينة من الخطاب وتجاهل أخرى. فتصبح الوسيلة أشبه بالمنبر لفريق سياسي على حساب الآخر. لذلك تحول الإعلام إلى طرف في الصراع السياسي، ما يعني غياب الحيادية والاستقلالية إلى حدٍ ما وتقديم الخبر بالشكل الذي يخدم ارتباطها السياسي.

الخاتمة:

إن الإجتزاء يعبّر عن الحرية التي يتمّيـزّ بها الإعلام اللبناني والديموقراطية التي تعتبر من المقومات الأساسية لطبيعة مجتمعنا. ومن دون تلك الميزة يخسر لبنان موقعه الإعلامي بحيث استطاع مع رجالات الفكر والثقافة منذ ولادة أول صحيفة - «حديقة الأخبار» في العام 1858، مروراً بحقبات تاريخية سطّرت فيها الصحافة اللبنانية ريادة ملموسة - أن يحتل مكانة نهضوية باستقلالية صحافته وأقلامه الحرة. واذا انحرف هذا الإجتزاء عن المبادئ الإعلامية والقيم السلوكية التي ينبغي اعتمادها، فيكون قد تخلى عندئذ عن الخلقية المهنية التي تتطلب الحيادية والحقيقة والاستقلالية ويصبح معرضاً للانتقاد في هدفيته وآلياته المعتمدة.

ويستوجب الإجتزاء من الإعلامي، وفقاً لمقترح شرعة الإعلام في لبنان(2008) «التلخيص والاختزال والحرص على الأمانة من خلال وضع الخبر في إطاره في كل الحالات، حيث أن فصل الوضع عن وضعيته قد يؤدي إلى تحوير يسيء إلى صحة المعلومة والأشخاص». لذلك يقتضي العمل على حماية المستعلم من ناحية، والحفاظ على جوهر الخبر من ناحية أخرى، خصوصاً أن الإعلام له القوة المؤثرة والفاعلة في أي مجتمع.

جُلُّ ما يمكن قوله أن الواقع الإعلامي اللبناني يقوم على المحاصصة الطائفية شأن النظام السياسي، وأن كل وسيلة إعلامية تستقطب الأكثرية من الموظفين القريبين من هويتها الطائفية من جهة والتزامها السياسي من جهة أخرى(ما عدا ذلك استثناءات نادرة)، ولها امتدادها مع الخارج لأسباب متنوعة.

ويتضح الاستنتاج أن الواقع الإعلامي اللبناني يعكس صورة طبق الأصل عن المجتمع بمختلف فئاته السياسية وانتماءاته الطائفية، وهذا تطلب صدور مواثيق وشرعات لتنظيمه لكنها بقيت حبراً على ورق لأن التقيّد بها ليس إلزاماً وإنما معنوياً فحسب.

وبالنظر الى إجتزاء الخطاب السياسي في وسائل الإعلام بدا واضحاً أن الإعلام يلتقي حول قضايا بحدٍ أدنى ويختلف حول أخرى بحدٍ أقصى. وتبين أن الوسيلة تترك بصماتها على المضمون، فتأتي الرسالة «متلونة» بلونها، وتضع المضمون في السياق الذي يخدم الخطاب أو يشوهه وفق ما تقتضي مصلحتها العليا.

ورغم أن هذه الوسيلة تجتزىء الخطاب السياسي لأهداف محددة، إلاّ أن وظيفتها في الأساس هي تنمية الوعي السياسي عند المواطن، وشرح متطلباته وتثقيف الرأي العام، وتقديم المعلومة إليه، وإعطاؤه فسحة لأخذ ما يريده من دون أن تكون الأمور معلبة ومفروضة عليه. لذلك، لا بد من الاضطلاع بدورها المنوط بها على الصعيد الوطني وإلاّ فما هي أهميتها قياساً إلى مجتمعها لا سيما وأن الإعلام هو من يمكنه انتاج تحولات نهضوية متسارعة في ظروف ملائمة.

المراجع

1 - مقترح شرعة الإعلام في لبنان، المجلس الوطني للإعلام المرئي والمسموع ومكتب اليونيسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية، بيروت، 2008.

2 - أبو النصر، فضيل، لبنان اليوم والغد، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 1996، الطبعة الأولى، ص 75-74.

3 - سليمان، عصام، الفدرالية والمجتمعات التعددية ولبنان، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1991 ، ص 255 .

4 - Wolton، Dominique ، La communication politique، Les Essentiels d'Hermès، CNRS Editions،Paris، 2008، p.89.

5 - الرشيد، حسانة، التربية على الإعلام، نشرة الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة- لبنان، تشرين الثاني 2007، العدد 14-13، ص 22 .

6 - كرم، كرم، الإعلام اللبناني وإشكالية تكوين رأي عام في مجتمع منقسم، المصدر السابق، ص 4 5- .

7 - زين الدين، أحمد، الخطاب الإعلامي لوسائل الإعلام الجماهيرية، عمل جماعي، ص 518.

8 - الخوري، نسيم، الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، سلسلة أطروحات الدكتوراه (50)، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت 2005، ص 271.

9 - صدقة، جورج ،المراصد الإعلامية سلطة خامسة لضمان أخلاقيات المهنة؟، عمل مشترك، منشورات الجمعية اللبنانية من أجل ديموقراطية الانتخابات، 2009، ص 89-88 .

10 - الزعيم، هلا، التغطية والخطاب السياسي في الصحافة المكتوبة اللبنانية، مجلة «أوراق جامعية»، العدد 31، 2009، ص 278.

11 - رمال، علي، الاعلام بين المهنية والاستتباع، الدراسات اللبنانية، 2010.

12 - تويني، غسان، سر المهنة وأصولها، الجزء الأول، دار النهار للنش، 1990، ص 40 .

13 - مؤشر استدامة الاعلام 2010 2011- تنمية اعلام مستقل ومستدام في لبنان، تقرير الوكالة الأميركية للتنمية الدولية و«مهارات»، ص 15.

14 - عطالله، طوني، مجلة الدراسات اللبنانية، صيف 2010 .

15 - ياسين، صباح، الاعلام النسق القيمي وهيمنة القوة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 2006، ص 166.

16 -- صدقة، جورج، الأخلاق الإعلامية بين المبادئ والواقع، «مهارات»، الطبعة الأولى ، بيروت 2009 ، ص 15 .

17 - عطالله، أنطوان، شرعة الإعلام والأخلاق المهنية، المصدر السابق.

18 - ياسين، صباح، الإعلام النسق القيمي وهيمنة القوة، ص 147 و 148.

19 - الرشيد، حسانة، الممارسة الإعلامية بين الديموقراطية والديماغوجية.

20 - عواد، سيمون، الصحافة والإعلام في خدمة الدولة والخير العام، لبنان، 1999، ص 25 .

21 - القادري، نهوند، الاتصال السياسي، مجلة «أبعاد»، العدد السادس 1997، ص 217 .

22 - Viallon، Philippe، que sais je، l'analyse du discours de la télévision، Presses Universitaires de France، premier édition، paris، 1996، p.4.

23 - Charadeau، Patrick، le discours politique، les masques du pouvoir، ibid،p. 92 .

24 - Burger،Jacquin،Micheli، Marcel،Jérôme،Raphaêl، La parole politique en confrontation dans les médias ،Editions De Boeck Université، Paris ، 2011 .p

25 - الحداد، محمد، مغريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي، بيروت ، دار الطليعة،

2002 ، ص 24 و159 .

26 - Derville، Gregory ، Le pouvoir des médias Mythes et réalités، presses universitaires de Grenoble، Edition 1997، P.129.

27 - Groupe saint - cloud ، Presidentielle – Regards sur les discours télévisés ،ibid، P.209 .

28 - Muriel، Hanot، télevision réalite ou réalisme? introduction à l'analyse semio-progmatique des discours télévisuels . Médias recherches (méthodes) . De Boek and Larcier s.a. ، institut national de l'audiovisual ، 2002 premier édition . éditions De Boek université . Rue des Minimes 39، B- 1000 Bruxelles .p.138.

29 - مسلم، أنيس، وسائل الإعلام بين الرأي العام والإرادة الشعبية، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، من دون تاريخ، ص 311.

30 - فرنسيس، طوني، الإعلام اللبناني بين الخبر والرأي والخبرات المفقودة، الإعلاميون وأخلاقيات المهنة، عمل جماعي، ص 100-99.

31 - الخوري، نسيم، الإعلام العربي وانهيارالسلطات اللغوية، ص 111 و212 .

32 - كرم، كرم، الإعلام اللبناني وإشكالية تكوين رأي عام في مجتمع متنوع، ص 14 .

33 - العبد لله، مي، تحليل الرسالة الإعلامية في الإعلام المرئي والمسموع، ص 107 .

34 - Groupe saint - cloud ، Presidentielle – Regards sur les discours télévisés ، p. 206 .

35 - تويني، غسان، سر المهنة ... وأصولها، ص 41 .

36 - Charadeau، Patrick، le discours politique، les masques du pouvoir، ibid، p.223.

37 - حمدان، محمد، الأخبار في الفضائيات العربية تغطية الحدث أم رسائل سياسية أم إثارة، المركز اللبناني للدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2006 ، ص 79 .

38 - زين الدين، أحمد، الخطاب الإعلامي لوسائل الإعلام الجماهيرية، في مراجعة كتاب لـ باتريك شاردو، ص 518.

39 - مجلة «البيان»، تحقيق بعنوان «وضع الاعلام في لبنان»، العدد 277 ، تاريخ 5 كانون الثاني 2013 .

40 - مرصد، بيان بعنوان «وسائل الاعلام مسؤولة عن تداعيات الخطاب السياسي»، نشرة الاتحاد، العدد 15 16-، حزيران 2008،ص 28.

41 - مرصد بعنوان «دعوة وسائل الإعلام إلى وقفة ضمير وبعض صحفنا حرّك نار الحرب، « لبنان، تاريخ 11-4-2008 .

صعود المارد الصيني أم إنحداره من حافة القمة يفاقم وقوع الحرب

العميد م. ناجي ملاعب

ملخص

لـم يكد ينطـوي العام حتى لجـأت الصين، تجنباً لحـدوث كساد كبير جديـد، إلى ضخ أموال غير مغطاة على نطاق واسع، وتوسيع نطاق منح القروض سعياً لتحفيز الطلب. قرارات بكين جاءت ما بعد أزمة انزلاق شركة «إيفيرغراند "Evergrande" الصينية الأضخم فـي مجال التطوير العقـاري، والذي يمثّـل 30% من حجم الناتج المحلـي الإجمالي، نحو الإفلاسـ بخطى متسارعة، ما قد ينعكس على الاقتصــاد الصيني بأكمله، والذي كان يعتمد في نموّه طوال السنوات الأخيرة، على ضخ القروض.

خبـراء الإقتصــاد الذين يرصدون التباطـؤ والضعف في الإقتصــاد الصيني حذروا من نتائـج وخيمـة للإفلاس المحتمل للشركة العقارية العملاقة مـا قد يؤدي الى انهيار عدد من الشـركات الأخرى في هذا القطاع، ونشر الذعر فـي البورصات. كما يمكن التأثير سلباً على النظام المالي للبلاد على غرار ما حدث في انهيار «ليمان براذرز" - Lehman Brothers، في الولايات المتحدة الأمريكية، عام 2008. ويكمن الخطر في أن جزءاً كبيراً من الطبقة الوسطى الصينية يستثمر مدخراته في الأسهم، وسيؤدي انهيار سوق الأوراق المالية تلقائياً إلى أزمة اجتماعية وسياسية حادة.

ومـن المرجـح أن يتسبب ذلـك، نظراً لحجم الاقتصــاد الصيني، في حـدوث تسونامي بجميـع أسواق الأسهم العالمية، وإلى موجة من الذعر والإفلاس في معظم أنحاء العالم، لن يكـون أمام البنوك المركزية فـي العالم حينها سوى طباعة عشرات أو مئات التريليونات من الأمـوال الإضافية غير المغطاة لدعم الأسواق والبنـوك، الأمر الذي سيؤدي في النهاية إلى تضخـم عالمي مفرط. سيتفاقم الوضع بسبب الانهيار المالي في الصين «المصنع الرئيسي للعالـم»، والذي مـن المرجح أن يخفّض بشكل كبيـر من إنتاج وتصدير السلـع إلى الأسواق العالمية[1].

هذا المستجد في تباطؤ صعود المارد الصيني الى القمة وبدء انحدار متوقع، وما رافقه مـن عيون مفتحـة من الغرب والشرق، هل عليه أن يرضي الجبـار الأول الحالي المتربع على القمـة، أو أن علـى اميـركا وحلفائها ان تخشى ذلـك، وبصيغة أخرى هل علـى واشنطن أن تتحسـب لمنع حلول الصين مكانها فـي القمة، أم أن التباطؤ والخـط الإنحداري للإقتصاد الصيني سيمثل حافزا لبكين للجوء الى القوة العسكرية؟

سنحاول في هذا البحث، بعد شرح معايير تبوء سدة المراتب العالمية او ما اصطلح على تسميتـه «تحوّل القوة»، وتوثيق مكامن القوة والريادة للمارد الصيني، وتبيان خطوط التباطؤ وصعوبة الإصلاح، والخطط الأميركية بتطويق القوة الصاعدة، الإجابة على تساؤل مقلق هل أن استعمال القوة من احد الجبارين مسألة وقت.

مقدمة - مفهوم تحول القوة

يشير مفهوم "تحول القوة" إلى فقدان دولة مهيمنة لموقعها القيادي في النظام الدولي لصالح قادم آخر تتنامى قوته بشكل متسارع. وبالتالي يسعى هذا القادم للوصول إلى موقع الهيمنة. فمن أجل حدوث تحول للقوة، يجب على الدولة الصاعدة أن تمتلك مقومات للقوة تفوق تلك التي تمتلكها الدولة المهيمنة، أو على الأقل تعادلها، وبالتالي على الدولة الصاعدة العمل على تضييق الفجوة بين مقدراتها القومية، ومقدرات الدولة المهيمنة. وعندما يكون الأمر مصحوبًا بعدم رضا شديد عن الوضع الدولي القائم بالنسبة للدولة الصاعدة، فإنه من المتوقع نشوب الحروب.

المؤشرات التقليدية لمفهوم تحول القوة حصرها "ديفيد سنجر" في ستة مؤشرات: عدد السكان الكلي، عدد سكان الحضر، الأفراد العاملين بالقوات المسلحة، مقدار الإنفاق العسكري، صناعات الحديد والصلب، ومعدل استهلاك الطاقة. وقام Charles Doran بتتبع صعود وهبوط المقدرات القومية للدول.

وأكد Organski وKugler أن الدولة الصاعدة - أطلقوا عليها تعبير «المتحدي الصاعد" rising challenger- تسلك سلوكًا تصادميًا مع القوة العظمى، للوصول إلى موقع الصدارة في النظام العالمي، ولهذا، تندلع الحروب بين القوة الصاعدة وتلك المسيطرة على الوضع القائم. ويضيف Organski أن احتمالات الصراع بين دولتين تزداد حينما يبدأ ميزان المقدرات بينهما في التغير، بحيث يصبح لإحدى الدولتين ميزة نسبية على الدولة الأخرى، وتكون تلك الدولة ذات الميزة غير راضية عن النظام الدولي القائم[2].

ان مسالة تعادل القوة بين القوى الكبرى أمر له خطورته، لأن الفرص المتكافأة في تحقيق انتصار عند نشوب الحرب ربما يشكل حافزا كافيا لقادة الدول لقبول مخاطرة اقحام دولهم في حرب. ولكن مع ازدياد قوة الدولة المتحدية فان ذلك يخلق موقفا غالبا الى نشوب حرب. فالحرب تندلع عندما يصبح توزيع القوة بين الدولة المهيمنة وتلك المتحدية متعادلا بشكل تقريبي وتكون احتمالية اندلاع حرب كبرى عالية عند النقطة التي تتخطي فيها الدولة المتحدية نظيرتها المهيمنة.

فنشوب الحروب الكونية يمهد لنظام عالمي جديد - وفق ما اشار الباحث الأميركي (Thompson، modleski) بقوله ان النظام العالمي منتظم في هياكل محددة حيث تكون مقاليد الامور في يد دولة واحدة مهيمنة، ويعتبر المؤشر الاساسي في عملية تحول القوة وتدشين نظام عالمي جديد هو (نشوب الحروب غير القابلة للمنع). فالحروب الكونية تعد مؤشرات لتولي قيادة عالمية جديدة لشؤون العالم وبالتالي فان تفوقها العسكري يمنحها القدرة

علــى تقديم السلع العامة كالأمن العسكــري ووضع قواعد للعلاقات الاقتصادية الدولية. والاكثر من هذا ان اساءة تقدير دولة او اكثر لقوتها النسبية بالمقارنة بقوة خصومها تكون اكبر ما تكون عندما تتساوى او تتعادل قوة كل طرف من الاطراف.[3]

نظريــة أخــرى تقول أنه في توازن أو تعادل القوة ليس من المحتم قيام الحروب الكونية، لأن وجــود الدول والتحالفات في حالة تــكاد تتعادل فيها قوتها العسكرية أمر من شأنه أن يحول دون نشوب النزاع المسلح، وعليه فإن بعضاً من الدول تسعى إلى الحفاظ على التوازن العسكري فيما بينها. ويعتبر سعي إحدى الدول لزيادة قدرتهاالعسكرية بالصورة التي تخل بتوازن القوى علمياً أمــراً يدعو للاضطراب ويولّد سعياً من قبل الدول الأخرى لتعزيز توازن القوى بمعاهدات تلتزم فيها الدول الأطراف بالحفاظ على قوتها العسكرية ضمن حدود مقبولة من الدول الأخرى. وفي معاهدات السلام التي تبرم بين الدول بعد إنقضاء الحروب يتم في العادة التطرق لتوازن القوى والإشارة إلى الترتيبات التي من شأنها أن تحافظ عليه وتحول دون الإخلال به.

أولاً – الريادة العالمية وصعود المارد الصيني

تمثـل السياســة الخارجيــة للصين مجــالاً حيويــاً ورئيسياً لتعزيــز الصعــود الصيني على الصعيديــن الاقليمــي والعالمي. وقد استفادت بكين من التطــورات الدولية التي لحقت بالنظام الدولــي خــلال العقدين الماضيين، ســواء على صعيد تغييــر شكل النظام العالمــي ودور القوى الكبرى الموجودة حاليا فيه، أو من حيث تجذر مظاهر العولمة والانفتاح الاقتصادي والسياسي بيــن العديــد من دول العالم، وذلك من اجــل زيادة حجم ونوعية مقدرات القــوة لديها ومحاولة اكتســاب المزيد من خلال التفاعلات القائمة على مختلف الاصعدة السياسية والاقتصادية بين العديد من البلدان.

1 – مؤشرات القوة الصلبة الصينية:

تقــوم ركائز الثقافة الصينية بالدور الرئيس في بناء الدولة على كافة المستويات السياسية والاقتصاديــة والعسكريــة والاجتماعية. فــي البداية، كانت افــكار كونفشيوس التــي تدعو الى اقامــة حكومة فاضلــة يكون الحاكم فيها فيهــا حاكما مطاعا ذا واجبــات ومسؤليات والمحكوم فيهــا محكومــا مطيعا ذا حقــوق واجبة القضــاء، وساعد على ذلــك الطبيعــة المسالمة للشعب الصينــي. فقد انتقلـت الصين بعد ذلك الى تبنــي الايدولوجية الاشتراكية بعــد تأثر الصينين بكبار الماركسيين وتحركوا نحو الاشتراكية ومبادئها.

ومنذ منتصف ثمانينات القرن الماضي، تحديدا في الدورة الثالثة للجنة المركزية الحادية

عشـر للحـزب الشيوعي فـي كانون الأول 1978 والتـي شهدت غلبة التيـار الاصلاحي وبداية عصر الانفتاح عن طريق الصفوة الحاكمة في حقبة ما بعد ماوتسي تونغ، استقرت الصين على تبنـي ايدولوجية «النفعيـة البرجماتية» القائمة على المصالح والتي دشـن ركائزها الليبراليون الجـدد، بدءا من الزعيم الصينـي دينغ سياوبينـغ (Deng Xiaoping) وحتى الرئيس الحالي هيو جينتاو (Hu Jintao) وهما اللذان تأثرا بنمط الحياه الغربية.

ويؤكـد بعض الباحثين إلـى أن الصين لم تتجه لتبني النهـج البرجماتي والاصلاح الثقافي لأنها ترفض الاشتراكية بصفة عامة لكنها اتجهت الى الاصلاح لإعادة تصحيح المنهج الخاص بالتطبيـق الاشتراكي بهدف تحقيـق التحديث، ولكن وفقا للخصوصيـة الثقافية الصينية. وقد تجلـي ذلـك في اعتماد الصين على اسلوب الرجوع لاراء الخبـراء الفنية والمهنية من دون اخذ الاعتبـارات الايدولوجية ولاعداد دراسات الجـدوى الاقتصادية المزمع اقامتها واعطاء القطاع الخاص دورا مكملا في الحياه الاقتصادية.

للمفارقة، فـإن التطور الاقتصادي الهائل للصين خلال العقود الثلاثة الماضية تم بمباركة أمريكيـة. لقد أيد الأمريكيـون انضمام الصين إلى منظمة التجـارة العالمية في عام 2001، واستضافـت جامعاتهم العديد من الباحثين الصينيين. كما وضعت الشركات الأمريكية الصين فـي قلـب سلاسل انتاج الاقتصاد العالمي. وكانت واشنطن تراهـن في ذلك على تقارب وتكامل النموذجيـن الاقتصادييـن، إلا أن ذلـك لم يتحقق بالشكل الذي كانت ترجـوه. كل هذا أدى إلى تحـول استراتيجي في التصـور الأمريكي، ظهر من خلال تراكم العقوبـات التجارية والعقوبات المضـادة فـي حـرب بدأت في كانـون الثانـي 2018. تأثيرات هـذه الحرب هائلـة، ففي عام 2019، تراجعـت الصيـن من أول إلـى ثالث أكبر مورد للولايات المتحـدة بينما انخفضت الصادرات الأمريكية إلى الصين[4].

2 - خطة الريادة الصينية... اقتصاد الذكاء الاصطناعي

«... يرجّح أن تكون المُنافَسة على التفوُّق فى مضمار الذكاء الاصطناعي على مستوى الدول، سببـا فـى اندلاع حرب عالمية ثالثة، فـي رأيي». جاءت هذه الكلمات في تغريـدة لرائد الأعمال الأمريكي الشهير، إيلون ماسك، الذى أَسَس ويُدير عددا من الشركات التقنية المُهمة، بل وأكثر من ذلك، قام هو و115 شخصا آخر، من كِبار قادة الذكاء الاصطناعي في 26 دولة مُختلفة، بتوقيـع مذكرة إلى الأُمم المتحدة لحظْر تصنيـع الأسلحة الفتاكة الإلكترونية، والمعروفة باسم «الروبوتـات القاتِلة»، قبيل انعقاد المؤتمر الدولي المُشتـرَك للذكاء الاصطناعي، وبالتزامن مع بداية المُحادثات الرسمية من قبل الأمم المتحدة لدراسة هذا الحظر.

يبـدو أن الأفـكار القائلة إن اقتصاد الـذكاء الاصطناعي هو المستقبـل، وإن كل مَن يُصبِح زعيمـا فى هـذا المجال، سـوف يَحكم العالَم، قـد سيطرت علـى التفكيـر الاستراتيجي لقادة المُجتمع الصينى، الذين بدأوا بالفعل فى إعطاء الأولوية لأبحاث الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته على أعلى المستويات.

فـي هذا المضمار تم فـى آذار 2017، إدراج الذكاء الاصطناعي للمـرة الأولى في تقرير عمـل الحكومة الصينيـة، وبناءاً عليه أصـدرت بكين خطتها لتطوير الجيـل الجديد من الذكاء الاصطناعـي، بوضْعهـا جدول أعمـالٍ طموح للغايـة ومكونا من ثـلاث مراحل زمنيـة مخُتلفة، تستهـدف نمو قيمة صناعات الذكاء الصناعي في البلاد إلى ما يتجاوز 150 مليار يوان صيني بحلـول 2020، وإلى ما يتجاوز 400 مليار يوان صينـي بحلول 2025، وإلى 1 تريليون يوان صيني بحلول العام 2030. [5].

وبجانـب التخطيط والدعـم الحكومي الملموس لتطويـر قطاع الـذكاء الاصطناعي، يتوقَع بعضـ الخبراء دورا متزايدا لشركات القطاع الخاص الصينية العملاقة، مثل علي بابا، وبايدو، وتنسنـت، لتحقيـق اختراقات كبرى في تكنولوجيـات الذكاء الاصطناعي علـى المدى القريب، ولاسيما بعد أن أصبحت هذه الشركات منافسا قويا لمعظم الشركات الأمريكية العاملة في هذا المجال.

إن نهوض الصين ليس سرابًا: عقودٌ من النمو أعطت بكين القوة الاقتصادية للقوة العالمية. أدت الاستثمـارات الكبيـرة في التقنيات الرئيسيـة والبنية التحتية للاتصـالات إلى مكانة قوية فـي الصراع من أجل التأثير الجغرافي الاقتصادي؛ تستخـدم الصين مبادرة الحزام والطريق متعـددة القارات لجلب دول أخرى إلى فلكها. تشير التقييمـات الأكثر إثارة للقلق وتقارير وزارة الدفاع الأمريكية إلى أن جيش الصين الهائل على نحو متزايد لديه الآن فرصة حقيقية للفوز في حرب ضد الولايات المتحدة في غرب المحيط الهادئ.

لذلـك، ليس مـن المستغرب أن تكـون الصين قد طـورت أيضًا طموحات قـوة عظمى: لقد أعلـن شـي، إلى حد مـا، أن بكين ترغب في تأكيـد سيادتها على تايوان وبحـر الصين الجنوبي وغيرهـا من المناطق المتنازع عليها، لتصبح القـوة البارزة في آسيا وتتحدى الولايات المتحدة من أجل القيادة العالمية. ومع ذلك، إذا كانت نافذة الفرص الجيوسياسية للصين حقيقية، فإن مستقبلها قد بدأ بالفعل يبدو قاتمًا للغاية لأنها تفقد بسرعة المزايا التي دفعت نموها السريع[6].

3 - بناء القدرات العسكرية:

حرصـت الصيـن علـى استخدام نـاتـج الانطلاقـة الاقتصادية فـي دعم وتحويـل المجال

العسكـري، وبناء ترسانة عسكريـة قوية تضمن للصين مكانتها كقوة عظمى. ولقد وصل الانفاق العسكـري في الصين بمعدله الحالي الى 4% من اجمالـي الناتج القومي، وتجدر الاشارة الى ان الميزانيـة الرسمية المعلنـة الخاصة بالتسلح في الصين لا تعكـس واقعها الحقيقي، حيث لا تتضمـن الامدادات العسكرية، كمـا تغفل المبالغ المخصصة للابحـاث العسكرية، وهذا يمكن ارجاعـه الـى رغبة الصين في تدعيـم قدراتها العسكرية بهدف تاكيـد نفوذها خارج حدودها، حيـث بادرت بالفعل الى اتخاذ بغض المواقف العدوانية بشان عدد مـن القضايا الحدودية مع جيرانها.

ويتخـوف الكثيرون من تنامي القوة العسكرية الصينية لما يمكن ان يتسبب فيه اذكاء حدة الصـراع فـي المنطقة. الا انه تجدر الاشارة الـى صعوبة تخلي اي حكومـة صينية عن مطالبها الاقليميـة في تايـوان وبحر الصين الجنوبي، او هونج كونج باعتباره مطلب قومي يصعب التخلي عنه. هذا بالاضافة الي العلاقات التي تربط كلا من الصين بهذه المناطق قبل ان تفقدها خلال نصف قرن مضى.

وتسعـى الصين الى ملء الفراغ القائم فـي المحيط الهادي مع رغبتها في توسع مصالحها فـي المنطقة. وهنا تجدر الاشارة الى ان معانـاة الصين لفترة طويلة من الاحساس بعدم الأمن كان وراء سعيها لارساء دعائم اسطول قوي وان لجأت الحكومة الصينية الى تقليل حجم الجيش بحوالـي 3 مليون شخص بهدف زيادة فاعلية الانفاق العسكري وتوجيهه نحو التدريب. وبالرغم من تناقص عديد الجيش الصيني، إلا انه ظل عشرة اضعاف مثليه في اليابان.

تحديث القوة العسكرية المسلحة مر ذلك بثلاث مراحل من عام 1992 حتى عام 2001. امـا المرحلة الحالية فتشهد ثمار اسس التحديث في بعض المجالات النوعية مثل بناء القدرات على رد الفعل والمساندة البحرية والجوية للصواريخ الباليستية وغزو الفضاء وعمليات الاتصال ونظـم الاوامـر والتعليمات. وتستند عمليـة رفع القـدرات العسكرية للصين علـى مجموعة من الاسس، الامر الذي ادى الى تكوين ما يقرب من 30 مليون فني متخصص في عقد التسعينات.[7]

ثانياً - مكامن الضعف وصعوبات الإصلاح

فـي بحث كتبه هال برانـدز، ومايكل بيكلي ونشره موقع «ذي نيويوركـر» يقول الباحثان: من السبعينيـات إلى العقد الأول من القرن الحادي والعشريـن، كانت الصين شبه مكتفية ذاتيًا في الغـذاء والمـاء وموارد الطاقة. لقد تمتعـت بأكبر عائد ديموغرافي فـي التاريخ، مع 10 بالغين في سن العمل لكل مواطن كبير يبلغ من العمر 65 عامًا أو أكبر. (بالنسبة لمعظم الاقتصادات الكبـرى، يكون المتوسط أقرب إلى 5 أشخاص بالغيـن في سن العمل لكل مواطن كبير السن).

تتمتــع الصين ببيئة جيوسياسية آمنة وسهولــة الوصول إلى الأسواق والتكنولوجيا الأجنبية، وكل ذلــك مدعوم بعلاقــات ودية مع الولايات المتحــدة. واستفادت حكومة الصيــن بمهارة من هذه المزايا من خلال تنفيذ عملية الإصلاح الاقتصادي والانفتاح مع نقل النظام أيضًا من الشمولية الخانقة تحت حكم الزعيم الصيني السابق ماو تسي تونغ إلى شكل أكثر ذكاءً – وإن كان لا يزال قمعيًا للغاية – من الاستبداد في ظل حكم خلفائه. امتلكت الصين كل شيء من السبعينيات إلى أوائــل العقــد الأول من القرن الحادي والعشريــن – فقط مزيج من الهبــات والبيئة والأشخاص والسياسات اللازمة لتزدهر.

ويضيف الباحثان «.. لكن منذ أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، توقفت دوافع صعود الصين أو استدارت بالكامل. على سبيل المثال، الصين تنفد من الموارد: أصبحت المياه نــادرة، وتستــورد البلاد طاقة وغذاء أكثر من أي دولة أخــرى، بعد أن دمرت مواردها الطبيعية. وبالتالي، أصبح النمو الاقتصادي أكثر تكلفة: وفقًا لبيانات من بنك DBS ، يتطلب إنتاج وحدة نمو اليوم ثلاثة أضعاف ما كان عليه في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وتقترب الصيــن أيضًا مــن الهاوية الديموغرافية: مــن 2020 إلى 2050، ستفقــد 200 مليون من البالغيــن في سن العمل – عدد سـكان بحجم نيجيريا – وستكتسب 200 مليون من كبار السن. ستكــون العواقب المالية والاقتصادية مدمرة: تشير التوقعات الحالية إلى أن إنفاق الصين على الضمان الطبي والاجتماعي يجب أن يتضاعف ثلاث مرات كحصة من الناتج المحلي الإجمالي، مــن 10 فــي المائة إلى 30 في المائــة، بحلول عام 2050 فقط لمنــع ملايين كبار السن من الموت بسبب الفقر والإهمال»[8].

1 - أطول تباطؤ منذ نهاية عصر ماو

تواجــه الصيــن حالياً نزعتيــن: ركود النمــو، والتطويــق الاستراتيجي، وهُمــا يكتبان نهاية صعودها.

فبسبــب مشـكلات الاقتصاد الصيني المتراكمة، دخل مؤخراً أطـول تباطؤ شهده عصر ما بعــد مــاو، إذ انخفض معدل نمو الناتج المحلي الإجمالــي الرسمي من 15% عام 2007 إلى 6% عــام 2019، ثــمّ جــاءت الجائحــة لتهبط بالنمــو إلى ما يزيد بقليــل على 2% عام 2020. أمــا الإنتاجيــة، المُكوّن الأساســي لصناعة الثروة، فانخفضــت بنسبة 10% بين عامَي 2010-2019، وهو أسِــوأ هبوط للإنتاجية تشهده قوة عظمى منذ الاتحاد السوفييتي في الثمانينيات.

فمشكلــة تباطــؤ معدل نمــو الاقتصاد الصينــي، التي تفاقمــت بسبب أزمة الديــون بقطاع

العقـارات، ونقص الطاقة الذي يتسبـب في إغلاق المصانع، تجعل انتعاشـ الاقتصاد العالمي معتمداً أكثر على الولايات المتحدة، وفقاً لتقرير بلومبيرغ الشرق .

وحسب البيانات التي أعلنتها الحكومة الصينية مؤخراً، فلقد ارتفع الناتج المحلي الإجمالي الصينـي بنسبة 4.9% خـلال الربع الثالث من العام الحالي، مقارنـة بالفترة ذاتها من العام الماضـي، وهو مستوى يقـل كثيراً عن توقعات الاقتصاديين، وينخفض كذلك بنسبة كبيرة عن معـدل 7.9% الـذي سجله النمـو الاقتصادي خلال الفتـرة من شهر أبريل/نيسـان إلى شهر يونيو/حزيـران. وقد انخفض معدل النمو بمقدار نقطة مئوية كاملة تقريباً عمّا كان عليه خلال الربع الأخير من عام 2019، عشية اندلاع جائحة كورونا[9].

2 - محاباة الشركات الحكومية على حساب القطاع الخاص الذي صنع المعجزة الصينية رغم أن الشركات الخاصة تُولِّد معظم الثروة في البلاد، فإنها حُرِمَت من رأس المال تحت حكم الرئيس "شي جينبينغ".

عوضـاً عن ذلـك، تحصل الشركات المملوكـة للدولة والأقل كفاءة علـى 80% من الدعم والقروض الحكومية. لقد قاد الروّاد المحليون وشركاتهم طفرة الصين الاقتصادية، لكن حملة مكافحـة الفساد التي قادها "شي" نفّرتهم من الانخراط فـي تجريب المشروعات من جديد. ولقـد حظرت الحكومـة فعلياً نشر أخبار اقتصادية سلبية، وهو أمـر استحالت معه الإصلاحات الحيوية تقريباً، في حين انسحق الابتكار بفعل موجة من القوانين ذات الدوافع السياسية.

بالتزامـن مع تحوُّل الصين إلى دولة أكثر حزماً وسلطوية، بات العالم هو الآخر أقل ملاءمة للنمو الصيني، إذ واجهت بكين آلاف العوائق التجارية منذ الأزمة المالية العالمية عام 2008. عـلاوة على ذلك، تعزل اقتصـادات العالم الكبرى اليوم شبكاتها التجارية عن التأثير الصيني، حيـث تسعـى أستراليا والهند واليابان وغيرهـا إلى إبعاد الصين عن سلاسـل الإمداد الخاصة بهم.

ورغم الانجازات التي تحققت، إلا ان هناك تحديات ومصاعب كبيرة تواجه القيادة الصينية الجديدة وينبغي التعامل معها بجدية وايجاد حلول جذرية لها، ومنها :

أ - مشكلة الريف الصيني:

الدخـل لدى الفلاحين وبعض السكان في المـدن والقرى يزداد على نحـو بطيء. فالريف الصينـي يواجه اليوم ازمة حقيقية، فحجم الاموال المتبقية للفلاحين بعد ان يدفعوا الضرائب والرسـوم المحلية لا تكفي لشراء البـذور والاسمدة لموسم الزراعة القادم حيث تضاءلت دخول الفلاحيـن والمزارعين، ولكن ارتفعت تكاليف الانتـاج كما ان البنية التحتية في الريف في حالة

لا يرثى لها فيما تنعدم الرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية واذا كان 85% في الريف يدخلون المدارس فان نفس النسبة تترك المدرسة ويضاعف من حجم مشكلة الريف اعتماد الدولة بشكل كبير عليه، فالفلاحون الصينيون يقدمون ضرائب تعادل تقريبا ثلاثة اضعاف ما يقدمه الافراد في المدن، في المقابل فان حجم الاموال التي تخصصها الحكومة المركزية للصين للريف لا تصل اليه بالشكل الامثل نتيجة لسوء الادارة وفساد كثير من القيادات وتزداد الازمة حدة في الريف خاصة اذا عرفنا ان الصين بها اكثر من 900 مليون فلاح ويزداد هذا العدد سنويا بنحو 11 مليون.

ب - البطالة

وقد سجلت معدلات البطالة ارتفاعا كبيرا وصل ال 15% في المتوسط ببعض مناطق البلاد ويعني ذلك وجود 150 مليون عاطل عن العمل. وارتبطت البطالة بعملية الاصلاح الاقتصادي الذي ترتب عليه اغلاق المصانع الخاسرة. وقد تم تخفيض عدد العاملين في القطاع العام بنسبة 30% اي ما يعادل 24 مليون عامل.

ج - قضية تايوان:

تحدي استكمال الوحدة الوطنية، فتايوان شكلت الجرح الاكبر في حياة الصينيين شعبا وحكومة. ورغم تطبيع العلاقات بين الصين وامريكا الا ان الموقف الامريكي المؤيد لتايوان ظل كما هو، حيث استخدمت واشنطن هذه القضية ورقة للضغط بها علي الحكومة الصينية وقتما تريد. ولذا فانها تريد فصل تايوان عن الصين، بل وتشجع قادتها علنا علي التمرد. كما ان القيادة الصينية ظلت دائما ترفع شعار دولة واحدة ونظامان اي عودة تايوان الى الوطن الأم، مع الاحتفاظ بنظامها الداخلي كما هو، كما حدث في حالة هونج كونج .

ثالثاً - "نظرية انتقال القوة" وحتمية اللجوء الى الحرب

بمجرد الإعلان عن تفاصيل الخطة الصينية لريادة الجيل الجديد من الذكاء الاصطناعي، انتشرت حالة من القلق والخوف بين عدد ليس بالقليل من الأكاديميين وصناع القرار وقادة الأعمال في الولايات المتحدة الأمريكية. ففي 28 نوفمبر 2017، حذّر تقريرٌ بحثي صادرٌ عن مركز الأمن الأمريكي الجديد، إحدى الأذرع البحثية للاستخبارات الأمريكية، من أن تكنولوجيا الذكاء الصناعي الصينية، وتطويرها قد يشكلان تهديدا للتوازن الاقتصادي والعسكري للقوى العالمية.

وقد أكَد هذا التقرير البحثي، أن الصين لم تعُد في مركز أقل من الناحية التكنولوجية بالنسبة إلى الولايات المتحدة، بل أصبحت تنافس بحق، ولديها القدرة على التفوق بالفعل فى مجال الذكاء الصناعي، خصوصا في ظل تزايد استثمارات الجيش الصيني، وتعاون معاهد بحثية تابعة له مع قطاع الصناعات الدفاعية الصينية، فضلا عن إمكانية استفادة الجيش الصيني من تكنولوجيا الذكاء الصناعي بطرق فريدة وربما غير متوقَعة، قد تكون أقل تقييدا على الأرجح، مقارنة ببعض المخاوف القانونية والأخلاقية في الداخل الأمريكي[10].

والحقيقة أن هناك عوامل عدة قد تعزز فرص الصين في النجاح؛ فالدولة التي تمتلك أكبر مجتمع من المستهلكين على الإنترنت، ولديها بصمات اقتصادية واضحة باعتبارها ثاني أكبر اقتصاد في العالم، فضلا عن علماء وباحثين على درجة عالية من الابتكار في معظم أبعاد الثورة الصناعية الرابعة، وخدمات عسكرية واستخباراتية ذكية ومتزايِدة القدرة، وسياسة خارجية متطوّرة تسعى إلى الاستفادة القصوى من توظيف تكنولوجيات المعلومات والاتصالات، من المرجّح أن تكون قادرة على تنفيذ غاياتها الاستراتيجية وخططها السيبرانية الطامحة إلى الريادة العالمية.

1 - من للحرب أولاً: القوة الصاعدة أم القوة المهيمنة

مع تصاعد التوترات بين الولايات المتحدة والصين، أصبح الاعتقاد بأن السبب الأساسي للاحتكاك هو «انتقال القوة» الذي يلوح في الأفق - استبدال قوة مهيمنة بأخرى - أصبح اعتقادًا أساسيًا.

كتب المؤرخ القديم ثوسيديديس: «إن نمو قوة أثينا، والإنذار الذي ألهمه هذا في سبارتا، جعل الحرب أمرًا لا مفر منه» - وهي حقيقة بديهية الآن، حتى الغثيان، في شرح التنافس بين الولايات المتحدة والصين.

فكرة مصيدة ثيوسيديدس Thucydides Trap، التي روّج لها عالم السياسة في جامعة هارفارد، جراهام أليسون، ترى أن خطر الحرب سوف يرتفع بشكل صاروخي عندما تتفوق الصين الصاعدة على أمريكا المترهلة. حتى الرئيس الصيني شي جين بينغ أيّد المفهوم الذي يجادل بأنه يجب على واشنطن إفساح المجال لبكين.

يتوقع الباحثان هال براندز، ومايكل بيكلي أنه: «هناك بالفعل فخ مميت يمكن أن يوقع الولايات المتحدة والصين في شرك. لكنها ليست نتاج انتقال السلطة، من الأفضل التفكير بدلاً من ذلك على أنه «ذروة فخ القوة». وإذا كان التاريخ هو أي دليل، فإن الانحدار الوشيك للصين - وليس الولايات المتحدة - هو الذي قد يتسبب في إغلاقها بشكل مفاجئ.

ويضيفان: هناك مجموعة كاملة من الأدبيات، تُعرف باسم «نظرية انتقال القوة»، والتي تنص على أن حـرب القوى العظمى تحدث عادةً عند تقاطع صعود إحدى القوى المهيمنة وتراجع أخرى. وهناك، باعتراف الجميع، حقيقة أساسية للفكرة. لن يكون هناك تنافس بين واشنطن وبكين إذا كانت الصين لا تزال فقيرة وضعيفة. تعمل القوى الصاعدة على توسيع نفوذها بطرق تهدد القوى الحاكمة[11].

إن الدولـة التـي تتنامـى ثروتها النسبيـة وقوتها النسبية ستصبـح بالتأكيد أكثر حزمـاً وطموحاً، وستسعـى إلى مزيد من النفوذ والمكانة العالمية. ولكـن إذا كان موقفها يتحسن باطراد، فيجب عليها تأجيـل المواجهـة المميتة مع القـوة المهيمنة حتى تصبح أقـوى. يجب أن تتبع مثل هــذه الدولة القول المأثور الذي وضعه الزعيم الصيني السابق دنغ شياو بينغ للصين الصاعدة بعد الحرب الباردة: يجب أن تخفي قدراتها وتتحكم في وقتها.

2 - أخطار الصعود الطويل الذي يتبعه احتمال حدوث تراجع حاد

علـى مدار الــ 150 عامًا الماضية، فإن القـوى العظمـى - القوى العظمى التـي كانت تنمو بشكل أسـرع مـن المتوسط العالمي ثم عانت من تباطؤ شديد وطويل الأمد - لا تتلاشى عادة بهدوء. بدلا من ذلـك، يصبحون متهورين وعدوانييــن. إنهم يقمعون المعارضة في الداخـل ويحاولون استعادة الزخم الاقتصـادي من خـلال خلق مناطق نفـوذ حصرية فـي الخارج. إنهـم يصبون الأموال فـي جيوشهم ويستخدمـون القوة لتوسيـع نفوذهم. عادة ما يثير هذا السلوك توترات بيـن القوى العظمى. في بعض الحالات، تمس الحروب الكارثية.

لا ينبغـي أن يكون هذا مفاجئًا. إن عصور النمو السريـع تحفز طموحات الدولة وتزيد من توقعات شعبهـا وتجعل منافسيها متوترين. خلال فترة الازدهار الاقتصـادي المستمر، تتمتع الشركات بأرباح متزايـدة واعتاد المواطنون على العيش بشكل كبير. تصبح البلاد لاعباً أكبر على المسرح العالمي. ثم يضرب الركود.

إن تباطـؤ النمو يجعل مـن الصعب على القادة إسعاد الجمهور. ضعـف الأداء الاقتصادي يضعف البلاد أمام منافسيها. خوفا من الاضطرابات، يقوم القادة بقمع المعارضة. إنهم يناورون بشكل يائس لإبقاء الأعداء الجيوسياسيين في مأزق. يبدو التوسع كحل - طريقة للاستيلاء على الموارد الاقتصادية والأسواق، وجعل القومية ركيزة لنظام جريح، ودحر التهديدات الخارجية.

وقـد اتبعت العديد من الدول هذا المســار. عندما انتهت الطفرة الاقتصادية الطويلة في الولايات المتحـدة بعـد الحرب الأهلية، قمعت واشنطـن بعنف الإضرابات والاضطرابات فـي الداخل، وأنشأت بحريـة قوية من المياه الزرقاء، وانخرطت في نوبة من العـداء والتوسع الإمبراطوري خلال تسعينيات القرن التاسع عشر.

3 - الإمبراطورية الألمانية مثال في الكتب المدرسية

غالبًا ما يُنظر إلى التنافس بين ألمانيا وبريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على التنافس بين الولايات المتحدة والصين: في كلتا الحالتين، هدد منافس استبدادي هيمنة ليبرالية. لكن أكثر تشابهًا واقعيًا هو هذا: جاءت الحرب عندما استوعبت ألمانيا المحاصرة أنها لن تتخطى منافسيها دون قتال.

على مدى عقود بعد التوحيد في عام 1871، ارتفعت ألمانيا. كانت مصانعها تنفث الحديد والصلب، مما يمحو الريادة الاقتصادية لبريطانيا. قامت برلين ببناء أفضل الجيوش والبوارج في أوروبا التي هددت التفوق البريطاني في البحر. بحلول أوائل القرن العشرين، كانت ألمانيا ذات وزن ثقيل في أوروبا وتسعى إلى مجال نفوذ هائل - Mitteleuropa أو Middle Europe - في القارة. كما كانت تنتهج، في عهد القيصر فيلهلم الثاني آنذاك، «سياسة عالمية» تهدف إلى تأمين المستعمرات والقوة العالمية.

لكن خلال مقدمة الحرب، لم يشعر القيصر ومساعدوه بالثقة. تسبب السلوك المتهور لألمانيا في تطويقها من قبل قوى معادية. شكلت لندن وباريس وسانت بطرسبرغ بروسيا «الوفاق الثلاثي» لمنع التوسع الألماني. بحلول عام 1914، كان الوقت ينفد. كانت ألمانيا تخسر قوتها الاقتصادية لصالح روسيا سريعة النمو؛ كانت لندن وفرنسا تتابعان الاحتواء الاقتصادي من خلال منع وصولها إلى النفط وخام الحديد. تمزق حليف برلين الرئيسي، النمسا-المجر، بسبب التوترات العرقية. في الداخل، كان النظام السياسي الألماني الاستبدادي في مأزق.

وأكثر ما ينذر بالسوء أن الميزان العسكري كان يتغير. كانت فرنسا توسع جيشها. كانت روسيا تضيف 470.000 رجل إلى جيشها وتختصر الوقت الذي تحتاجه للتعبئة للحرب. أعلنت بريطانيا أنها ستبني سفينتين حربيتين مقابل كل واحدة بنتها برلين. كانت ألمانيا، في الوقت الحالي، القوة العسكرية الأولى في أوروبا. ولكن بحلول عام 1916 و 1917، سيكون هناك مبالغة ميؤوس منها. كانت النتيجة عقلية الآن أو لا أبدًا: يجب على ألمانيا «هزيمة العدو بينما لا تزال لدينا فرصة للنصر»، كما أعلن رئيس الأركان هيلموث فون مولتك، حتى لو كان ذلك يعني «إثارة حرب في المستقبل القريب".

هذا ما حدث بعد أن اغتال القوميون الصرب ولي العهد النمساوي في يونيو 1914. حثت حكومة القيصر النمسا-المجر على سحق صربيا، رغم أن ذلك كان يعني الحرب مع روسيا وفرنسا. ثم غزت بلجيكا المحايدة - المفتاح لخطة شليفن لحرب على جبهتين - على الرغم من احتمال استفزاز بريطانيا. واعترف مولتك بأن «هذه الحرب ستتحول إلى حرب عالمية ستتدخل فيها إنجلترا أيضًا». لقد منحها صعود ألمانيا القوة للمراهنة على العظمة. لقد أدى

تراجعها الوشيك إلى اتخاذ القرارات التي أغرقت العالم في الحرب.

رابعاً - التطويق الاستراتيجي الأمريكي ورد الفعل الصيني

لطالما تجنّبت الصين أثناء صعودها طيلة 40 عاماً تقريباً، تطويقها استراتيجياً عن طريق التقليل من شأن طموحاتها العالمية، والحفاظ على علاقات ودية مع الولايات المتحدة. لكن هذه المرحلة انتهت منذ أن أصبحت بكين أكثر عدوانية في بحر الصين الجنوبي ومضيق تايوان أو أصبح العداء للصين محور السياسة الأمريكية.

فعلى مدار السنوات الخمس الماضية، تخلّت الولايات المتحدة عن التفاعل البنّاء وانتهجت سياسة احتواء جديدة. فقد أجرت واشنطن توسعة بحرية وصاروخية هي الأكبر في 30 عاماً، وفرضت رسوماً جمركية هي الأعنف منذ الحرب العالمية الثانية، وطبّقت أشد قيود عرفتها منذ الحرب الباردة على الاستثمار الأجنبي، وجميعها إجراءات موجّهة ضد بكين. واشتكى نائب وزير الخارجية الصيني هذا العام من "حملة حكومية وشعبية، هدفها تركيع بلاده".

يصُب تحوُّل الموقف الأمريكي تجاه الصين لصالح كفة رد الفعل المتنامي على نطاق أوسع ضد قوة بكين من الدول الآسيوية والغربية، بالتأكيد يظل التعاون المناهض للصين قيد التنفيذ ولم تتبلور ملامحه بعد، لأن دولاً عديدة لا تزال معتمدة على التجارة مع بكين، غير أن هذه الشراكات المتشابكة قد تكون في النهاية سيفاً مُسلّطاً على رقبة الصين.[12]

1 - الإحتواء الإستراتيجي والعسكري الأمريكي

، ألزمت إدارتان رئاسيتان أمريكيتان الولايات المتحدة، على مدى السنوات الخمس الماضية، بسياسة «المنافسة» - في الواقع، الاحتواء الجديد - تجاه الصين. تركز الاستراتيجية الدفاعية الأمريكية الآن بشكل مباشر على هزيمة العدوان الصيني في غرب المحيط الهادئ؛ تستخدم واشنطن مجموعة من العقوبات التجارية والتكنولوجية للتحقق من نفوذ بكين والحد من احتمالات تفوقها الاقتصادي. من ناحية أخرى، فقد حذّر أحد كبار ضباط جيش التحرير الشعبي من أنه «بمجرد أن تعتبرك أمريكا الإمبراطورية بمثابة "عدوهم"، فإنك تواجه مشكلة كبيرة. في الواقع، التزمت الولايات المتحدة أيضًا بتنظيم مقاومة عالمية أكبر للقوة الصينية، وهي حملة بدأت تظهر نتائجها مع استجابة المزيد والمزيد من الدول لتهديد بكين.

في آسيا البحرية، تشتد مقاومة القوة الصينية. تعمل تايوان على زيادة الإنفاق العسكري وتضع خططًا لتحويل نفسها إلى نيص استراتيجي في غرب المحيط الهادئ. تنفذ اليابان أكبر حشد عسكري لها منذ نهاية الحرب الباردة ووافقت على دعم الولايات المتحدة إذا هاجمت

الصيــن تايوان. تعمل الدول المحيطة ببحر الصين الجنوبي، ولا سيما فيتنام وإندونيسيا، على تعزيز قواتها الجوية والبحرية وخفر السواحل للطعن في مطالبات الصين التوسعية.

كمـا تقاوم دول أخرى موقف بكين. تعمـل أستراليا على توسيع القواعد الشمالية لاستيعاب السفــن والطائــرات الأمريكية وبنــاء صواريخ تقليديــة بعيدة المدى وغواصــات هجومية تعمل بالطاقــة النوويــة. تحشد الهند قواتها علــى حدودها مع الصين بينما ترســل سفنا حربية عبر بحر الصين الجنوبي. وقد وصف الاتحاد الأوروبي بكين بأنها «منافس منهجي»، وأرسلت القوى الثـلاث العظمــى في أوروبــا – فرنسا وألمانيا والمملكــة المتحدة – فرق عمــل بحرية إلى بحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي. مجموعة متنوعة من المبادرات متعددة الأطراف المناهضة للصيــن – الحوار الأمني الرباعي؛ تحالفات سلسلة التوريد ؛ التحالف الجديد المسمى – A KUS مــع واشنطــن ولنــدن وكانبيرا؛ وآخــرون – في الأعمــال. اعترف العالــم المتشدد والرابــط يان زويتونغ فــي تموز (يوليــو) الماضي بــأن «استراتيجية النادي متعــدد الأطراف» التي تتبناها الولايات المتحدة، تعمل على «عزل الصين» وتضر بتطورها.

لا شــك أن التعــاون ضــد الصين ظل غيــر كامل. لكن الاتجــاه العام واضــح: مجموعة من الجهــات الفاعلــة توحد قواها تدريجياً للتحقق من قوة بكين ووضعهــا في صندوق استراتيجي. بعبــارة أخرى، الصيــن ليست دولة صاعدة إلى الأبــد. إنها قوة قوية بالفعــل، وطموحة للغاية، ومضطربة بشدة، ولن تظل نافذة الفرص مفتوحة لها لفترة طويلة.

مــن بعض النواحي، يعد كل هذا أخبارًا ســارة لواشنطن: إن الصين التي تتباطأ اقتصاديًا وتواجه مقاومة عالمية متزايدة ستجد صعوبة كبيرة في إزاحة الولايات المتحدة كقوة رائدة في العالــم، في حد ذاته أو التخلي عن اللعبة بطريقة أخرى. لكن الأخبار أكثر إثارة للقلق من نواحٍ أخــرى. يحذر التاريخ مــن أن العالم يجب أن يتوقع أن تتصرف الصين في ذروتها بجرأة أكبر، وحتــى بشكل متقطع، خــلال العقد القادم – للاندفــاع للحصول على جوائــز استراتيجية طال انتظارها قبل أن تتلاشى ثرواتها.[13]

2 – سيناريو ردود الفعل الصينية

مــن المتوقع أن تميــل الصين بشدة إلى استخدام القوة لحل قضيــة تايوان، بشروطها، في العقــد المقبــل، قبل أن تنهي واشنطن وتايبيه إعادة تجهيــز جيشيهما لتقديم دفاع أقوى. يقوم جيشــ التحريــر الشعبي بالفعل بتصعيد تدريباتــه العسكرية في مضيق تايــوان. لقد أعلن شي مرارًا وتكرارًا أن بكين لا يمكنها الانتظار إلى الأبد حتى تعود «المقاطعة المنشقة» إلى الحظيرة. عندمــا يتحول الميزان العسكري مؤقتًا أكثر لصالح الصيــن، ومع إجبار البنتاغون على سحب السفــن والطائرات القديمــة للتقاعد، قد لا تحظى الصين أبدًا بفرصــة أفضل للاستيلاء على

تايوان والتعامل مع واشنطن بهزيمة مذلة.

وفي سيناريو آخر: ربما لن تقوم الصين بهجوم عسكري شامل عبر آسيا، كما فعلت اليابان في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن الماضي، لكنها ستواجه مخاطر أكبر وتقبل توترات أكبـر وهـي تحاول جني المكاسب الرئيسيـة. في الجغرافيا السياسية فـي عصر ذروة الصين: دولـة لديها بالفعل القـدرة على تحدي النظام الحالي بعنف ودولة مـن المحتمل أن تعمل بشكل أسرع وتدفع بقوة أكبر لأنها تفقد الثقة في أن الوقت إلى جانبها.

وفـي سيناريـو بعيد عن اللجوء الـى العنف، توقع الخبيـر والكاتب الأمريكـي ديفيد فيكلنغ فـي تحليل نشرته وكالة بلومبرغ عن مستقبل العلاقـات الأمريكية الصينية، أن إلقاء نظرة على العلاقات المتوترة للصين مع دول أخرى، يظهر أن بكين تعتمد على الواقعية السياسية أكثر مما تركز على «الذات»، مستبعدا بذلك مواجهة عسكرية.

رأي آخـر كتبـه هو شي جيـن رئيس تحريـر صحيفة «غلوبـال تايمز» الشعبية فـي الصين علـى موقـع التواصل الاجتماعي تويتر، يقول: «خطر المواجهـة العسكرية بين الصين والولايات المتحـدة يتصاعـد رغم أن أيا مـن الجانبين لا يريد الحـرب». ويرى يورغ لاو فـي مقال لموقع «تسايـت أونلاين» الألمانـي (20 أيـار 2020) أن «الصراع بين واشنطـن وبكين ليس حربًا باردة جديدة، كل ما هناك هو أن الصين تستخدم بذكاء ضعف القوة الأمريكية المتذبذبة". [14]

3 - بدأ غزو تايوان... كيف سيكون الرد الأميركي؟

أحـد الأسئلة الكبيرة التي يطرحهـا مخطط الحروب الأمريكيين بالنسبة لتايوان، هو سؤال يقـول: (إذا قـررت الصين القيام بمثـل هذا الغزو.. هـل سيفتتحونه بتوجيـه ضربة قوية ضد القوات الأمريكية الموجودة في منطقة جنوب شرق آسيا؟).

يـري خبيـر السياسة الدفاعية فـي منطقة المحيطيـن الهندي والهـادئ (هيرزينجر) أنه سيكون من العدل افتراض أن يفعل الصينيون ذلك، ولهذا السبب، ففيما يتعلق بالأسطول السابع الأمريكي المنتشر هناك، فلا أحد يدري ما الذي سيواجهه في اليوم صفر من أيام القتال.

ويضيـف: بالتأكيـد سيكونـون في حاجة للغواصـات الموجودة في غوام –غـوام هي جزيرة أمريكيـة تقـع غرب المحيط الهادئ، وبها قاعدة جوية وبحرية هامـة. وإذا اندلعت حربا، فهذا شـيء لا مزاح فيه، وسيحتاج الأسطول السابع دعمًا كامـلاً من الأسطول الثالث الذي يتخذ من سان دييغو مقراً له –سان دييغو مدينة في ولاية كاليفورنيا الأمريكية غرب أمريكا.

يري هيرزينجر أن هذه الحرب لن تنكشف كيف ستسير أحداث ساعاتها، أيامها، وأسابيعها الأولى إلا بناء علي كيفية إندلاعها. فإذا ما كانت حربا مفاجئة، فإن القوات الموجودة في مسرح الأحداث، سيكون عليها التعامل مع نتائج ضربة وقائية كبيرة ستسددها الصين إليها. حينها وفي

ظـل حالة الطوارئ تلك، ستحدد القوات البحرية أولوياتها في القتال، ففي حرب واسعة النطاق مثـل هذا، ستكون مهمتها الأولــى تأمين الطرق البحرية إلي أراضــي الحلفاء في اليابان وكوريا الجنوبيــة، وتايوان إذا ما ظلت الأخيرة صامدة، وهذا يحتــاج للتصدي لقوة الغواصات الكبيرة الموجودة في صفوف البحرية الصينية. ثم ستبدأ البحرية الأمريكية في استدعاء الاحتياطيات وتعبئتهــا (الأمر الذي يستغــرق وقتًا طويلاً، أسابيــع وشهور)، على أن يستعـد الأسطول الثالث للاندفاع فورا إلى الأمام، وتتحرك سفنه إلى مواقعها المحددة مسبقا. وبمجرد أن تنجح القوات على جبهة القتال في تأمين عمليات نقل بقية القوات الداعمة إلى مسرح العمليات بطريقة آمنًة، ستبدأ عمليات نقل جوي ضخمة إلى القواعد التي تم تأمينها.

فــي الحرب المضــادة للغواصــات الصينيــة، ستعتمد أمريـكا علي طائراتهــا طراز P-8 Poseidon أو الصياد، إنها تحفة تكنولوجية صممت لمهام جمع المعلومات والاستطلاع، وكذلك القتال ضد الغواصات، بفضل أجهزتها عالية التطور التي تستطيع رصد أكثر الغواصات تخفيــا فــي أعمق أعماق مياه البحــار والمحيطات، وتسدد لها بدقــة طوربيداتها الدقيقة، وهذا التكنيــك بالذات قاتل أخطر للغواصات مقارنة بحرب الغواصات التقليدية والتي قد ترصد فيها الغواصات بعضها بعضا وتستطيع توقع اتجاهات طوربيدات الغواصة المعادية وتجنبه.

بخــلاف ذلك، فإن سفن السطح الأمريكية كالمدمــرات وغيرها، تملك كذلك أجهزة سونار متطورة للكشف عن الغواصات، وطوربيدات جاهزة للفتك بها، بالإضافة إلى الصواريخ الساحلية والمقاتــلات والمروحيات التي تحمل الطوربيدات. كل هذا سيكون ضروريا للتحركات الأمريكية. لكــن السيد هيرزينجــر، يفجر مفاجأة حينما يتحــدث عن أن عدد من قــادة البحرية الأمريكية أوضحــوا لــه أنهم لا يملكون ما يكفــي من الصواريــخ والطوربيدات لمواجهة قــوة بحرية بحجم البحريــة الصينية، بل إنهــم لا يملكون أعداد كافية من أنابيب الإطــلاق اللازمة.. قد تكون تلك مشكلة تستلزم العلاج بالنسبة الأمريكيين، وقد تكون مجرد عملية خداع ألفناها طوال التاريخ[15].

في الخلاصة

لــن تواجه الولايات المتحدة مهمة واحدة بل مهمتين في التعامل مع الصين، في عشرينيات القــرن الحالي؛ سيتعين عليها، أولاً، مواصلة التعبئة من أجل المنافسة طويلة الأجل مع التحرك بسرعــة لردع العدوان، وثانيــاً، تخفيف حدة بعض التحركات الأكثر عدوانية على المدى القريب التي قد تتخذها بكين. بعبارة أخرى، اربط حزام الأمان، فمسألة اللجوء الى الحرب التي لم يعد ممكنــا تلافيها أصبحت مسألة وقت؛ ففي حين كانت الولايات المتحدة تستنهض نفسها للتعامل مع الصين الصاعدة، يبدو إنها على وشك اكتشاف أن تدهور الصين قد يكون أكثر خطورة.

ENDNOTES

1 موقـع روسيـا اليـوم، تقرير بعنوان: «ماذا يحدث فـي الصيـن – صراع على السلطة أم بداية انهيار الاقتصاد العالمي؟" نشر بتارخ 1 – 10 - 2021

2 دينـا سليمـان كمـال لاشيـن: دراسـة بعنـوان "تحول القـوة وتأثيرهـا علي الصعـود الصيني 2008:2018" – المركـز الديمقراطـي العربـي، 18 شبـاط 2020 علـى الرابـط https://democraticac.de/?p=64890

3 دينا لاشين: مرجع سابق.

4 دينا لاشين: المرجع نفسه.

5 اسلام حجازي: «الصين وريادة الذكاء الاصطناعي فى العام 2030" نشر في مؤسسة الفكر العربي بتاريخ 12 نوفمبر 2019 https://www.shorouknews.com/columns

6 Hal Brands، Michael Beckley هـال برانـدز أستـاذ هنـري كيسنجـر المتميـز للشـؤون العالميـة فـي كليـة الدراسـات الدوليـة المتقدمـة بجامعـة جونـز هوبكنـز، مايـكل بيكلـي أستـاذ مشـارك فـي العلـوم السياسيـة بجامعة تافتس، بحـث بعنـوان: - China Is a Declining Power—and That's the Problem، نشر بتاريخ 24 – 9 – 2021 في موقع the New Yorker

7 دينا لاشين: مرجع سابق

8 هال براندز ومايكل بيكلي: مرجع سابق

9 موقع عربي بوست، تقرير بعنوان: «صعود الصين العظيم مُهدد" تاريخ النشر 20 – 10 – 2021 على الرابط: https://arabicpost.net/

10 اسلام حجازي: مرجع سابق

11 هال براندز ومايكل بيكلي: مرجع سابق

12 موقع عربي بوست: مرجع سابق.

13 هال براندز ومايكل بيكلي: مرجع سابق

14 موقع DW عربية بتاريخ 20 – 5 – 2020

15 "مـن سينتصـر فـي الحـرب بين الصيـن وأمريـكا.. سيناريوهات الحرب القادمـة".. الجزء الثالـث، ترجمـة المعرفـة للدراسـات لتقريـر مـن Military Times الأمريكيـة، بقلـم تـود ساوث، فيليـب آشـي، ديانـا ستانسـي كوريـل، ستيفن لوسـي، جيـف زيزوليفيتش، ميغان مايـرز، هـوارد ألتمان نشر علـى موقـع المعرفة، بتاريخ. 04 نوفمبـر 2021 على الرابـط: https://www.marefaah.com/2021/11/who-will-win-the-next-war-between-china-and-america-part-III.html




قوى الأمن
القوى
ميشال

ما بين تجلّيات الحرب الباردة الثانية، وبداية الألفية الثالثة!!

د. ايلي الياس

مقدّمة

الحـروب الباردة مصطلح تاريخيّ يراد به التعبير عـن الصراع بين الجبّارين الأميركيّ وخلفه مجموعة من الحلفاء الغربيين، والسوفياتيّ – ثمّ وريثه الروسيّ – وإلى جانبه الصين الشعبية ودورها العالمـيّ آخذ في التصاعد، ومعهما مجموعة من الحلفاء أيضاً... والبرودة منعاً لاشتعال الحروب العالمية الساخنة كالحربين العالميتين الأولى والثانية!!

فـي نهاية الحـرب العالمية الأولـى ونتائجها المُباشـرة، ما يفتح الطريـق أمام الحرب العالميــة الثانيــة: إرادة فرنسيــة – بريطانيــة بتقويض الطمـوح الجرمانيّ لتأكيـد الهزيمة الألمانيــة، وجاءت النتيجــة مُعاكسة، فانتفض المارد الجرمانيّ مـن قمقمه، وانطلق مزلزلاً الأرض مـن جديد!! ولئـن استطـاع الأميركيـون استيعاب القـدرات الألمانيــة رغم هزيمة الألمـان، منــذ نهاية الحـرب العالمية الثانيــة، إلّا أنّ هذه الحرب مهّدت لحـرب باردة أولى بيــن الجبّاريــن: الأميركيّ وخلفه حلف شمــال الأطلسي، والسوفياتيّ وخلفــه حلف وارسو... لــم تنته إلّا مع سقوط الاتحاد السوفياتي ونهاية المنظومــة الشيوعية العالمية وتدمير جدار برليــن... وبعد قرابــة عشر سنوات من الهيمنــة الأميركية المُباشــرة، ومُحاولة الأميركيين المتسرعــة لتطبيق سيطرة أحادية الجانب على القرار العالميّ... انبثقت حرب باردة ثانية، بــدأت تماماً مع مطلع الألفيــة الثالثة حين وصول الرئيس فلاديمير بوتيــن إلى سدّة القيادة الأولـى في الكرملين، وامتدّت حتــى زمن الكورونا سنة 2020... ولئن لم تستطع الأنفلونزا الإسبانيــة أن تغيّر كثيــراً في التاريخ العالمــيّ لالتصاقها بالحرب العالميــة الأولى، يبدو أنّ فيروس الكورونا سينقل العالم من زمن الحرب الباردة الثانية إلى زمنٍ جديد له خصائصه ومرتكزاته الخاصّة!!

ستختلف الحرب الباردة الثانية عن الحرب الباردة الأولى شكلاً ومضموناً... فالجبّاران الأميركــيّ والروسيّ حليفان، فــي السياســة الجيوستراتيجية العُليا رغــم بعض الاختلافات المُحــدّدة والمحصــورة... بينمــا الصــراع الجديد على مستــوى الحرب البــاردة هو صراع استخبــاريّ بامتياز في مناطق النفوذ العسكريّ المُباشر للطرفين، وصراع عسكريّ بالوكالة فــي دول العالــم الثالــث!! وستصبح الحرب الاستخباريــة بين الطرفين أكثــر عنفاً وضراوةً تستلهم الجيلين الخامس والسادس من الحروب!!

عمــر هذه الحرب الباردة الثانية القصير نسبياً (2000-2020) لا يمنع أنّها أفرزت الكثير من المسارات، المُترابطة أو المُختلفة، وقدّمت حجماً من التغييرات الاستراتيجية في بلدان عديدة من العالم!! وثمّة ترابط منطقيّ وأكيد بين الحربين الباردتين الأولى والثانية!!

ولهذا البحث إشكاليته النوعية، تترجم سؤالين محدّدين: ما أبرز تجلّيات الحرب الباردة الثانية؟ وما حجم علاقتها بالحرب الباردة الأولى؟

تجربة الرئيس نلسون مانديلا، علامة فارقة ومضيئة، على أبواب الألفية الثالثة!!

صاحب مسيرة نضالية استثنائية في مكافحة التمييز العنصريّ، قائد على جانب عالٍ من المزايا الإنسانية الصافية والمميزة، الثابت في قيادة حرب ضروس ضدّ الجهل والفقر والعنصرية، المُنتصر بفضل المحبّة الراقية والصمود العجيب والوفاء للمبادئ والقيم، الراغب بعالم أفضل تحكمه الأنظمة العادلة والقوانين الإيجابية... هذا هو زعيم ورئيس جنوب أفريقيا التاريخيّ: نلسون مانديلا!!

المناضل الكبير، ورجل الدولة القدير، الزعيم الجنوب أفريقيّ نلسون مانديلا (18 تمّوز 1918 - 5 كانون الأوّل 2013)، الذي قاوم وكافح نظام التمييز العنصريّ في بلده حتى القضاء عليه، وفي العالم، يُعدّ أيقونة الحقّ والعدالة والكرامة في التاريخ الحديث والمُعاصر... المسجون ظلماً لمدّة 27 عاماً (5 آب 1962 - 11 شباط 1990) لم يحد عن المبادئ الإنسانية العالية والقيم المُجتمعية الصافية رغم كلّ ما عاناه من عذابات واضطهادات... رجل المسؤوليات بامتياز، رئيس جمهورية جنوب أفريقيا (10 أيّار 1994 - 16 حزيران 1999)، والسكرتير العام لحركة دول عدم الانحياز (2 أيلول 1998 - 16 حزيران 1999)، ورئيس حزب المؤتمر الوطني الإفريقيّ (7 تمّوز 1991 - 20 كانون الأوّل 1997)، لم تزده المواقع القيادية العليا إلّا تواضعاً وتألّقاً... نلسون مانديلا، علامة فارقة استثنائية في تاريخ الإنسانية!!

مقدّماً كتاب: مذكّرات نيلسون مانيلا حواري مع نفسي، يُبرز الرئيس الأميركيّ باراك أوباما، بشكلٍ مركّز وراقٍ فضائل نيلسون مانديلا، المُناضل الصلب والمُقاوم الشرس للعنصرية، والرئيس الثابت على القيم والمبادئ الإنسانية الداعية إلى المحبّة والعدل والتسامح... فيكتب: «قبل انتخابي رئيساً للولايات المتحدة، حظيت بشرف لقاء مانديلا، ومنذ تسلّمي منصبي، كنت أتحدث إليه عبر الهاتف بين الفينة والأخرى. عادة ما تكون أحاديثنا مقتضبة. فهو في خريف العمر، وأنا لدي برنامج عمل حافل بحكم وظيفتي. لكن في خلال هذه المكالمات، تمر فيها لحظات يتجلى فيها كرم هذا الرجل، ولطفه وحكمته. هذه هي اللحظات التي تذكرني بأنه خلف كواليس التاريخ الذي صنعه هذا الرجل، ثمة إنسان آثر الأمل على الخوف، والتقدم على سجون الماضي، ويتم تذكيري بأنه على الرغم من تحول هذا الرجل إلى أسطورة، فإن معرفة نيلسون مانديلا، تحتم احترامه أكثر.»[1]، كلمات رائعة تصف رجلاً وقائداً استثنائياً بكلّ المقاييس!!

قائد من الطراز الأوّل، ورجل استثنائيّ، هكذا هو نلسون مانديلا!! وكذلك تمتّع بصفات استثنائية أيضاً: الشجاعة والطموح والصلابة والصمود!! «المثل التي نقدّرها، وأصدق أحلامنا، وأحر آمالنا، قد لا تتحقق في حياتنا. لكن هذه نقطة جانبية. فمعرفة أنك في خلال يومك أنجزت

مهامـك، وكنت على قدر توقعـات أخيك الإنسان، هي ذاتها تجربة مجزيـة، وإنجاز هائل. – من رسالـة إلـى شينا دانكان (الأول مـن نيسان 1985) – »[2]، كل التحديـات والاضطهادات التي واكبـت مسيـرة الرئيس نيلسون مانديلا الطويلة، لم تزده إلّا إصراراً على النجاح والتألّق، وإنقاذ أفريقيا الجنوبية والقارة الأفريقية عامّة، من براثن العنصرية البغيضة!!

هـل نظام التمييز العنصريّ الذي طُبّق في جنوب أفريقيا بشكل خاصّ، نوع حديث من أنواع الفاشيـة التي انتشرت في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولـى؟ حتماً، نعم، وأكثر... ويبدو موقف العالـم الحـرّ – الولايات المتّحدة الأميركية ودول أوروبـا الغربية – من هذا النظام، متخاذلاً في البدايـة، كما على مستوى العلاقة مع النظام النازيّ سابقاً – اتفاقية ميونيخ مثالاً –، لا بل داعماً لنظـام جنوب أفريقيا، لولا المقاومـة الصلبة بزعامة نيلسون مانديلا الـذي تغلّب صوته العالي الداعي إلى الحرّية والتحرّر، على قساوة السجن وعنف العنصرية!!

نيلسـون مانديـلا رمـز التحرّر ومكافحـة العنصرية والعدالـة الاجتماعية والأمـل، رغم كلّ الصعـاب والألم، يتألّق دائماً في الذاكرة الجنـوب أفريقية والعالمية، «وأعلن في العام 2009، يـوم عيـد ميلاد مانديلا في 18 تموز: اليـوم العالمي لنيلسون مانديلا، وهـو يوم عالمي لتعزيز السلام العالمـي والاحتفال بميراث زعيم جنوب أفريقيا. ووفقًا لمركز نيلسون مانديلا للذاكرة، فـإن هذا الحدث السنوي يهـدف إلى تشجيع المواطنين في جميع أنحـاء العالم على اتباع نهجه والسير على الهدف الذي ثابر عليه مانديلا طيلة حياته. ومن أشهر أقوال مانديلا: العلم هو أقوى سـلاح يمكنـك استخدامه لتغيير العالم. تعلمت أن الشجاعة ليسـت غياب الخوف، ولكن القدرة علـى التغلّـب عليه. أنا لا أخسر أبداً، فإما أن أربـح أو أتعلّم. المال لا يصنع النجاح، إنما الحريّة لإنتـاج المال هي التي تصنع النجاح. حافظ على كرامتـك حتى لو كلفك الأمر أن تصبح صديقا لجـدران زنزانتك.»[3]، ومع انطلاقة الألفية الثالثـة، يمثّل نلسون مانديلا الأمل في تغليب منطق الحوار والمحبّة، في كافة المجالات!!

يقدّم الزعيم نيلسون مانديلا، عبر تجربته الطويلة والشاقة في مكافحة جميع أشكال الظلم والتعسـف، خلاصة من سيرته الذاتية، إشارةً إلى أهمية المثقفين المتنورين الأحرار الصادقين فـي تحرير المجتمعـات من كافـة الموبقات، وتطويرهـا نحو الأفضـل!! «ثمة احتـرام وإعجاب عالميان بأولئك الذين يتسمون بالتواضع والبساطة، والذين يملكون ثقة تامة بالبشر بغض النظر عـن مراكزهم الاجتماعية. هؤلاء هم رجال ونساء، معروفون وغير معروفين، أعلنوا حرباً شاملة علـى جميع أشـكال الخروقات الفادحة لحقوق الإنسـان، حيثما تقع هذه الانتهـاكات في العالم. إنهم بشكل عام متفائلون، ويؤمنون بأنه في كل مجتمع في العالم، ثمة رجال ونساء أخيار يؤمنون بالسلام لكونه السلاح الأقوى للبحث عن حلول دائمة.»[4].

يراهـن الرئيس القدوة نيلسون مانديلا على كوكبـةٍ من الرجال والنساء، الأحرار والمثقفين

والمتنورين، لإحداث التغيير اللازم عبر تحرير الدول والمجتمعات من أيّ شكلٍ من أشكال العنصرية البغيضة، وتحقيق العدالة الاجتماعية وتوثيق الأمن والأمان وتنسيق النجاح الاقتصاديّ والبحبوحة المالية بين كافة شرائح المجتمع، وإحلال السلام الإنسانيّ الشامل عبر العالم!!

لقد أشرقت تجربة الرئيس نيلسون مانديلا البطولية، في مواجهة نظام التمييز العنصريّ في جنوب أفريقيا حتى القضاء نهائياً عليه... على الألفية الثالثة، ساطعةً ناصعةً رائعة!! لقد بات الرئيس مانديلا القائد القدوة بالنسبة للجماهير عبر العالم، كما أصبحت مسيرته السياسية والاجتماعية مثالاً فريداً يحتذى، وعلامة فارقة في خضمّ الحرب الباردة الثانية، وعلى مدى التاريخ الحديث والمُعاصر!!

الصراع بين الجبّارين، الروسيّ والأميركيّ: معايير جديدة واحتمالات عديدة.

الرئيس الروسيّ الجريء والمقدام، فلاديمير بوتين، القادم من عالم الأمن والاستخبارات والمهمّات المحدّدة والدقيقة والناجحة، ومع إطلالته الساطعة والنوعية والرمزية رئيساً للاتحاد الروسيّ يوم 1 كانون الثاني 2000، سيدشّن مع انبثاق الألفية الثالثة تماماً، زمن الحرب الباردة الثانية، عبر مواجهة استراتيجية جديدة مع الأميركيين، ولكن من نوع آخر، بمعايير جديدة وأساليب تكنولوجية حديثة... لاستعادة الحضور الروسيّ الرائد بعد فترة من التراجع السياسيّ النسبيّ مع الرئيسين السوفياتيّ ميخائيل غورباتشيف والروسيّ بوريس يالتسن... وستبرز نتيجةً لذلك احتمالات عديدة وتبدلات هامّة!!

في العلن ثمّة حلف بين الروس والأميركيين لمواجهة الإرهاب العالميّ، وفي السرّ ثمّة مواجهات استخبارية شديدة التعقيد والتطوّر بين الجبّارين، تعتمد حكماً على الجيلين الرابع والخامس من الحروب، وتمتدّ آثارها على مستوى العالم وفي كافة المجالات!!

أدرك الرئيس الروسيّ الخبير فلاديمير بوتين آلية انهيار الاتحاد السوفياتي، كما نعرفها اليوم، وهذا ما جعله من باب الاستخباريّ المخضرم والاستراتيجيّ الخطير، متنبهاً لجرأة الجانب الأميركيّ، السرية والمركّزة!! «تقرير ضابط الاستخبارات غير الشرعية المقيم في نيويورك يوري شيفتشينكو: روى لي موظفو وكالة المخابرات المركزية (سي أي إيه) ماذا سيحدث بالضبط في المستقبل. الدور التاريخي للحزب الشيوعي انتهى... الحزب سيختفي عما قريب. بعد ذلك ستطرح المهمة الخاصة. المرحلة الأولى: تفكيك الاتحاد السوفيتي بحسب الجمهوريات الاتحادية. المرحلة الثانية: تفكيك جمهورية روسيا الاتحادية وانهيارها. وهناك خطة لتأسيس جمهورية الفولغا الشمالية (أي تترستان ووسط حوض الفولغا)، وجمهورية جنوب الفولغا. أما غرب وجنوب غرب روسيا فيلحقان بالدول المجاورة لروسيا. ويصبح الشمال، أي ما يسمى إنغريا وكاريليا جمهورية منفصلة أخرى. وسيبيريا ستقسم بين الصين واليابان والولايات المتحدة الأميركية. وتبقى روسيا الاتحادية في حدود إمارة موسكو القديمة (دوقية موسكو

الكبـرى)».[5]، الاستخبـارات السوفياتيـة غيـر الشرعية (غيـر الرسمية) كانت تقـوم بنشاط عملياتيّ دون تغطية رسمية في دولٍ أجنبية، خطير للغاية، وكانت بقيادة الجنرال يوري دروزدوفً منذ سنة 1979!! وبذلك قدّمت هذه النخبة الاستخبارية، المُرادفة ل كي جي بي، خدمة كبرى إلى القيادة السوفياتية العُليا!! «ماذا فعل غورباتشيف عندما اطلع على التقرير؟ كتب حاشية بأنه اطلـع عليه. ولكنه لم يكتب تم الاطلاع علـى التقرير نفسه بل على ورقة منفصلة ربطها بالتقرير بمشبك الورق وذلك كي يحفظ في الأرشيف وكأنه لم يطلع عليه...»[6]، سيستفيد الرئيس بوتين مـن تجارب وأخطـاء الرئيس السوفياتي الأخيـر ميخائيل غورباتشيف، والرئيـس الروسي الأول بوريس يالتسن، إلى أقصى حدود، في المواجهة المفتوحة والمتواصلة مع الأميركيين والغرب!!

الرجـل الحديـدي فلاديميـر بوتين، هـو القادر علـى إعادة بريـق المجد إلى عينـي روسيا الاتحادية، وإرادة التفوق والتألّق إلى قلبها الصامد!! «واستخدم بوتين (الحائز درجة دكتوراه في فلسفة الاقتصـاد) الأمن في سبيل تحقيق أهداف اقتصادية... رجل الدولة الأقوى: على طريقة رجـال الأمن والمخابرات، كان بوتين لا يمكّن الناس مـن معرفته على كامل حقيقته، فكان يخلق الشـك عند الآخرين دائماً. لقد بدأ عام 2000 بتأسيس نظامه الرئاسي المطلق، أو بما أسموه فـي موسكو بناء هرمية السلطة، مستعيناً بدستور عـام 1993 الذي أعطى الرئيس صلاحيات واسعة...» [7].

الرئيس فلاديمير بوتين الذي أحكم سيطرته على المفاصل السياسية للدولة الروسية بفضل ذكاءٍ حادّ امتلكه، وجرأة عالية تمتّع بها، ووسّع نفوذه نحو المجالات الاقتصادية!! «فبعد سيطرته علـىً شركـة غازبـروم العملاقة للغـاز، قاد حرباً علـى شركة بوكوس التي تحتكـر إنتاج النفط وتصديره، واستطـاع إخضاعها في تمّوز عام 2003، فأخاف جميع الشركات الكبيرة الأخرى، والقوى المالية والمافيات.» [8].

وهكـذا انطلـق الرئيس الروسـيّ فلاديمير بوتيـن في مسيرتـه الرئاسية القياديـة الجريئة والناجحـة، مقدّماً تجربةً فريدة هـي عبارة عن نظام مُدمج بين النظـم الديموقاطية التقليدية والحـزم القيـاديّ الروسيّ التقليديّ!! وهو القائل: «منً لا يأسف على الإتحاد السوفياتي لا قلب له ومن يتمنى عودته لا عقل له.»[9].

علـى الصعيد الداخليّ، استطـاع الرئيس بوتين استيعاب كلّ أشـكال المعارضة ولعلّ أقواها تجربـة أليكسـي نافالني، وهـو معارض روسي مدعوم مـن برلين وواشنطن، وعنـوان للفوضوية السياسيـة المحتملة، ومدخل لانبثاق الحرب الباردة الثالثة!! أمّـا تأجيجه الشارع الروسيّ بوجه الرئيـس فلاديمير بوتين، على مراحل، فمن المرجّح أن يرتدّ على الشارع الألمانيّ تقدّماً لليمين المتطـرّف، على ضوء تفشّي فيروس الكورونا - كوفيـد 19، وابتعاد المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل عن الأضواء السياسية، تدريجياً!!

يقف الرئيس بوتين حازماً وحاسماً بالنسبة لقضية نافالني تماماً كما كان في مواقفه السياسية المفصلية!! «رفض بوتين تقارير إعلامية عن تسميم نافالني قائلاً إنها ملفقة من معلومات قدّمتها أجهزة مخابرات أميركية في محاولة لتشويه سمعة بوتين نفسه وجعل نافالني يبدو أكثر أهمية من حقيقته.» [10]، يقدّم الرئيس فلاديمير بوتين أليكسي نافالني كأداة للحرب الباردة بيد الأميركيين والغربيين وأجهزتهم الاستخبارية!!

عشرون سنة 2000 - 2020 - خلال الحرب الباردة الثانية - بين المعسكر الشرقيّ بزعامة روسية – صينية مشتركة والمعسكر الغربيّ بزعامة الولايات المتّحدة الأميركية!! محطّات من المواجهات السياسية والاستخبارية تميل إلى السخونة أحياناً... وأبرز هذه المحطّات بالنسبة للمواقف الروسية الصامدة في خضمّ الصراع الروسيّ – الأميركيّ:

لقد قرّر الرئيس الروسي فلاديمير بوتين تعزيز وتمتين مكانة روسيا في المناطق التابعة سابقاً للاتحاد السوفياتي، سياسياً، وعسكرياً إذا اقتضت الحاجة، فالحرب الشيشانية الأولى 1994 - 1996 أدّت إل استقلال فعليّ لا رسميّ لجمهورية الشيشان وانكفاء روسيا... إلّا أنّ الرئيس فلاديمير بوتين قرّر حسم القضية لمصلحة روسيا، فكانت الحرب الشييشانية الثانية 1999 – 2009!! «في 23 أيلول 1999 أعلنت روسيا الحرب، ودفعت بنحو ثلاثين ألف جندي إلى الحدود الشيشانية، لتدخلها وتواصل تقدمها إلى غروزني التي وصلتها في اليوم الأول من عام 2000، أي بعد يوم واحد من تولي بوتين رئاسة البلاد إثر استقالة يلتسين.»[11]، وهكذا بدأ الرئيس بوتين عهده، بقبضة حديدية في القوقاز!! وفي نهاية المطاف، «تمكن المركز الفدرالي من حشد الدعم لمفتي الشيشان أحمد قديروف، والذي انتخب فيما بعد رئيساً لجمهورية الشيشان.»[12]، اغتيل أحمد قديروف في 9 أيّار 2004، وقد بات ابنه رمزان لاحقاً، رئيساً للجمهورية الشيشانية، سنة 2007... كلّ ذلك وسط حرب استخبارية ضروس بين الروس والمعارضة الشيشانية وخلفها خصوم موسكو!! لقد برهن النجاح الروسيّ في الشيشان، مع الرئيس بوتين، حجم القدرات العسكرية والإمكانيات الأمنية والاستخبارية الروسية، في مناطق الاتحاد السوفياتي السابق، بحيث بات يحسب لروسيا ألف حساب، من قبل الأميركيين والغربيين، في حال محاولتهم إثارة الاضطرابات في المناطق المحسوبة على روسيا، التي استعادت قدراتها الاستراتيجية مع الرئيس فلاديمير بوتين...

تابع الرئيس بوتين خطّته الاستراتيجية، مدعوماً من الرئيس ميدفيديف... فتدخّل ضد جورجيا سنة 2008، وثبّت الاستقلال الذاتيّ لأوسيتيا الجنوبية وأبخازيا بحماية روسية!! وضمّ القرم إلى الاتحاد الروسيّ، بعد استفتاءٍ فيها، إثر مواجهة حاسمة مع أوكرانيا، سنة 2014!! وتدخّل إثر الحرب بين أذربيجان المدعومة من تركيا وجمهورية أرتساخ المدعومة من أرمينيا، سنة 2020، متوسطاً بين الطرفين، فارضاً شروطه الاستراتيجية، رغم انتصارٍ

محـدود لأذربيجان!! إنّه زمن النجاحات الروسية السياسيـة والاستخبارية والأمنية ، في منطقة القوقـاز، والمناطـق التابعة للاتحـاد السوفياتي سابقـاً... لقد نجح الرئيسـ الروسيّ فلاديمير بوتيـن نجاحاً استراتيجيـاً باهراً في تأمين المجال الحيويّ للاتحـاد الروسيّ، استعداداً لضمان المصالح الروسية في أوروبا الشرقية واستعادة الدور الرياديّ هناك من جهة، ولتثبيت الحضور الروسـيّ فـي سوريا وإعلاء شأن الحضـور الروسيّ في الشرق الأوسط وشمـال أفريقيا من جهة أخـرى... شتّان ما بين السياسـة الروسية الاستراتيجية الشاملة، زمـن الرئيس الروسيّ بوريس يالتسن ضعفاً وتراجعاً، وزمن الرئيس فلاديمير بوتين نجاحاً وتألّقاً...

وثّـق الرئيس بوتين الدور القياديّ للاتحاد الروسيّ: بيـن المفاوضات الساخنة والمواجهات البـاردة مـع الأميركييـن لتأمين مصالـح بلاده، سياسـة حذرة تجـاه الاتحاد الأوروبـيّ وتفعيل الحضور الروسيّ السياسيّ في البلقان وأوروبا الشرقية، تحالف وثيق وشامل مع الصين الشعبية، وانسجـام في العلاقات مع إيران خصوصاً حول الدور الروسيّ المتقدّم في سوريا، تطوّر إيجابيّ فـي العلاقات السياسية والاقتصادية مع المملكة السعودية والخليج العربيّ ومصر، وحضور بارز في شمال أفريقيا وفي العلاقات مع دول العالم الثالث... مع الحرب الباردة الثانية، عادت روسيا بقوّة وثقة ونجاح إلى الساحات الدولية...

وقـد استفادت القيـادة الروسية من آلية العلاقـات السياسية والديبلوماسيـة والاستخبارية الدوليـة الأميركيـة زمن الرئيسـ دونالد ترامـب، والتي تميّزت عـن المسار الأميركـيّ الشامل والتقليديّ... حيث كان عهد الرئيس ترامب عهد المفاجأت بامتياز...

تقدّم صينيّ في كافة المجالات، وتألّق رغم كلّ الأزمات!!

العمـلاق الصينيّ، المتألّق سياسياً، والمتقدّم أمنياً واستخباريـاً، والواثق عسكرياً، والجبّار اقتصادياً وتجارياً، منذ الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة الأولى، يقتحم الساحات الدولية بقـدرات ديبلوماسية نوعيـة، على ضوء الخلافـات الأميركية - الروسية التقليديـة، تباعاً، عبر الأضـواء، نحو الواجهـة!! تماماً كما أشـار الأمبراطور الفرنسيّ نابليـون الأوّل، قبل ما يزيد عن 200 سنة، أن اتركوا العملاق الصينيّ نائماً، لأنّه عندما يستيقظ سيهتزّ العالم!!

وإن كان الروسـ ورثـة السوفيـات قد اشتهـروا ببراعتهم فـي إدارة الحروب البـاردة، فقد تخصّص الصينيون بعـد تجاربهم الاقتصادية والاجتماعية الطويلة، بوضع المخطّطات البعيدة الأمـد والفعّالة بامتياز، لتجسيد سيطرة اقتصادية صينية عالميـة، خصوصاً بعد زمن الكورونا كوفيد 19 ، بمنطق الاستيعاب المُتواصل والاندماج عند الضرورة والشراكة عن الحاجة، واتخاذ صفـة المُساهم الاقتصاديّ الأكبر... لقد انتظر الصينيون دورهـم القياديّ سياسياً واقتصادياً واستراتيجيـاً، بصبرٍ عجيـب واحتمالٍ غريب، واستكملوا استعداداتهـم بهدوء مشهود له وكفاءة

عاليــة... وقد برز حضورهم الساطع خــلال الحرب الباردة الثانية، ويُنتظـر زعامتهم للمعسكر الشرقــيّ، خلال الحرب الباردة الثالثة، بعد تبدّد الكورونا، في مواجهة الأميركيين والبريطانيين ومن يحالفهم خصوصاً على مستوى الدول الغربية...

«قــال مركز رائد للأبحــاث الاقتصادية إن الصين ستصبح أكبــر اقتصاد في العالم بحلول عــام 2028، متفوقــة بذلــك علــى الولايات المتحــدة، قبل خمس سنــوات ممــا كان متوقعاً في السابــق. وأفاد مركــز الاقتصاد وأبحاث الأعمــال (سي إي بي آر) – ومقره فــي بريطانيا – بأن وباء كورونا وتداعياتــه الاقتصادية كانت لصالح الصين، مضيفاً أن إدارة بكين الماهرة للأزمة ستجعلهــا الاقتصــاد العالمي الرئيسي الذي سيتوســع العام المقبل.»[13]، وهكــذا تتألّق الصين بشــكلٍ تصاعديّ نوعيّ، وتبرهن أنّها قادرة على تطويع أزمة كورونا الصحية الحادّة لمصلحتها، لتغدو في مدى ما بعد الكورونا، قلب الاقتصاد العالميّ النابض!!

يبــدو زمن الكورونــا حازماً وحاسماً في إطلاق سلسلة من التغييــرات الجيوسياسية الهامّة!! ومــع الحــرب الباردة الثانيــة (2000 - 2020)، «فإن روسيا تكون قــد نجحت بمنع الولايات المتّحدة من الاستئثار بمقومات القرار في الشؤون الدولية وأمنت الانتقال إلى نظام دولي متعدد الأقطــاب يكون لها فيه دور أساسي إلى جانب الصين وإيران وغيرها من القوى مع بقاء الولايات المتحــدة قــوة عظمى لكن آيلــة للتراجع.»[14]، ومن الحــرب الباردة الثانية إلــى الحرب الباردة الثالثــة الآتيــة بعد زمن الكورونــا كوفيد 19، حيث يتوقــع تراجع الدور الأميركــيّ على المستوى العالمــيّ، وتقدّم الحضور الصينيّ علــى كافة المستويات وخصوصــاً اقتصادياً، وحفاظ الروس على دور هامّ في إطار المعسكر الشرقيّ!!

الحــرب البــاردة الثالثــة، يستعدّ لهــا الصينيــون لتثبيت زعامتهــم الاقتصاديــة وقدراتهم السياسية الاستيعابية، ولو أنّهم يدعون إلى التعددية والتكامل!! «حذر الرئيس الصيني شي جين بينــغ اليــوم الاثنين 25 كانون الثاني 2021، من حرب باردة جديــدة، لا يمكن أن تؤدي إلا إلى طريــق مسدود، داعيــاً دول العالم إلى تعزيز تنسيــق سياسات الاقتصاد الكلــي وإزالة الحواجز أمــام التجــارة والاستثمار والتبادل التقنــي. وشدد شي خلال منتدى دافوس الاقتصادي، الذي عقد افتراضيا، على أهمية التعددية باعتبارها السبيل لمواجهة التحديات الحالية. ولفت إلى أن التعافــي العالمي من جائحة فيروس كورونا مهتز نوعاً ما وإن الآفاق لا تــزال غير مؤكدة.»[15]، الصيــن التي أعطتها الحرب البــاردة الثانية وزمن الكورونا، مزيداً مــن الإمكانيات الاقتصادية واحتمالات النجاح السياسيّ، مستعدّة لكافة الخيارات المطلوبة!!

لقــد حقّقــت الصيــن خــلال الحــرب البــاردة الثانيــة (2000 - 2020) وقبــل ذلــك، نجاحــات نوعية على كافة المستويات، خصوصاً في المجــالات السياسية والأمنية والاستخبارية والاقتصاديــة... يجب تحليلهــا وتفنيدها طبعــاً... وكانت هذه النجاحات بانتظــار حدثٍ عالميّ

محوريّ لكي تتصدّر الصين المحور الشرقيّ في مواجهة النفوذ الأميركيّ، وسواء تمّ ذلك بشكلٍ مفاجئ أو لا، فقد قلب هذا الحدث المعطيات رأساً على عقب، وهو: الكورونا كوفيد 19!!

وعلى سبيل المثال لا الحصر، وفي زمن الكورونا كوفيد 19، استطاعت الصين أن تستفيد من مشروع الرئيس دونالد ترامب تجاه إيران وتناقضه مع رؤية سلفه باراك أوباما وخلفه جو بايدن، لتثبيت حضورها على المستويين الشرق أوسطيّ والعالميّ!! «رتب اتفاق الشراكة الإستراتيجية بين الصين وإيران، تغييراً في بعض موازين القوى بالشرق الأوسط وعزز موقع بكين في التنافس الدولي الحاد مع الولايات المتحدة، ولم تعد طهران في عجلة من أمرها لإحياء الإتفاق النووي، وباتت الكرة في الملعب الأميركي. بعد خمسة أيام من حوار ألاسكا الفاشل بين الصين والولايات المتحدة، زار وزير الخارجية الصيني وانغ يي طهران ليوقع إتفاق الشراكة الذي كان تقرر مبدئياً خلال زيارة الرئيس الصيني شي جينبينغ للعاصمة الإيرانية عام 2016. الخطوط العريضة للاتفاق تنص على إستثمارات صينية في إيران بقيمة 400 مليار دولار في مختلف الحقول الإقتصادية من المرافىء إلى النفط وعلى تعاون عسكري بين الجانبين، بينما تزوّد طهران الصين بالنفط بأسعار تفضيلية لمدة 25 عاماً. ولعل النقطة الأكثر إزعاجاً للولايات المتحدة في الإتفاق هي بند ينص على إنشاء بنك صيني - إيراني يعتمد اليوان (العملة الوطنية للصين) في تعاملاته وليس الدولار الأميركي..»(16)، كما جاء الانسجام في المفاوضات بين الرئيسين الأميركيّ دونالد ترامب والكوريّ الشماليّ كيم جونغ أون في مصلحة المجال الحيويّ والاستراتيجيّ للصين الشعبية!!

ومن أبرز مظاهر الحضور الصينيّ خلال الحرب الباردة الثانية (2000 - 2020) - وما سبق ذلك في أواخر القرن العشرين وارتبط لاحقاً بتلك الحرب - :

كانت سنة 1989 مفصلية في تثبيت قوّة النظام الصينيّ سياسياً وأمنياً واستخبارياً، أمام ثورة شعبية محدّدة، بدعم استخباريّ أميركيّ وغربيّ... فمثلاً «دعت تايوان إلى إحياء ذكرى مذبحة ميدان تيانانمين التي جرت يوم 4 حزيران 1989 وتقديم الصين اعتذاراً عنها. كما أحيت الإدارة الأميركية هذه الذكرى وأصدرت بياناً يطالب بمحاسبة بكين.»(17)، ولا يقلّ شجب الاتحاد الأوروبيّ لتلك القضية عن الأميركيين، إذ «ذكرت المفوضية الأوروبية، الذراع التنفيذية للاتحاد الأوروبي، أن الاتحاد الأوروبي لا يزال يشعر بالأسى على ضحايا الحملة الدامية التي شنتها الحكومة الصينية على ميدان تيانانمين في العاصمة بكين قبل 30 عاماً.»(18)، المذبحة العنيفة بنظر الأميركيين والأوروبيين، هي حادثة مؤسفة بنظر الصينيين!! حراك تيانانمين الخطير الذي امتدّ بين 15 نيسان و4 حزيران 1989، خلّف حوالي 300 قتيل حسب التقديرات الصينية أو حوالي 10000 قتيل حسب التقديرات الغربية، بالإضافة إلى ألوف الجرحى... وهو مفصل هامّ بالنسبة للقيادة الصينية العليا: ثبّتت حكمها في الداخل وانطلقت لتبرّر حضورها

السياسيّ والاستخباريّ القويّ، على مستوى العالم!!

انتقلت هونغ كونغ وهي مركز اقتصاديّ رائد ومزدهر، من السيادة البريطانية إلى الإدارة الصينية في 1 تمّوز 1997... وتحوّلت السيادة على ماكاو من البرتغال إلى الصين الشعبية في 20 كانون الأوّل 1999... كما و«جرت الانتخابات الرئاسيّة في تايوان في 18 آذار 2000 وفاز فيها مرشح الاستقلال عن الصين، إلّا أن الحرب لم تبدأ بين البلدين وربما لن تبدأ أبداً. وربما كان الهدف من المناورات العسكرية الصينية قبالة السواحل التايوانية والتهديد بالحرب في حال إعلان الاستقلال عن الصين، هو تذكير التايوانيين أوّلاً وأخيراً بأنّ تايوان هي أرض صينية وستعود إلى الأرض الأمّ مهما طال الزمن.» [19]، هكذا برزت الصين الشعبية في ذروة القوّة الاستراتيجية، مركّزةً على الدهاء السياسيّ الشامل!! لقد اهتمّ الصينيون، بتأمين مجالهم الحيويّ، من كلّ خطر محتمل، عبر سياسة هادئة وطويلة الأمد، ورؤية ديبلوماسية محكمة... وقد تمّ للصينيين ذلك خلال الحرب الباردة الثانية وما قبلها مباشرةً، لتصبح الصين على أتمّ الاستعداد لتبوأ سدة القيادة اقتصادياً عالمياً، بعد انحسار الكورونا كوفيد 19...

وخلال الحرب الباردة الثانية، قوي حضور الصين اقتصادياً، وقد توسّعت علاقاتها الاقتصادية والتجارية عبر العالم: في كافة القارات، ومع عدد كبير من البلدان... وقد أزعج ذلك الأميركيين بالفعل، خصوصاً مع الرئيس دونالد ترامب الذي حاول جاهداً مواجهة النجاحات الاقتصادية الصينية... ويبدو، بعد انحسار الكورونا كوفيد 19، وانطلاق ما سيُعرف بالحرب الباردة الثالثة، أنّ الصين ستغدو القوّة الاقتصادية الأولى في العالم، وزعيمة المعسكر الشرقيّ في مواجهة الولايات المتّحدة الأميركية!!

في مواجهة تحدّيات الزمن القادم، أوروبا، القارة العجوز، تقاوم.

لم تكد أوروبا القارة العجوز تخرج من الحرب العالمية الأولى العنيفة وما تركت من خراب ودمار وضحايا ومشرّدين... إلّا لتدخل في آتون الحرب العالمية الثانية المدمّرة والأكثر عنفاً، وقد انتهت هذه الحرب الطويلة والشاقة وأوروبا مثخنة بالجراح والعذابات على إثر المشاريع الفاشية والنازية، الجنونية والعبثية... وستطلّ أوروبا بعد نهاية هذه الحرب، على الحرب الباردة الأولى، بين الجبّارين الأميركيّ والسوفياتيّ، حرب استخبارية خطيرة على مدى الساحات الأوروبية، ستنتهي بسقوط الاتحاد السوفياتي والمنظومة الشيوعية، بالضربة القاضية... وستكون أوروبا، على باب الألفية الثالثة، بعد فترة من الهيمنة الأميركية شبه الكاملة، على موعدٍ مع الحرب الباردة الثانية، ولها خصائصها المميزة!!

مشروع الوحدة الأوروبية الجريء، والذي قادت إليه تداعيات الحرب العالمية الثانية، وأرسى دعائمه التواصل الاستراتيجيّ بين الرئيس الفرنسيّ التاريخيّ - محرّر فرنسا خلال الحرب - الجنرال شارل ديغول والمستشار الألمانيّ الغربيّ المؤسّس كونراد أديناور، بات في خضمّ الحرب

البــاردة الثانية وبدايات الألفية الثالثة، أمام أخطارٍ شتّى: طموحات الحليف الأميركيّ السياسية الكثيفــة، نــزوات الرفيق البريطانيّ وتقلّباتــه الغريبة، قدرات الفريق الروســيّ الحاضرة بقوّة – ولــو غابت بين حينٍ وآخر – خصوصــاً على المستوى الاستخباريّ، التقــدّم الصينيّ الاقتصاديّ الملحــوظ، الأزمات الاقتصاديــة والاجتماعية والصحيــة المتواصلة، وحــراك الإرهاب العالميّ المُترابط والجريء... ورغم كلّ ذلك، فالمشروع الأوروبيّ يتقدّم ويتطوّر!!

أمّــا أبرز ضربــة تعرّض لها المشروع الأوروبيّ المُشترك فهــو انسحاب المملكة المتّحدة من الاتحــاد الأوروبــي أو ما عُــرف ب البريكست وقد بدأ هذا المسار بعــد الاستفتاء الذي حصل في 23 حزيران 2016 حيث صوّت 51.9 % لصالح الانسحاب!! أمّا تاريخ الخروج الفعليّ فقد حُســم وحُدّد بدءً مــن يوم 31 كانون الثانــي 2020 وصولاً إلى الخروج النهائــيّ والحاسم يوم 31 كانون الأوّل 2020 الساعة 23 تماماً!! وقد «بدأت المملكة المتحدة عهداً جديداً بإتمام انفصالهــا رسمياً عن الاتحــاد الأوروبي. وتوقفــت بريطانيا عن تطبيق قواعــد الاتحاد الأوروبي الخميســ فــي تمام الساعــة الحادية عشرة مساء بتوقيــت غرينيتش، وبدأت فــي المقابل تطبيق إجــراءات جديدة على أصعدة السفر، والتجارة، والهجــرة، والتعاون الأمني. وقال رئيس الوزراء البريطانــي بوريس جونسون، إن بلاده أصبحت تمتلــك حريتها في يديها، ويجب أن تستفيد منها إلــى أقصى حد. وجــاءت تصريحات جونسون الخميس، قبيل ساعــات قليلة من خروج بريطانيا رسميــاً من الاتحاد الأوروبي (بريكست) منتصف ليل آخر يــوم في العام الماضي 2020. ومع العام الجديد 2021 ستدخل التغييرات التاريخية لقواعد السفر والتجارة والهجرة والأمن حيز التنفيذ، لتبدأ بريطانيا حقبة جديدة من العلاقات مع القارة الأوروبية.» [(20)].

ومــع انطلاقة سنة 2021، وفي مرحلة انتقالية حرجة ودقيقــة، وفي خضمّ انتشار فيروس الكورونا، فإنّ «خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي بسرعة فرض عبئاً لوجستياً وتنظيمياً وإدارياً لــم تكن العديد من الشــركات مستعدة لتحمله، وفي ظل الجائحة وخوضــ البلاد جولة ثالثة من الإغلاق لن يؤدي ذلك إلا إلى زيادة الوضع سوءاً، وحسب المحللين فإن الاقتصاد يتجه نحو ركود مزدوج.» [(21)]. خطوة صعبة لكنّها تبدو ضرورية للجميع!!

أنهى المسار الجديد للعلاقة بين بريطانيا والاتحاد الأوروبيّ مرحلة زمنية من عدم الانسجام والأزمــات المترابطة. «غادرت مليــارات الدولارات في الرابع من كانون الثاني الحالي – أول أيام التــداول فــي العــام الجديد – المملكــة المتحدة إلى دول الاتحــاد الأوروبي، كمــا انتقل ما قيمته 6 مليــارات دولار مــن أسهم تداول شملت أسهم بنوك فرنسية وشركات سيارات ألمانية، من العاصمــة البريطانية لندن إلى مراكز مالية أوروبية بديلة مثــل باريس وأمستردام. هذا ما قالته صحيفــة إندبندنت البريطانيــة، وكان التحول نتيجة مباشرة للوائح الاتحــاد الأوروبي المالية ما بعد اتفاق البريكست التي تنص على أن المبادلات التجارية لشركات الاتحاد – مثل فولكس فاغن

وإيرباص وبنك بـي إن بي باريبا ينبغـي أن تبقى تحويلاتهـا المالية داخل بلـدان الكتلة.» [22]، لقـد كانت تداعيات البريكسـت على المملكة المتحـدة قاسية، ولكنّ القـرار البريطانيّ كان في نهايـة الأمر حاسماً، وكأنّ تلك العلاقة المعقّدة أصلا ساهمت في الحدّ من نجاح تجربة الاتحاد الأوروبيّ الرائدة!! لأوروبا أن تبدأ حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بعيداً عن الأفكار والخطط والطموحات البريطانية!!

وعلـى مدى تجربة الاتحـاد الأوروبيّ التاريخية، منـذ التفاهم الاستراتيجـيّ بين المستشار الألمانيّ الغربيّ كونراد أديناور والرئيس الفرنسيّ الجنرال شارل ديغول، كانت العين البريطانية الثاقبـة تراقـب نبض القلب الأوروبيّ أكثـر ممّا تشترك اليـد البريطانية في تثبيـت دعائم هذا الاتحـاد!! وبـدل أن تشهـد مرحلة الحـرب البـاردة الثانيـة (2000 - 2020) علـى الحذر الأوروبيّ من خطرٍ روسيّ محتمل، كان الخلاف بين الطرفين الأوروبيّ والبريطانيّ يتفاقم وصولاً حتّـى الانفصـال النهائيّ والطلاق الحاسم بيـن الفريقين!! وطوال الحرب البـاردة الثانية، أخذ الاختلاف في وجهات النظر يتفاقم بين الفريقين البريطانيّ من جهة والأوروبيّ من جهة ثانية... فكيـف إذا كان على رأس القيادة الروسية قائد جـريء واستراتيجيّ، كالرئيس فلاديمير بوتين!! لقـد استطاع الرئيس بوتين الاستفادة إلى أقصى حدود ممكنة من هذا الخلاف الاستراتيجيّ... إذاً، لماذا أخذت ترجمة هذا الخلاف البريطانيّ – الأوروبيّ، على أرض الواقع، كلّ هذا الوقست الثميـن؟ طبعاً، الأسبـاب ليست سياسية أو أمنية، بل هي اقتصاديـة بالدرجة الأولى!! كان يجب ترتيب انسحاب بريطانيا من الاتحـاد الأوروبيّ، بأقلّ أضرار ممكنة على المستويات الاقتصادية والمالية والنقدية، سواء على الاتحاد الأوروبيّ، أو على البريطانيين أنفسهم... حتّى لو أدّى ذلك إلى تداعيات سياسية واستراتيجية، خطيرة للغاية، على الطرفين!!

الاتحاد الأوروبيّ، الذي أرسى أسسه الأولى تفاهم ديغول – أديناور، تجربة رائدة وهامّة!!

"الإتحاد الأوروبي منظمة دولية وليس إتحاداً فدرالياً كالولايات المتحدة. فهو يشبه منظمة الأمم المتحدة الأميركية، كونه يتميز بنظام سياسي فريد من نوعه في العالم، له سوق اقتصادية واحـدة (السوق الأوروبية المشتركـة) وعملة موحدة (اليورو). وهو يتمتـع بمقدار من السلطات والصلاحيـات التي منحتها دوله لمؤسسات الاتحاد المشتركة، لكن هذه الدول لم تصل في ذلك إلـى حد تخليها عـن سيادتها لمصلحة الإتحـاد، بل تنازلت عن بعض مصالحها بهدف تحقيق المصالح المشتركة في إتحاد يوفر لها القوة والتأثير في العالم.» [23]، وبات الاتحاد الأوروبيّ إثر زمن الكورونا كوفيد 19، وتخلّي البريطانيين عنه، أمام تحدّيات كبرى ومخاطر شتّى!!

لا بدّ لزمن الكورونا أن ينتهي!! وأوروبا القارة العجوز القادرة على التكيّف مع كافة الظروف، الباحثـة عن السلام والأمـن في مواجهة تحدّيـات الإرهاب والأزمات الاقتصاديـة والاجتماعية والماليـة، تستطيع رغم خروج بريطانيا الحاسم من الاتحاد الأوروبيّ أن تتميّز وتتألّق في منطقةٍ

وسطى بين معسكر شرقيّ بزعامة الصين وروسيا ومن يحالفهم، ومعسكر غربيّ بزعامة الولايات المتّحـدة الأميركية وبريطانيا ومن يحالفهم، خلال مـا سيُعرف بالحرب الباردة الثالثة... وهذا أمر ضروريّ وهامّ استراتيجياً!!

العالم الثالث، لا يهدأ أبداً

أرضٍ خصبــة للحروب العسكريــة أثناء الحرب البــاردة الأولى بالنيابة عــن الدول العظمى والجبّارين الأميركيّ والسوفياتيّ، وللأزمات الاقتصادية والمالية والاجتماعية، بات العالم الثالث دولاً وأنظمــةً ومجتمعــات، على أبواب الألفية الثالثة، ومع انبثاق الحــرب الباردة الثانية، مُختبراً للصــراع بين الروسـ والصينيين من جهة، والأميركيين والغربيين مــن جهة أخرى، تحتشد بين ثناياه، صراعات كبيرة ومواجهات كثيرة وأزمات خطيرة!!

لــم تتعلّــم دول وأنظمة العالــم الثالث، من تجارب الحــرب الباردة الأولــى، العبر الضرورية والحكـم الرئيسية والدروسـ النوعية، إلّا القليـل القليل... ولذلك ستكون نتائــج الحرب الباردة الثانيــة أقســى وأعتى، على هذه الدول والأنظمة، من نتائج الحــرب الباردة الأولى... وعلى سبيل المثـال لا الحصر، هل يمكن اعتبار الربيــع العربيّ الغامض - وضمناً التجربة الداعشية الغريبة - جـزءاً مــن الحرب الباردة الثانية؟؟ حكماً!! نعم. فقد بـدأت الثورات العربية المنبثقة من هذا الربيــع بأهداف استراتيجيــة واجتماعية وسياسية هامّة، وانتهت بنتائــج كارثية للغاية... فتحت المجــال أمــام التدخل المُباشــر للجبّارين الأميركــيّ والروسيّ، ودول أخرى طموحــة إلى تعزيز مجالاتها الحيوية، وتحقيق أهدافها البعيدة المدى...

العالــم الثالث، علــى باب تحدّيــات كبيرة، فــي سبيل الســلام والأمن والتنميــة المستدامة والاستقــرار الشامل والازدهار الاقتصــاديّ... و"في ضوء انكشاف النظام الدولي عقب السقوط المدوي للاتحاد السوفياتي، وفي ظل فقدان التوازن في القيادة الدولية بعد ذلك، راح العالم يشهد تنافساً محموماً بين القوى الكبرى تأتي في طليعتها الولايات المتحدة الأميركية، الصين وروسيا الاتحادية. راحت هذه القوى الثلاث تفتّش عن عناصر قوّة لتجنيدها في طموحاتها الجيوسياسية فــي توليــد نظام دولي جديــد لقيادة العالــم، ففي الوقت الــذي أرادت الولايــات المتحدة نظاماً يبقيهــا على أحاديتها القطبيــة، رأت، بالمقابــل، الصين وروسيا ومعهمــا دول عديدة أخرى في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، فرصة لصياغة علاقات دولية تأخذ بمبدأي المشاركة والتوازن والتعدديــة القطبية."[24]، وفي خضمّ الحرب البــاردة الثانية الخطيرة 2000 - 2020، بات العالم الثالث مسرحاً خصباً للتنافس بين تلك القوى الكبرى!!

وتقف القارة السمراء في قلب الحرب الباردة الثانية على حافة الصراع بين كافة الأطراف، دون أن تستطيــع تحقيــق التنميــة المطلوبة والمستدامــة!! «ليس لدى القارة رفاهيــة الانحياز أو

الحياد بين طرفي النزاع الاقتصادي، إذ إن اعتمادها في السنوات الأخيرة على الصين قد ضيّق من قدرتها على المناورة بين الدول الكبرى، وأوقعها في ديون سيادية لم تكن أبداً بديلاً للإستعمار الأوروبي أو الهيمنة الأميركية.»[25]، أفريقيا مسرح خصبٌ وخطير، للصراع بين المعسكرين الشرقيّ والغربيّ، وخصوصاً في المستقبل الآتي!!

على امتداد ما يُعرف بالعالم الثالث، دولاً ومجتمعات، نقاط باردة مؤجّلة في لعبة الكبار، ولكن أيضاً نقاط ساخنة شديدة الاشتعال والتمدّد... بلدان تحاول الصمود جاهدةً، وأنظمة لا تبتغي إلّا إطالة عمرها ووجودها ولو على حساب سلسلة من الأزمات لا نهاية لها... وفي خضمّ الحرب الباردة الثانية (2000 - 2020)، لا بدّ من جولة شاملة على أهمّ المناطق الساخنة على مستوى العالم الثالث، في الصراع بين الدول الكبرى:

الشرق الأوسط الذي لا يهدأ ولا يستكين: بين طموحات الدول الكبرى اتفاقاً أو اختلافاً، والأحلام التوسعية التركية، والمغامرات العدوانية الإسرائيلية، والمخطّطات الإيرانية الطويلة المدى... حتّى تمدّد الربيع العربيّ، من حيث قصد أو لم يقصد، معيداً عقارب الساعة إلى الوراء: حرب سورية طويلة أنهكت الجميع، وسلسلة أزمات أمنية في العراق، وتمدّد داعش بين البلدين قبل انحسارها... ناهيك عن مآسي لبنان الاقتصادية والاجتماعية والانفجار الدامي في بيروت - 4 آب 2020 -، والصراعات المتواصلة في اليمن حتّى التدخّل السعوديّ والخليجيّ المباشر... ومن خارطة الطريق إلى صفقة القرن، يبدو الحلم الفلسطينيّ بدولة مستقلّة عاصمتها القدس صعباً، ولكن أكيداً بفضل إرادة شعبٍ صامدٍ لا يخشى الموت في سبيل الحقّ!! ويخشى أن لا يكون الوقت في صالح السلام العادل والسالم في منطقة ملتهبة كالشرق الأوسط!! إلّا إذا قرّرت الأمم المتّحدة والدول الكبرى إيجاد الحلّ العادل للقضية الفلسطينية أخيراً... عبر دولة فلسطينية عاصمتها القدس، في سلام مع الكيان الإسرائيليّ، برعاية عربية ودولية!!

لم يثمر الربيع العربيّ في نقل المنطقّة العربية والشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى واقع جديد ومغاير، حيث الديموقراطية والحرية والعدالة والأمل... «لكن ثمار الربيع العربي المنتظرة لم تزهر كما توقعت الشعوب. في 2019، عنون الكاتب الأمريكي نوا فيلدمان كتابا حول الموضوع بـ الشتاء العربي، وهو مصطلح ظهر هنا وهناك مع عسكرة الثورات وصعود التطرف الديني واندلاع الحروب والنزاعات. على غلاف الكتاب الخلفي، كتب الأكاديمي البارز مايكل إغناتيف أن المؤلف يسلط الضوء على أحد أهم الأحداث في عصرنا: الفشل المأساوي للربيع العربي. فباستثناء تونس، لم تملأ أي إصلاحات ديمقراطية الفراغ الذي خلفه سقوط الأنظمة، وعلا صوت العنف.» [26].

ولا تزال القارة الأفريقية، في عين العاصفة، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية!! ومن الأهمية بمكان، الاستفادة من تجارب الحرب الباردة الثانية وتداعياتها على مناطق أفريقيا التي بقيت

ساحــات صراع بين الكبار، ولو بشكلٍ غيــر مباشر!! فأفريقيا، وخصوصاً المناطق الفقيرة منها، بحاجة إلى تحييدها وتوجيهها نحو التنمية المستدامة، برغبة دولية أكيدة!!

أمّا بالنسبة لأميركا الجنوبية فقضاياهــا معقّدة، وأزماتها الاجتماعية والسياسية متواصلة: فنزويلا مثالاً!! بين دعم المعسكر الشرقيّ للرئيس هوغو تشافيز (2002 - 2013)، ولخلفه الرئيس نيكولاس مادورو (منذ 2013)، ودعم المعسكر الغربيّ للمعارضة، وأخيراً بقيادة رئيس الجمعية الوطنية خوان غوايدو، والذي نصّب نفسه رئيساً مطلع 2019... تعيش فنزويلا أزمات حــادّة ومترابطة ومستمرّة على كافــة المستويات، والوضع المتأزّم يــزداد تفاقماً: «1) التضخم وصــل الى مستوى مــروع. 2) الناتج المحلي في تدهور. 3) الســكان يعانون من الجوع. 4) شح الــدواء. 5) انخفاض إنتاج النفط. 6) العديد مــن الفنزويليين يهجرون البلاد. 7) دول العالم منقسمة حول الجهة التي ينبغي دعمها في فنزويلا.»[27]، ناهيك عن تداعيات الكورونا... لذلك تعــدّ فنزويلا من ساحات الصــراع الرئيسية بيــن المعسكرين الشرقيّ والغربــيّ، خلال الحرب الباردة الثانية!!

الكورونا، والتغيير الآتي!!

فيروســ الكورونــا الخطير، الذي تمدّد عبر العالم سنــة 2020، انطلاقاً من الصين، أعاد إلــى الأذهان، الإنفلونــزا الإسبانية التي عصفت بالعالم عقب الحــرب العالمية الأولى!! وإن كان لفيروســ الكورونا تأثيرات هامّة على كافة المستويات السياسية والأمنية والصحية والاقتصادية والاجتماعيــة... فسيمتــدّ دوره إلى مفاصــل أكثر أهميّة في تاريخ الإنسانيــة الحديث والمُعاصر، بحيث سيكون فيروس الكورونا معبراً حتمياً إلى عالم جديد، له خصائصه وميزاته وأبعاده...

فيروس الكورونا فاصلٌ رئيسيّ ما بين الحرب البّاردة الثانية التي ستمتدّ لما يُقارب العشرين عامــاً (2000 - 2020) والحــرب الباردة الثالثة التي ستعقب حكماً زمن الكورونا، على ضوء التقــدّم الصينــيّ في كافة المجالات وخصوصــاً اقتصادياً على حســاب الأميركيين، وبالتحالف مــع الروســ، ممّا يفاقم آلية الحرب الباردة مــن جديد!! وللكورونا كمــا للإنفلونزا الإسبانية من قبل، أهداف استراتيجية!! كثير من خصائص فيروس الإنفلونزا الإسبانية لا نعرفها حتّى اليوم، بــدأ منتصف سنة 1918 وانتهى ربيع سنة 1920، حينمــا استطاعت الطبيعة السيطرة عليه تدريجيــاً، فاندمــج بالإنفلونــزا العادية. وهكذا فيروســ الكورونا كوفيد 19، بــدأ منتصف سنة 2019 ويُرجّح أن يتبدّد قريبًا، دون أن ندرك كلّ خصائصه!!

تداعيــات الكورونا على المستوى السياسيّ العالميّ العامّ تمتدّ وتشتدّ، فبالإضافة إلى التقدّم الاقتصاديّ الصينيّ المستمرّ وقيادة الصين للمعسكر الشرقيّ بمواجهة الأميركيين، «يشكل هذا الفيروســ تهديداً حقيقياً لركائز النظــام العالمي الجديد، إذ يتوقع أن المرحلة اللاحقة للقضاء

عليـه ستشهد تحالفات جديدة بيـن دول كان بينها عداء إيديولوجي وسياسي في مراحل تاريخية طويلـة مثل بعض الدول الأوروبية والصيـن...»[28]، زد على ذلك، أنّ الرئيس الصينيّ نفسه شي جيـن بينغ، حذّر من حرب باردة جديدة، لدى افتتاحه منتدى دافوس الاقتصادي الافتراضي في كانون الثاني 2021!!

الكورونـا - كوفيـد 19، منعطـف خطير فـي تاريخ الإنسانيـة ومفصل في مسـار العلاقات الدوليـة والجيوستراتيجيـة!! «وتوقع هنري كيسنجـر وزير الخارجية الأميركـي الأسبق، أن وباء كورونا سيدخل تعديلات في النظام العالمي، وأن تداعياته ستستمر لأجيال عدة. وسيشهد العالم إضطرابـات سياسية واقتصادية كبيرة. وأن الولايات المتحـدة في ظل الانقسام السياسي الذي تعيشـه اليوم تحتاج إلى حكومة من ذوي الكفـاءة العالية للتغلب على العقبات غير المسبوقة على المستوييـن المحلي والعالمـي.»[29]، لذلك يتمّ تقديـر الدور المركزيّ للكورونـا في دعم وصول الرئيـس الأميركـيّ جو بايدن - ولو بشكلٍ غير مباشر - إلى سـدة الرئاسة في 20 كانون الثاني 2021، على حساب ولاية ثانية لسلفه دونالد ترامب!!

يعتقـد بعضـ الباحثين على مستوى العالم - وبعض البـاحثين الروس خصوصاً - أنّ الكورونا كوفيـد 19 جـاءت بمثابة البديل عـن الحرب العالمية الثالثـة - التي لو حصلـت لدمّرت الكرة الأرضية بسبب القدرات النووية المتزايدة للدول العُظمى - وفي كلّ الأحوال فقد تضمّنت مرحلة الكورونـا سلسلة من الألغاز تحتـاج إلى سنينٍ لتفسيرها وتحليلها... إلّا أنّ أهم تداعيات الكورونا أنّها ستنقل العالم من زمن الحرب الباردة الثّانية إلى زمن الحرب الباردة الثالثة!!

ومن أبرز سمات العالم الجديد، بعد الكورونا: «في وقت يسعى فيه مئات الملايين من البشر إلـى فهم طبيعة فيروس كورونا وكيف ومتى سيزول خطره، ذهبت مجلة فورين بوليسي إلى ما هو أبعـد بمحاولة خلق تصـور لما سيكون عليه شكل العالم سياسيـاً واقتصادياً بعد الأزمة الحالية. المجلـة وجهت سؤالها لعدد مـن المفكّرين وكانت تصوراتهم كالتالـي: صعود الحركات القومية والطـارئ سيدوم وانتقال في ميزان القوى العالمـي، نهاية العولمة بشكلها الحالي، بدل أميركا.. الصين المركز الجديد للعولمة، صعود القومية والنظام السلطوي حتى في الدول الديموقراطية، تغييـر في شكل العلاقات الدولية وزيادة في سطوة الحكومـات، رأسمالية جديدة.»[30]، كلّ هذه التغييرات الهامّة رهن بالمدى الزمنيّ لاستمرارية الكورونا كوفيد 19!!

التغييـرات السياسية والصحية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية، التي ساهمت في فرضها الكورونـا - كوفيـد 19، كانت وستكون كافيـة لنقل المشهد العالميّ من الحـرب الباردة الثانية، إلـى الحرب الباردة الثالثة، في المستقبل القريب الآتـي!! وفي مقدّمتها طبعاً وصول الرئيس جو بايدن إلى سدّة الرئاسة الأولى في واشنطن، بالإضافة إلى أزمات صحية واجتماعية واقتصادية مترابطة في أكثر من مكان، وتداعيات سكانية وديموغرافية حتمية...

اجتهـدت الشـركات العالمية المتخصصة ومراكز الأبحاث العلميـة لإيجاد لقاحات مناسبة للكوروما كوفيد 19، للحدّ من انتشاره وتطوّره!! وقد برزت سلسلة لقاحات نوعية وهامّة: سبوتنيك – فــي، أسترازينيكا، مودرنا، فايـزر– بيونتك، نوفافاكس، جونسون آنـد جونسون، سينوفارم... جهد إنسانيّ إيجابيّ، ولكن من الأهمية بمكان إيجاد الدواء المناسب والحاسم والناجع للكورونا كوفيد 19 قريباً... ولا بدّ من «جدول يقارن بين لقاحات كورونا الموجودة حالياً من حيث السعر والفعالية والجرعات ودرجة حرارة التخزين»[31]:

خاتمة.

مـن الحرب العالميـة الأولى (1914 - 1918) إلى الحـرب العالمية الثانية (1939 - 1945) وما بينهما مرحلة من الاضطرابات السياسية والعسكرية والاقتصادية (1918 - 1939)... ومـن الحـرب الباردة الأولـى (1947 - 1991) إلى الحـرب الباردة الثانية (2000 - 2020) ومـا بينهمـا مرحلـة مـن الأزمات عبـر العالـم (1991 - 2000)... ومـن الإنفلونـزا الإسبانية (1918 - 1920) إلى الكورونـا كوفيد 19 (2019 - 2021) ومـا بينهمـا انتشار لكثير من الأوبئـة والفيروسات والأمراض عبر العالـم... لم تعرف الإنسانية في تاريخها الحديث والمُعاصر، الأمن الشامل المطلوب، والازدهار الاقتصاديّ الدائم، والسلام العالميّ المنشود... لعلّها، بعد زمن الكورونا كوفيد 19، تصحو على عالمٍ جديد من الأمل والأمن والأمان، والبحبوحة والعدل والسلام!!

تشـكّل تجربة رئيس جنـوب أفريقيا الزعيم التاريخـيّ والقائد الاستثنائـيّ نيلسون مانديلا علامـة فارقة فـي المسار الإنسانيّ والمجتمعيّ!! فلقد تحدّى مانديلا بـإرادة صلبة وصبرٍ عظيم نظـام التمييز العنصريّ التوتاليتاريّ العنيد، سجناً واضطهاداً وصموداً وأملاً، حتّى قضى عليه، وعـدّ انتصاره نوعيـاً وهامّاً... ولقد بات نيلسون مانديلا، بالنسبة لشعـوب العالم الثالث التائقة إلى الحرية والازدهار والتقدّم، القدوة والمثال!! كما تألّق كرجل دولةٍ مارس الديموقراطية بأبهى معانيها، وتقصّد حماية الكرامة الإنسانية!!

لقـد اتخذ الرئيس الروسـيّ فلاديمير بوتين القرار الحاسم: عودة روسيا الاتحادية بقوّة إلى الساحـات الدولية، ولو اقتضى الموضوع مواجهةً استخباريـة حادّة مع الأميركيين خلال الحرب البـاردة الثانية، بعدما كاد المشروع الأميركيّ بإنهـاك روسيا ينجح في الفترة الممتدّة بين ولاية الرئيـس السوفياتيّ الأخير ميخائيل غورباتشيف والرئيس الروسيّ الأوّل بوريس يالتسن... أحكم الرئيس فلاديمير بوتين قبضته الحديدية في الداخل، فأقصى مراكز القوى والمافيا الاقتصادية، وكلّ معارضة مدعومة من الغرب، وصولاً حتّى تجربة أليكسي نافالني... وعمل على حماية وصيانة المجـال الحيويّ لروسيا: أعاد الشيشان إلى الحضن الروسيّ، ووضع حدّاً للطموحات الجورجية،

وحاصـر الأحلام الأوكرانية في مهدها فضمّ القرم - المنطقة الاستراتيجية - إلى روسيا، ووفّق بيـن أرمينيا وأذربيجان في سبيـل المصلحة الروسية المطلقة، وتدخّل فـي سوريا فارضاً كلمته الفاصلـة، على مسافة من الدهاء السياسيّ بين القدرات الإيرانية والطموحات السعودية والآمال التركيـة، وتفوّق حضوراً سياسياً واستخبارياً في البلقان، وبـات الحاكم والحكيم والحكم، وكأنّه القيصر الروسيّ الجديد في مطلع الألفية الثالثة...

رجـل الأعمـال الأميركيّ النـاجـح دونالد ترامب، لم يكـن ناجحاً في توقّعاتـه الاستراتيجية وتصرّفاتـه السياسية... فقد اتهمت جهات استخبارية أميركية الرئيس الروسيّ فلاديمير بوتين بدعـم الرئيـس الأميركيّ ترامب في مسيرتـه السياسية والانتخابية، وهذا مـا أفاد بوتين سطوةً وحضـوراً... وتعمّد ترامب خلال ولايته الرئاسية التهجّـم العلنيّ على الصين الشعبية، في سبيل وضـع حدّ لطموحاتهـا السياسية والاقتصادية، وجاءت نتيجة خطاباتـه الكثيرة - بعكس ما أراد - مفيـدةً للجانب الصينيّ، الـذي زادت شجاعته في مقاربة الملفات الدولية... القيادة الصينية الشيوعيـة العليـا، التي عـزّزت حضورها في الداخـل، بعد قمع حـراك تيانانميـن الشعبيّ سنة 1989، واستعادت هونغ كونغ من البريطانيين سنة 1997، وماكاو من البرتغال سنة 1999، وأبقـت عينها على تايوان جارتها الصغرى، انطلقت في مسيرةٍ اقتصادية كبرى عبر كلّ القارات والبلدان، اتفاقات تجارية ونجاحات اقتصادية وإنجازات مالية... إنّه الزمن الصينيّ!!

وبعد، مع توقّع الرئيس الصينيّ خلال منتدى دافوس الاقتصاديّ الافتراضيّ مطلع 2021، أن تنشـأ حرب باردة ثالثة بعد انحسار الكورونـا كوفيد 19... وسيكون المعسكر الشرقيّ بقيادة الصيـن طبعاً... تصدّعت الجبهة الأوروبية خلال هـذه الفترة الزمنية 2000 - 2020، عبر البريكسـت ومسـاره الطويل والحادّ وانسحاب بريطانيا التدريجـيّ فالكامل من الاتحاد الأوروبيّ لتلتحق بحليفتها الدائمة الولايات المتّحدة الأميركية زعيمة المعسكر الغربيّ... فبات لزاماً على أوروبـا أن تستعيـد زمنهـا السابق الساطع - مع تفاهـم الرئيس الفرنسيّ الجنـرال شارل ديغول والمستشـار الألمانـيّ الغربيّ كونـراد أديناور - لتلعب فـي المستقبل الصعب الآتـي، دوراً رائداً وناجحاً وفاعلاً، في المنطقة الوسطى بين المعسكرين الشرقيّ والغربيّ...

ولن تنتهي معاناة العالم الثالث إلّا بتحرّر بلدانه من تبعات مصالح الدول الكبرى المترابطة والمعقّدة!! وكم عانى هذا العالم خلال الحرب الباردة الثانية 2000 - 2020: الربيع العربيّ وقـل أنّـه الخريف العربـيّ، الذي زرع الأزمـات في سوريا والعـراق ولبنان ومصـر وليبيا وتونس والسودان واليمن... بعضها انتهى، وبعض الأنظمة استقرّ، وما زالت مناطق ساخنة على مدى من الصراعات المتفاقمة... كلّ ذلك والقضية الفلسطينية الأمّ لم تبصر السلام العادل والشامل... ومـن خارطـة الطريق إلـى صفقة القرن، ومـن انتفاضـة فلسطينية إلـى الأخرى، يظـلّ الحلم الفلسطينـيّ بدولة مستقلّة عاصمتها القدس قائماً وثابتاً، وتبقى الانتهـاكات الإسرائيلية كثيرة

وعنيفة، ولا ينتهي الأمل بالسلام أبداً... كيف إذاً؟ فالأمم المتّحدة والدول الكبرى والمنظمات الدولية المختصّة تدرك أنّ إيجاد الحلّ المنطقيّ للقضية الفلسطينية، يفتح الطريق أمام فرص السلام واحتمالات التطوّر الاقتصاديّ والانتعاش الماليّ، في منطقة الشرق الأوسط... وإلى الشرق الأوسط، تواجه القارة السوداء أفريقيا الكثير من التحدّيات الاقتصادية والصحية والاجتماعية، حيث لا تزال أفريقيا بحاجة إلى دعم الأمم المتّحدة وإلى التنمية المستدامة والمشاريع الهادفة... بينما هي اليوم، في خضمّ صراعٍ اقتصاديّ وتجاريّ قويّ بين الصين الشعبية العملاق الاقتصاديّ الآتي، والولايات المتّحدة الأميركية القوّة الاقتصادية التقليدية منذ الحرب العالمية الثانية... كما تشتدّ معاناة أميركا الجنوبية، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، في خضمّ الحرب الباردة الثانية، كما عانت خلال الحرب الباردة الأولى، من الصراع المفتوح بين الدول العظمى على امتداد العالم الثالث... وخير مثالٍ على هذه المعاناة، فنزويلا، التي أشرفت على انهيارٍ ماليّ شامل، في خضمّ صراعٍ بلغ أشدّه منذ 2019، بين الرئيس نيكولاس مادورو – خليفة الرئيس هوغو تشافيز – المدعوم بقوّة من المعسكر الشرقيّ، ورئيس الجمعية الوطنية خوان غوايدو، الذي نصّب نفسه رئيساً، بدعم هامّ من الولايات المتّحدة والمعسكر الغربيّ... ناهيك عن التأثيرات الهائلة لانتشار جائحة الكورونا كوفيد 19 في دول العالم الثالث، خصوصاً في أميركا الجنوبية، حيث زادت التحدّيات الخطيرة بالنسبة لهذا العالم، دولاً ومجتمعات...

إلّا أنّ الكورونا ستنتشر عبر العالم، انطلاقاً من مدينة ووهان الصينية، أواخر سنة 2019، لتشكّل مادّة للصراع السياسيّ بين الصين الشعبية والولايات المتّحدة الأميركية، إبّان ولاية الرئيس دونالد ترامب، ولتفتح الباب على مصراعيه لدراسة تطوّر وانتشار الأوبئة والفيروسات منذ الإنفلونزا الإسبانية أواخر الحرب العالمية الأولى، حتّى الكورونا كوفيد 19 الحالية... وكأنّ العالم لم يكن على استعداد لاستقبال هذه الجائحة، بالرغم كلّ ما مرّ قبلها من أوبئة وفيروسات... يقيناً أنّ لموجات الكورونا الحالية، نهاية محتملة مقدّرة سنة 2022... إلّا أنّها حتماً ستنقل العالم من زمن الحرب الباردة الثانية إلى زمن الحرب الباردة الثالثة، حيث الكلمة الأولى والأخيرة للجيل السادس من الحروب والقدرات الاستخبارية الفائقة والاستثنائية، إلّا إذا اقتنع العالم بأهمية السلام والحوار في العلاقات الدولية، لتحصين الأمن وتقديم الأمان وإنتاج البحبوحة الاقتصادية... ومع أنّ التهاون غير ممكن مع الكورونا، والمتحوّرة الهندية دليل أكيد على ذلك، ومع الأهمية القصوى لإيجاد اللقاحات الضرورية لهذه الجائحة، على أنواعها وأشكالها، يبقى إيجاد الدواء الحاسم والنهائيّ، سبيلاً نوعياً للقضاء نهائياً عليها...

العين على العالم الثالث، في مسرح الصراع الحادّ والممتدّ بين الدول العظمى والجبّارين السوفياتيّ-الروسيّ والأميركيّ، وبين المعسكرين الشرقيّ والغربيّ، وفي إطار انتشار الأوبئة والفيروسات ومتحوّراتها، وأفريقيا خصوصاً... والحلّ تغليب لغة المنطق والحوار بين الدول

والمجتمعات والحضارات، وإحلال السلام حيث كان، وإيلاء المراكز البحثية: العلمية والصحية، كلّ الإمكانيات الأكاديمية والمالية لنجاحها، في مكافحة كلّ ما يضرّ بحياة الإنسان...

الهوامش

(1) مذكرات نيلسون مانديلا حواري مع نفسي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2013، ص 14.

(2) مذكرات نيلسون مانديلا حواري مع نفسي، ص 262.

(3) في اليوم العالمي لنيلسون مانديلّا، لمحة عن حياته، ثورته وأشهر أقواله، مايا كنج، النهار، 18/7/2018.

(4) مذكرات نيلسون مانديلا حواري مع نفسي، ص 436، 439.

(5) تقرير، RT - ARABIC برنامج رحلة في الذاكرة، خالد الرشد، كانون الأوّل 2020.

(6) تقرير، RT - ARABIC برنامج رحلة في الذاكرة، خالد الرشد، مقابلة مع الجنرال ألكسندر باندريانكا حول كتابه عن الجنرال يوري دروزدوف والاستخبارات السوفياتية غير الشرعية، كانون الأوّل 2020.

(7) د. ناصر زيدان: دور روسيا في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من بطرس الأكبر حتى فلاديمير بوتين، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الثانية، بيروت، 2013، ص 190، 192.

(8) د. ناصر زيدان: دور روسيا في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من بطرس الأكبر حتى فلاديمير بوتين، ص 194.

(9) بيرنارد لوكومت، أسرار الكرملين، جروس برس ناشرون، الطبعة الأولى، طرابلس، 2019، ص 279.

(10) المعارض الروسي نافالني يخدع عميل مخابرات لكشف تفاصيل عن مؤامرة لقتله، النهار، دوليات، 21/12/2020.

(11) حربا الشيشان، الجزيرة، 31/1/2016.

(12) 25 عاماً على بدء الحرب في الشيشان، 11/12/2019، RT.

(13) الصين «ستصبح أكبر اقتصاد في العالم بحلول 2028»، بي بي سي عربي، 26 كانون الأوّل 2020.

(14) د. جمال واكيم، أوراسيا والغرب والهيمنة على الشرق الأوسط، دار أبعاد، بيروت، الطبعة الثانية، 2017، ص 194.

(15) الرئيس الصيني يحذر من حرب باردة جديدة، النهار العربي، 25/1/2021.

(16) المفاوضات الأميركية - الإيرانية.. فوق سور الصين، 180 بوست، سميح صعب، 4/4/2021.

(17) في ذكرى تيانانمين.. تايوان تدعو بكين للاعتذار وواشنطن تطالب بالمحاسبة، الجزيرة، 4/6/2020.

(18) في ذكراها الثلاثين.. أحداث ميدان تيانانمين في بكين ما زالت تحز في نفس الأوروبيين، يورو نيوز، 4/6/2019.
(19) د. كمال حمّاد، تايوان بين الستراتيجيتين الصينية والأميركية، الدفاع الوطني، العدد 33، تمّوز 2000.
(20) بريكست: بريطانيا تبدأ عهداً جديداً خارج الاتحاد الأوروبي مع بداية العام الجديد، BBC NEWS عربي، 1 كانون الثاني 2021.
(21) بعد أسبوع من البريكست.. الشركات البريطانية تبدأ بالنحيب، الجزيرة، 11/1/2021.
(22) في الأسبوع الأول من البريكست.. مليارات الدولارات تغادر لندن إلى الاتحاد الأوروبي، الجزيرة، 10/1/2021.
(23) د. أحمد علو عميد متقاعد، الإتحاد الأوروبي قوة الإقتصاد لا تترجمها السياسة، الجيش اللبناني، دراسات وأبحاث، العدد 313، تمّوز 2011.
(24) أ. د. محمد مراد، مركزية الشرق الأوسط في قيام نظام عالمي جديد للقرن الحادي والعشرين، الدراسات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية، فصلية تصدر عن مجلة الأمن، العدد 85، كانون الثاني 2021، ص 123.
(25) العميد م. ناجي ملاعب، أفريقيا ما بين العسكرة الأميركية والمديونية الصينية، الدراسات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية، فصلية تصدر عن مجلة الأمن، العدد 85، كانون الثاني 2021، ص 44.
(26) ما الذي تحقق من أحلام الربيع العربي بعد مرور عشر سنوات على انطلاقه؟، فرانس 24، 17/12/2020.
(27) ما الذي يحدث في فنزويلا؟، بي بي سي عربي، 1 شباط 2019.
(28) د. سحر سمير محسن، إنعكاسات الكورونا على النظام العالمي، الدراسات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية، فصلية تصدر عن مجلة الأمن، العدد 84، تشرين الأوّل 2020، ص 61.
(29) د. مسعود ضاهر، الدولة الأميركية العميقة في مواجهة التوتر العرقي ووباء الكورونا، الدراسات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية، فصلية تصدر عن مجلة الأمن، العدد 84، تشرين الأوّل 2020، ص 48.
(30) أي عالم ينتظرنا بعد كورونا؟ سيناريوهات ما بعد الوباء.. تعرّف عليها، يورو نيوز، 24/3/2020.
(31) شاهد.. الفروق بين لقاحات كورونا في جدول واحد، د. أسامة أبو الرُب، الجزيرة، 19/4/2021.

المؤسّساتُ الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث نظامٌ متطوّرٌ (نشأتها، أنواعُها وأوجُه الرّعاية والتّهذيب فيها)

د. نجاة جرجس جدعون

المقدّمة

إنَّ عـلاجَ الحدث الّـذي يرتكِبُ جريمة والمُعرَّض للإنحراف يَتِـمّ بإبقائه في بيئته الطبيعيّة مع مُساعَدتـه وتوجيهـه أو إبعاده عن الوسط الّذي يعيش فيه إذا كانت حالته تستدعي ذلك [1]. ولكن قد تكـون ظـروف الحدث البيئيّة غير مُلائمة لإصلاحه، فيتعيَّن، عند ذلـك، العمل على إبعاده عن بيئته الّتـي قد تكون سببًا في انحرافه ووضعـه في مُؤسَّسة مُتخصِّصة تتمتَّع بمزايا الأسرة الكبيرة، وتعملُ على تزويده بالمبادئ والأسس الّتي تُيسِّر له مُتابَعة حياته الطّبيعيّة في الجماعة من جديد.

ولا شـكَّ أنَّ الإيـداع في مُؤسَّسات مُخصَّصة للأحداث من أقدم أنواع التّدابير الّتي طُبِّقَت على الأحـداث. وهـي تَعمَد إلى إتّباع إتّجاهٍ تربـويّ تقويميّ يهدفُ إلى عِلاج الأحـداث المُخالِفين للقانون أو المُعرَّضيـن لخطـر الانحراف وإلـى تأهيلهم من النّاحيـة الإجتماعيّة وإلى تقويمهـم من النّاحية الشّخصيّـة . كمـا ينبغي إيداعهم فـي جوٍّ تسوده الثّقـة والحرّيّة، ويتمتَّعون بفرص النّموّ الجسمانيّ والعقلي والخلقي الّتي تُتاح لغيرهم من الأطفال والمراهقين.

هذه المُؤسَّسات تختلفُ بتكوينها والجوّ التّربويّ الّذي تُهيِّئه لنزلائها عن جوّ السّجون؛ إذ تقضي السّياسـة التّربويّة الّتي تُتَّبَـع فيها ألاّ يتَّصف جوّها بجوّ الزّجر والعِقاب حتّـى يتوفَّر المناخ الايجابيّ الّـذي ستنمو فيه شخصيّة الحدث، وهي شخصيّة قيد الإكتمـال تتفاعل باستمرارٍ مع المُحيط الّذي يلفّها.

وتتَّبِـعُ المُؤسَّسات المُتخصِّصة لرِعاية انحـراف الأحداث سياسة تهيئة الظّروف المُلائمة كي ينـالَ هـؤلاء القسط الكافي من التّعليـم المدرسيّ والمِهَنـيّ والتّهذيب الأخلاقيّ لإعـادة تكيّفهم مع البيئة الإجتماعيّة. فهي تُؤمِّن لهم ما فقدوه في بيئتهم العائليّة، وتُوفِّر لهم الرِّعاية الصّحّيّة والنّفسيّة المُناسِبـة وتعمـلُ على إزالـة الأسباب الّتي أدَّت بهم إلـى الإنحراف. وهي، من ناحيـة أخرى، تسعى إلـى غرس مبـادئ المحبَّة والتّعاون والإستقـرار العاطفيّ في نفوسهم وتُهيِّئَ لهـم مُمارَسة الهوايات والنّشاطات المُختلفة.

ولا تقتصـر مُهمَّتهـا على الإعتناء بهم خـلال فترة الحكم عليهم، بل ترعـى أحوالهم حتَّى بعد الإفـراج عنهم لفتـرة تتحقَّقُ من خِلالها أنَّهم لن يعودوا إلى السّلـوك المُنحرِف مرَّةً أخرى والوقوف على مدى تكيّفهم مع الأسرة والمجتمع وعلى الدِّراسة والعمل.

وقواعد الأمم المُتَّحدة بشأن العدالة الجنائيّة للأحداث تُقرِّرُ العلاج في المُؤسَّسات الإصلاحيّة. فيجـب أنْ يكونَ إيداع الحـدث في مُؤسَّسةٍ إصلاحيّـةٍ تصرّفًا يُلجَأ إليه كمـلاذٍ أخير، ولأقصر فترةٍ تقضي بها الضّرورة[2].

فـلا يجوز أنْ يُحجَزَ الحدثُ إلاّ إذا لـم يكن هناك أيّ علاج مُناسِب آخر. وإذا كان الأمر يقتضي وضعه في مُؤسَّسةٍ إصلاحيّة، فيجب أنْ يكونَ ذلك لأقصر مدَّة ممكنة، مع مراعاة الفوارق في أصناف المُجرِميـن والجرائم والمُؤسَّسـات[3]. وينبغي إيـلاء المُؤسَّسات المفتوحة أولويّةً علـى المُؤسَّسات

المُغلقة وأنْ يكونَ لها الطّابع الإصلاحيّ.

وفـي الإطار عينه، يجب أن تُوفَّرَ للأحـداث الموضوعين في مُؤسَّسات الرِّعاية والحماية جميع ضروب المُساعَدة، الإجتماعيّة منها والتّعليميّة والمِهَنيّة والنّفسيّة والطّبّيّة والجسديّة الضّروريّة الّتي يحتاجون إليها بحكم سنّهم أو جنسهم أو شخصيّتهم، وبهدف المُساعَدة على نموّهم نموًّا سليمًا .

ويتعيَّـن أنْ تلجـأ السّلطـات المُختصَّـة، إلى أقصى مـدى مُمكن، إلى الإفـراج المشروط عن الأحداث المُودَعين في مُؤسَّسة إصلاحيّة، فتمنحه في أقصر وقت مُستطاع[4].

وينبغي أن تُبذَلَ الجهودُ لتوفير ترتيبات شبه مُؤسَّسيّة، مثلَ الدُّور ذاتَ الحرّيّة الجُزئيّة والدُّور التّعليميّـة ومراكز التّدريب النّهاريّ، وغيرهاً مـن التّرتيبات المُناسِبة الّتي يُمكن أنْ تُساعِدَ الأحداث للعودة إلى الإندماج بشكلٍ سليم في المجتمع والقيام بأدوارٍ إجتماعيّة بنّاءة[5].

مـن هذا المنطلّق، لـم يُعِدَّ المُشرِّع محكمة الأحـداث كسائر المَحاكمِ الجزائيّـة الّتي تنحصر مُهمَّتها في إدانة المجرمين وتبرئة الأبرياء، بل هي مؤسَّسة إجتماعيّة غايتها الرّئيسة حماية الأحداث المُخالفين للقانون أو المُهدَّدِين بخطر الانحراف وتقويم اعوجاجهم وتأمين ائتلافهم مع المجتمع.، ولا يتسنَّـى لهـا ذلك إلاّ إذا أُحِيطَت بأجهزةٍ ومؤسَّساتٍ تُساعِدها في تحمّل هذا العبء الثّقيل المُلقى على عاتقها.

هـذه الأجهـزة والمُؤسَّسـات، الّتي تعمـل مُجتمِعةً مُتضافِـرةً بقصد توفير الحمايـة والرِّعاية والإصـلاح لكلّ حدث قَسَت عليه ظـروف الحياة وألجاته إلى الجريمة، تُشـكّلُ القضية الأساسيّة في توجّه التّشريعات نحوَ حماية الأحداث المخالفين للقانون أو المعرَّضين لخطر الإنحراف.

مـن هنـا، تبـرزُ الإشكاليّة الّتـي يطرحها البحـث الحالي والّتـي تتمحورُ حـول معرفة مفهوم المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث ومفاعيلها؛ بحيث باتَ حلّ هذه الإشكاليّة ملحًّا وضروريًّا.

بناءً على المبادئ السّابقة، يأتي تقسيم البحث إلى قسمَين مستقلّين على النّحو الآتي:

القسم الأوّل: في مفهوم المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث.

القسم الثّاني: في مفاعيل المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث.

القسم الأوّل
في مفهوم المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث

تمهيد وتقسيم:

هنالـك من الحالات مـا يصعب مُعالَجتها داخل نظـام الأسرة أو في بيئة الحـدث الطبيعيّة إذا كانـت هذه الأخيرة غير صالحة لتهذيبه وتربيته. ومن هنا، كان علاج الحدث المُنحرف خارج نطاق بيئته وأسرته، أي في مؤسّساتٍ إصلاحيّة، من الوسائل الأساسيّة لتهذيبه وإنقاذه من الوسط السيِّئ الّـذي أفسَـدَ أمره وأغراه بالجريمة. الأمر الّذي سنتولّى دراسته مبيّنين تاريخ نشأة هذه المؤسّسات

وأنواعها، وذلك بعد تقسيم هذا القسم إلى بابين على الشّكل الآتي:

الباب الأوّل: في ماهيّة المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث.
الباب الثّاني: في مضمون المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث.

الباب الأوّل
في ماهيّة المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث

تتّبع المُؤسَّسات الخاصّة بالأحداث نظامًا خاصًّا بعيدًا كلّ البُعد عن معالِم السّجن وما يُورثه من فسادٍ وعودةٍ إلى طريق الجريمة. ونُشيرُ إلى أنَّ وضع الأحداث المُنحرفين يختلف عن الرّاشدين باعتبارهم ما زالوا في مستهلّ حياتهم الإجتماعيّة، وأنَّ جرائمهم تكون، في معظمها، نتيجةً لإهمالٍ في تربيتهم وتنشئتهم، وليس نتيجة لميلٍ طبيعيّ نحو الإجرام. ولذا، أنشئَت دُور الإصلاح للأحداث المُنحرفين لتمكِّنهم من التّعويض عمَّا فاتهم من فرص التّربية والتّوجيه والتّنشئة المدنيّة.

تأسيسًا على ما تقدَّم، يأتي تقسيم هذا الباب إلى فصلين؛ بحيث نتناول، في الفصل الأوّل منه، دراسة نشأة وتطوّر المؤسّسات الإصلاحيّة؛ على أنْ نتناول، في الفصل الثّاني، دراسة أبرز أنواع تلك المؤسّسات.

الفصل الأوَّل
نشأة وتطوّر المُؤسَّسات الإصلاحيّة

نشأت المدارس الإصلاحيّة نتيجةً للتطوّر المُتلاحِق في معاملة الأحداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضين لخطر الانحراف، ونتيجةً للأفكار الحديثة عند علماء النّفس والتّربية والإجتماع الّتي ترى أنّ الحدث يتأثَّر بالبيئة والوسط الإجتماعي اللّذَين يعيشُ فيهما وبالتّقاليد والعادات السّيِّئة في المجتمع إلى جانب تأثّره بأسرته. فهو مرآة عاكسة للوسط الّذي يعيش فيه، فإن تَعهَّده والداه بالملاحظة والتّربية، نَشَأ نشأةً صالحةً، وإنْ أهملاه وتركاه، فسرعان ما يفسد ويجرفه تيّار الانحراف.

وتُشبِه هذه الدُّور المدرسة من حيث نظامها وبرامجها والجوّ السّائد فيها. ويُعتَبَر الأحداث فيها كتلامذة داخليِّين من نوع خاصّ، يستوجب وجودهم رعايةً مُعيَّنةً وتربيةً مُتخصِّصةً لمُعالَجة أوضاع شخصيّة وإجتماعيَّة أثَّرت في سلوكهم. وعليه، فإنَّ الجوّ العائليّ يسودُ بين جميع أفراد المُؤسَّسة أحداثًا ومُشرفين. ويُفضَّل أنْ يكونَ من بين المُشرفين عنصرٌ نسائيّ يُوفِّر ما يحتاجه هذا الجوّ من حنان الأمّ وعطفها. ويُساعِد على سِيادة الجوّ العائليّ قرب المُشرفين من الأحداث وربط حياتهم بهم. ويُؤدّي هذا النّظام إلى تمتّع الحدث بالإستقرار العاطفيّ والإقامة في وسطٍ إجتماعيّ حقيقيّ وحرّ.

كما يُشرِف على دُور الإصلاح أساتذة أخصَّائيّون في عِلم التّربية والتّوجيه والتّدريب المِهَني.

ويتولّى مسؤوليّة الأحداث مُدرِّسون إجتماعيّون يتولّونهم أفرادًا أو جماعات، فيتصرَّفون معهم تصرّف الأولياء مع بنِيهم. ولا حاجة للقول أنَّ نجاح كلّ مُؤسَّسة رهن بصفات وخبرات القائمين عليها.

ويتضمَّن برنامج دار الإصلاح دروسًا نظريّةً وَعلميّةً تُوزَّع وفقًا لمُتطلّبات الأحداث ودرجة تقدّمهم فــي العِلـم. فالقراءة والكتابة تُعطَيــان للأميِّين منهم، بينمــا الدّروس الأكثر تقدّمًا فــي الرّياضيّات والعلــوم التّطبيقيّــة، فتُعطى لمَن حازوا درجةً ثقافيّــةً مُعيَّنةً. إلاّ أنّه يبرز التّســاؤل حول معرفة أنواع المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث؟ الأمر الّذي خصّصنا لدراسته الفصل التّالي.

الفصل الثّاني
في أنواع المؤسّسات الإصلاحيّة

إنَّ معهــد الإصلاح هو عبــارةٌ عن مؤسّسة متخصّصة برعاية الأحــداث المنحرفين الّذين يرى القاضي أنّهم بحاجة إلى الإصلاح، سواء هذه المؤسّسة حكوميّة أم أهليّة.

فــي لبنان، أُنشِــئَ معهدٌ خاصٌّ لإصلاح الأحــداث بموجب المرسوم رقــم 6675 تاريخ 6 آب 1946؛ حيث نصَّت المادّة الأولى منه على ما يلي:

«أُنشِــئَ معهدٌ لإصــلاح الأحداث وتربيتهم ملحَق بوزارة التّربية الوطنيّــة والفنون الجميلة. يقومُ هذا المعهد بمهامّ «الإصلاحيّة» الّتي نصَّت عليها المادّة 124 من قانون العقوبات مُلغاة»(6).

وعليــه، يُوجَــد في لبنان معهــدٌ للإصلاح كان تابعًا في مــا مضى لوزارة التّربيــة الوطنيّة وَمن ثُــمَّ لوزارة الشّؤون الإجتماعيّــة(7). وأصبح الآن بمسؤوليّة جمعيّة الإتّحاد لحماية الأحداث في لبنان، وهــي مُؤسَّسة خاصّة مُعتبَرَة ذات منفعة عامّة. ويعملُ إتّحاد حماية الأحداث على إدارة معهد إصلاح الأحداث حيث تُنفَّذ الأحكام الصّادرة عن محاكم الأحداث.

وقــد أعطــى معهد الإصــلاح نتائج باهرةً؛ إذ أمَّــن مستقبل معظم الأحــداث الّذين قضَوا مُدَّة إصلاحهــم فــي المؤسَّســة بــأنْ يَسَّرَ لهــم التّدريب المِهنــيّ داخل المعهــد وفي مصانع فــي القطاع الخاصّ(8).

يُدير إتّحاد حماية الأحداث في لبنان معهدَين للإصلاح:

الأوّل في الفنار (ساحل المتن) والثّاني في بعاصير (ساحل الشّوف).

بالنّسبــة لمعهــد الإصلاح في الفنار، فــإنَّ فيه فريق متخصّص يتضمّــن: مساعدَة إجتماعيّة، أستاذ للتّعليم ولمحو الأميّة، مرشِد نفسانيّ، مرشد إجتماعيّ وموظّفون إداريّون. كذلك الأمر بالنّسبة لمعهد الإصلاح فــي بعاصير، ففيه مساعدة إجتماعيّة، أستاذ للتّعليم ولمحو الأميّة، مرشِد نفسانيّ، مرشِد إجتماعيّ وموظّفون إداريّون.وفي الفنار، معهدٌ آخر فيه فريق من المختصّين.

تطــالُ التّنشئة الحدث بــكلّ أبعاده الجسميّة والنّفسيّــة ومؤهّلاته العلميّــة والمهنيّة. وتمتدّ هذه التّنشئــة مسافــةً زمنيّــةً لا تقلّ عن ستّة أشهــرٍ، وقد تصلُ إلى ثــلاث سنواتٍ. يؤمّــنُ معهد الإصلاح

للحدث ما يسمّى بالرّعاية الشّاملة:

العطف والحنان، العلاج النّفسيّ عَبْرَ إختصاصيّين، العلاج الإجتماعيّ عَبْرَ إختصاصيّين أيضًا، المأكل والمأوى اللاّئقين، اللّباس، محو الأميّة والتّعليم المدرسيّ والتّعليم المهنيّ.

فـي معهـد إصـلاح الأحـداث وفـي دار الملاحظة قبل الحـرب[9]، كانت هنـاك مجموعة من المصانع داخل المعاهد يعملُ فيها الأحداث. يُقتطَع من أجرهم ما يُقارب النّصف لتأمين مصاريف السّكن والملبس والمأكل وغيره؛ ويُوضَع الباقي في دفتر توفير في المصرف باسم الحدث. يخرجُ هذا الأخير من المعهد بعد انتهاء مدّته متعلّمًا ولديه غالبًا عدّة إفادات أو دبلومات مهنيّة في إختصاصات متنوّعـة، منها التّجارة، الكهرباء، التّعدين، خياطـة شبه صناعيّة وورشة مطبخ. كما للرّياضة دَورها وللتّرفيه أيضًا.

ويُـدار معهد الإصـلاح من قِبَل أخصَّائيِّيـن. والنّظام فيه قائمٌ على احتـرام الحدث للأنظمة الدّاخليّـة دون الحاجـة إلى وجود حرّاس من الشّرطـة أو الدّرك أو غيرهم. وبالتّالـي فإنَّ أيّ مظهر عقابـيّ غائـبٌ تمامًا ممَّا يُساعِد، إلى حدٍّ بعيد، في استجابة الحدث للتّوجيه والإرشاد. وما يُعزِّز هذا الجـوّ نظام العطل المدرسيّة، حيث يستفيـد منها الأحداث فيؤمّون منازلهم وعائلاتهم أثناءها، كما يقضونَ بعضًا منها في مخيّمات كشفيّة، ممَّا يُساعِد في تمتين روابط هؤلاء بمجتمعهم، فلا يشعرون بأنَّهم محكوم عليهم بالإنزواء والعزل عن بيئتهم.

تأسيسًـا على مـا تقدَّم، نجدُ في الإصلاحيَّتَين اللّتَين تتعاطيان مـع الأحداث المُخالِفين للقانون أو المُعرَّضيـن للخطر في الفنار (ساحل المتن) وفـي بعاصير الشّوف (ساحل الشّوف) مدى تركيز القانـون اللّبنانـي على الطّابع الإجتماعيّ للعدالـة المُطبَّقة على الأحداث، وأيضًـا على الأهمِّيَّة الّتي أُعطِيَـت لهذَين المعهدَين ولدقَّة وتقنيّة العمل في كلٍّ منهما وإدارتهما[10]، وذلك تطبيقًا لِما وَرَدَ في القواعد الدّوليّة في قضاء الأحداث فيما يتعلّق بتحقيق المصلحة الفضلى للطّفل[11].

أمَّـا عـن جناح الأحـداث في سجن رومية، فقد تـمَّ افتتاحه في كانـون الأوّل عام 1994. وهو مخصّص للذّكور. وتتمّ رعايته من قِبَل وزارة الدّاخليّة وعناصرها الأمنيّة.

من أجل ذلك، يقتضي وضع الأحداث جميعًا في معهد إصلاح ومعهد تأديب ودُور ملاحظة خاصّة بهم؛ الأمر الّذي يتوافق مع روح نصوص الإتّفاقيّات الدّوليّة في قضاء الأحداث، ولا سيّما منها إتّفاقيّة الأمـم المُتَّحـدَة لحقـوق الطّفل لعام 1989، في المـادّة 37 منها، بفقراتهـا أ، ب وج، الّتي نصّت علـى ألاّ يُحـرَم أيّ طفـل من حرّيّته بصورة غيـر قانونيّة أو تعسّفيّة. ويجـب أنْ يجري اعتقال الطّفل أو احتجازه أو سجنه وفقًا للقانون. ولا يجوز ممارسته إلاّ كملجأ أخير ولأقصر فترة زمنيّة مناسبة.

كمـا يُعامـل كلّ طفـل محروم مـن حرّيّته بإنسانيّـة واحتـرام للكرامة المتأصّلة فـي الإنسان، وبطريقـة تراعـي إحتياجات الأشخاص الّذين بلغوا سنّه. وبوجه خاصّ، يُفصَلُ كلّ طفل محروم من حرّيّته عن البالغين، ما لم يُعتبر أنَّ مصلحة الطّفل الفضلى تقتضي خلاف ذلك. ويكون له الحقّ في

البقاء على اتّصالٍ مع أسرته عن طريق المراسلات والزّيارات إلاّ في الظّروف الإستثنائيّة.

مِن أجل ذلك، نقترِح وضع الأحداث جميعًا في معهد إصلاحٍ ومعهد تأديبٍ ودُور مُلاحظة خاصّةٍ بهم مِن أجل تحقيق مصالحهم الفضلى.

ولمّا كانت دار المُلاحظة قد زالت بفعل الحرب، فإنَّنا ندعو إلى إنشاء هكذا دار حيث يُعمَل على إعادة تربية الحدث، بالإضافة إلى تلقينه الدّروس وتقديم الإقتراحات له. وتُعتبَر فترة مُلاحظَة الحدث من الفترات المُهمَّة الّتي يخضَع فيها لدراسة إجتماعيّة وصحّيّة ونفسيّة مُتكاملة يقوم بها أخصَّائيّون ويضعونَ، بنتيجة ذلك، توصيةً خاصّةً بخطّة عِلاجه بالنّسبة للمستقبل[12]. كما يُودَع المُتسوِّل والمُتشرِّد في مُؤسَّسة خاصَّة لتأهيله[13].

وكان هذا الإجراء مِن ضمن توصيات المُؤتمرات الدَّوليَّة[14] الّتي رأت أنَّه يجب أن تُوجَّه الأبحاث إلى اكتشاف السّبب الحقيقي في سلوك الحدث، وذلك يقتضي تضافر الجهود بين الأخصَّائيِّين في الميادين الإجتماعيّة والطّبّيّة والنّفسيّة والتّربويّة. لذلك، يتعيَّن أنْ تُبحَث حالة الحدث بواسطة هيئة مُكوَّنة من هؤلاء الأخصَّائيِّين جميعًا.

ونُشير إلى دَور الجمعيّات الأهليّة في الإهتمام بالحدث. فهي تتولَّى، في كثير من الأحيان، الإعتناء بالحدث المحكوم عليه بتدابير الحماية إذا لم تتوافر في أبوَي القاصر أو أحد أصوله أو أحد أفراد عائلته الضّمانات اللاّزمة لرعاية شؤونه. وفي هذه الحالة الأخيرة، يُمكن تسليمه إلى أسرةٍ موثوقٍ بها أو إلى مُؤسَّسة إجتماعيّة أو صحّيّة مُعتمدَة من الوزارات المُختصَّة أو إلى غيرها إذا كانت لا تتوافر في المؤسَّسات المُعتمدَة الإختصاصات المطلوبة[15].

وتُعتبَر الإتّفاقيّة الدّوليّة لحقوق الطّفل عام 1989 أوّل وثيقة من وثائق الأمم المُتَّحدة، والمعاهدة الدّوليّة الوحيدة الخاصّة بحقوق الإنسان الّتي تُقِرّ بدَورٍ أساسيّ واضحٍ للجمعيّات غير الحكوميّة[16]، كأطراف معنيَّة في مُراقَبَة تطبيقها[17].

إنطلاقًا ممّا تقدَّم، تبرز أهمّيّة المؤسّسات الّتي تُعنى بالقاصرات المخالفات للقانون وأيضًا أهمّيّة دُور الإيداع للمعاهد الإصلاحيّة الّتي تُعتبر من أهمّ المؤسّسات الّتي تُعنى بمشاكل الأحداث. الأمر الّذي خصّصنا لدراسته الباب التّالي.

الباب الثّاني
في مضمون المؤسّسات الإصلاحيّة
تمهيد وتقسيم:

لقد سَبَقَ وأوضحنا أنَّ دُور الإيداع للمعاهد الإصلاحيّة تُعتبر من أهمّ المؤسّسات الّتي تُعنى بمشاكل الأحداث، لا سيّما تلك المتعلّقة بالقاصرات المخالفات للقانون. الأمر الّذي جعلنا منه موضوعًا لدراستنا في الباب الحالي ضمن الفصلين التّاليين على النّحو الآتي:

الفصل الأوّل: المؤسّسات الإصلاحيّة المتعلّقة بالقاصرات المُخالفات للقانون.

الفصل الثّاني: دُور الإيداع للمعاهد الإصلاحيّة.

الفصل الأوّل

المؤسّسات الإصلاحيّة المتعلّقة بالقاصرات المُخالفات للقانون

بالنّسبة للقاصرات المُخالفات للقانون فقد كانت دار الرّاعي الصّالح هي المؤسّسة الوحيدة في لبنان الَّتي تقبلهنَّ، وما زالت تقبلهنَّ، إلاَّ أنَّها غير ملزمة بقبول أيَّة فتاة[18].

غير أنَّه، في شباط 2004، تمَّ افتتاح مركز المبادرة في ضهر الباشق للقاصرات المُخالفات للقانون، وذلك بالإشتراك مع مكتب الأمم المتّحدة المعنيّ بالمخدِّرات والجريمة. الأمر الَّذي وضَعَ حدًّا لواقع مؤسف؛ إذ كانت القاصرات المُخالفات للقانون يُحتجَزْنَ تحت سقفٍ واحد مع النّساء اللّواتي تُنفِّذْنَ عقوبة جزائيّة في سجون النّساء.

مِن أَجل ذلك، من الضّروري الإسراع في إنشاء مؤسّسات خاصّة يَتمّ وضع الفتيات المُنحرِفات فيها؛ حيث تُؤمَّن لهنَّ البرامج التّأهيليّة والتّربويّة والتّثقيفيّة والتّرفيهيّة.

هذا، وكان من الأفضل تكريس ما جاءَ في المادّة 20 مِن المرسوم الإشتراعيّ رقم 119 / 83 الخاصّ بِحماية الأحداث المُنحرِفين اللّبناني- المُلغى- والّتي خصَّت القاصرة الجانحة بنصّ خاصّ، إذا حُكِمَ عليها بتدبيرٍ إصلاحيّ أو بوضعها في مُؤسَّسةٍ إصلاحيّة؛ إذ لمحكمة الأحداث أنْ تُقرِّرَ وقف التّدبير المُتَّخَذ في حال زواجها، وذلك بعد أنْ يُثبتَ للمحكمة عقد الزّواج رسميًّا ووجود مسكنٍ شرعيّ لها. ولمحكمة الأحداث أن تضعَها، في مطلق الأحوال، تحت المُراقَبَة الإجتماعيّة لِمُدَّة أقصاها ثلاث سنوات، على أنْ يُقدِّمَ مندوب جمعيّة الإتّحاد لحماية الأحداث تقريرًا عنها كلَّ ثلاثة أشهر، وعلى أنْ يُعاد إلى تنفيذ التّدبير الإصلاحيّ بحقّ القاصرة إذا انتهى الزّواج لأيّ سببٍ كان قبلَ مضي ثلاث سنوات على عقده؛ وإذا كانت قد أتمَّت الثّامنة عشرة مِن العمر، تُرسَل إلى معهد التّأديب لقضاء المُدَّة الباقية مِن الحكم الصّادر بحقّها.

ولعلَّ في ذلك حكمة مِن المُشرِّع اللّبنانيّ- لم يُدركها مُشرِّع القانون الجديد، أي قانون حماية الأحداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضين للخطر اللّبناني رقم 422/ 2002 الصّادر في 6/6/2002، مُتأثِّرًا بحضور بعض خبراء القانون مِن النّمسا والدّانمارك وسويسرا- تكمنُ في الغاية مِن وراء التّدبير الإصلاحيّ، واعتبار مُؤسَّسة الزّواج بديلاً إجتماعيًّا صالحًا لصرف النّظر عن إخضاع القاصرة الجانحة لِمثل هذا التّدبير مِن شأنها أنْ تُنقذها من الظّروف والدّوافع الكامنة في أساس جنوحها، وربّما إضطرارها إلى مثل هذا الجنوح، وَمِن ذلك القصور الإقتصاديّ الّذي يؤدّي، في غالب الأحيان، الدَّور الرّئيس للسّلوك

المُنحرِف في مختلف المجتمعات الحديثة.

وهنــا، يبــرز التّســاؤل حــول معرفة أهمّيّــة دُور الإيــداع للمعاهــد الإصلاحيّــة في هذا الخصوص. الأمر الّذي خصّصنا لدراسته الفصل التّالي.

الفصل الثّاني

دُور الإيداع للمعاهد الإصلاحيّة

فــي مصر، يُرسَل الأحــداث الّذين تحكم المحكمة بإيداعهم فــي المؤسَّسات الإصلاحيّة إلى دُور الإيداع. وتنشأ الوحدات الشّاملة بالمحافظات الّتي لا يُوجَد بدائرتها مؤسَّسات إيداع، أو يُوجَد فيها مؤسَّسات إيداع لا تكفي لاستيعاب المحكوم عليها بالإيداع.

وتتّبِــع بعض الوحدات الشّاملة وزارة الشّؤون الإجتماعيّــة، ويتبع البعض الآخر الجمعيّات الأهليّة المُعترَف بها مِن الوزارة المذكورة. وتُعتبَر كلّها مُؤسَّسات مفتوحة.

ودُور الإيداع للمعاهد الإصلاحيّة متنوّعةٌ. فهناك مؤسّسات الإيداع المفتوحة، المُؤسَّسات شبه المُغلَقة والمُؤسَّسات المُغلَقة.

بالنّسبــة لمُؤسَّســات الإيــداع المفتوحة، فيُودَع بهــا المحكوم عليهم مــن الأحداث الّذين يرتكبون جرائم والمُعرَّضين للانحراف. وأهمّ ما يُميِّزها أنَّها لا تَعتمِد في منع الهروب مِنها على العوائق الماديّة، كالأسوار العالية والقضبان الحديديّة والحرّاس المُسلَّحين، وإنَّما تَعتمِد علــى العوائــق المعنويّة، كإقناع الحــدث بفائدة الإيــداع، وأنَّ الهدف الأوّل مِنــه هو إصلاحه وتأهيله لحياةٍ إجتماعيّةٍ شريفة، وأنَّ ما يُفرَض عليه مِن أعمالٍ وقيودٍ إنَّما مِن أجل مصلحته.

والمُؤسَّســات المفتوحــة تسبِغُ علــى الحياة فيها جــوًّا طبيعيًّا قريبًا مِن طابــع الحياة في المجتمع الكبير(19)، ومن شأن ذلك أنْ يُشعِرَ الفرد أنّه ما زالَ يحيا في المجتمع ويخلق الثّقة فــي نفسه وبينــه وبين القائمين علــى إدارة المُؤسَّسة. وهذه العوامل مِن شأنهــا أنْ تُسهِمَ في عمليّة التّأهيل.

لذلــك، نــرى أنَّ المُؤسَّسات المفتوحــة تأخذ صورة المستعمرة الصّغيــرة الّتي تتكوَّن مِن عدَّة مبانٍ صغيرةٍ لها أبواب عاديّة ونوافذ لا تُوجَد عليها قضبان حديديّة، ولا يُحيط بها سوى سورٍ عاديٍّ لا يقومُ عليه إلاّ حرّاس عاديّون.

أمّــا بالنّسبــة للمُؤسَّسات شبه المُغلَقة، فإنَّ أهمّ ما يُميِّــز هذا النّوع أنَّه يتوسَّط بين نوعَي المُؤسَّســات المفتوحة والمُغلَقَة. فالحراسة فيهــا مُتوسِّطة وأقلّ منها في المُؤسَّسات المُغلَقة. ويقترِبُ نظام العلاج فيها مِن العِلاج في البيئة الحرَّة، وأكثر تحديدًا، مِن العلاج في ظلّ نظام الحرّيّــة المُراقَبَة. ويُودَع فيها المحكوم عليهم مِــن الأحداث الخطرين مِن مُرتكبي الجنايات والجنــح الّذيــن لا يُحكَم عليهم بعقوبــاتٍ سالبةٍ للحرّيّــة. كذلك يُودَع فيهــا الأحداث الّذين

يُحالــون إليها مِــن المُؤسَّسات المفتوحــة والّذين يتَّضِح مِن البحــث الإجتماعيّ عدم ملاءمة برامج هذه المؤسَّسات لتهذيبهم وكثرة هروبهم مِن المُؤسَّسة.

ويُطبَّق داخل هذه المُؤسَّسات النّظام التدرّجي في الغالب. ومقتضاه أنْ يُودَعَ المحكوم عليه، أوّل الأمــر، فــي درجة تشتدّ فيها الحراسة نسبيًّا، ثُمَّ يُنقَل إلى درجة تقــلّ فيها الحراسة إذا ثبُت تحسّن سلوكــه، ثُــمَّ إلى مؤسَّسة مفتوحة إذا ثبُت من البحث الإجتماعي أنَّ سلوكه ازدادَ تحسّنًا وأنَّ مثل هذه المُؤسَّسة مُجدية في تكييفه الإجتماعيّ[20].

أمَّــا فِيما يتعلَّــق بالمُؤسَّســات المُغلَقة، فهي تتميَّز كونهــا تُحاط بأســوارٍ عاليةٍ وحراسةٍ مُشــدَّدة. ويتميَّز نظامها في الدّاخــل بالصّرامة والحزم. وتقومُ هذه المُؤسَّسات، في العادة، بعــزل المُجرِم عن المجتمع لأنَّه يُمثِّل خطــورةً على أفراده وكيانه. ويُودَع فيها عادةً المحكوم عليهم بعقوباتٍ سالبةٍ للحرّيّة طويلة المُدَّة والمُجرِمون الخطرون.

أمَّا بالنّسبة للأحداث، فإنَّ هذه المؤسَّسات تتمثَّل في أقسام مُلحقة بالمؤسَّسات المُغلَقة الّتــي تُنفَّــذ فيها العقوبات السّالبة للحرّيّة على البالغين فــي مصر. ويُودَع فيها الأحداث بين سِنّ الخامسة عشرة والثّامنة عشرة والّذين يُحكَم عليهم بعقوباتٍ سالبة للحرّيّة.

ولَمَّــا كان هذا الوضــع لا يتَّفق مع السّياسة الجنائيّة الحديثة فــي مُعامَلة الأحداث والّتي ترمــي إلــى تخصّص مؤسَّسات لهم تتَّبِع فــي تأهيلها أسلوبًا للتّهذيــب والإصلاح يختلف عن البالغيــن، لِما هنالــك مِن فروقٍ جوهريّــة بين انحراف الأحــداث وإجــرام البالغين، سواء لناحية الدّوافع أو لِناحية القابليّة للإصلاح، فإنَّ المُشرِّع المصري تلافى هذا النّقص.

وقد جاءَ نصّ المادّة 49 من قانون الأحداث المصريّ رقم 31/1974 مُحَقِّقًا تقدّمًا فــي مُعامَلــة الأحداث الّذين يُحكَــم عليهم بعقوباتٍ سالبــة للحرّيّة. فقد قــرَّرت هذه المادّة أنْ يكــونَ تنفيذ هــذه العقوبات في مُؤسَّسات عِقابيَّةٍ خاصّةٍ، يصــدرُ بتنظيمها قرار مِن وزير الشّؤون الاجتماعيّة بالإتّفاق مع وزير الدّاخليّة.

ويجــوز تأهيلهم إجتماعيًّا عن طريق مشروعات التّعمير والإصلاح الزّراعيّ في المناطق النّائية[21].

وقبــل أن نختــم كلامنا عن المُؤسَّســات الخاصّة بالأحــداث، لا بُدَّ أن نذكــر سريعًا أنَّ مُختلَــف التّشريعــات الخاصّة بالأحداث[22] قــد كرَّسَت مبدأ الفصل بيــن المحكوم عليهم مــن الأحداث والمحكوم عليهم مِــن الرَّاشدِين؛ مِمّا يُؤمِّــنُ ضمانةً أساسيّةً لهــم ويُؤدِّي إلى إبعادهــم عن الانحراف الخلقيّ والسّلوك المُنحــرف. فالتّشريع اللّبنانيّ الخاصّ بالأحداث المُخالِفيــن للقانــون أو المُعرَّضيــن للخطر رقم 422/ 2002، حفاظًــا منه على مصلحة الأحــداث وتفاديًــا للتّأثيــر السيِّئ الّذي قد ينشأ عــن اختلاطهم بالرَّاشديــن بالنّظر إلى أنَّ الرَّاشدين أكثر مِن الأحداث خطورةً وأعرَق مِنهم إجرامًا قد نصَّ، في المادّة 15 منه، على

أنْ تُنفَّذ العقوبة بوضع الحدث في معهد التّأديب[23] أو في سجنٍ خاصّ بالأحداث، وِفقًا لِما يُقرِّره القاضي.

وقد قُضِيَ في هذا المجال:

«نقضت محكمة التّمييز القرار الصّادر عن محكمة جنايات الأحداث بعد قبول طلب النّقض المقدَّم من المتّهم الثّاني القاصر بتاريخ ارتكاب الجريمة لأنَّ القرار المطعون فيه جاءَ ناقص التّعليل وفاقدًا لأساسه القانونيّ؛ إذ إنَّه لم يُبيّن المعطيات الواقعيّة الّتي أملت على المحكمة إتّخاذ تدبير العقوبة المخفّضة بحقّ الحدث، خاصّةً وأنَّ كلا المادّتين 2 و41 من قانون الأحداث المنحرفين رقم 422 تاريخ 6-6-2002 توجبان على محكمة الأحداث مراعاة مصلحة الحدث لدى فرض أيّ عقوبة أو تدبير وتبيان الأسباب المُبرّرة لوجود مثل هذه المصلحة عَبْرَ الإشارة إلى ما وَرَدَ في التّقرير الإجتماعيّ»[24].

كما صَدَرَ قرارٌ آخر عن محكمة التّمييز اللّبنانيّة؛ حيث جاءَ فيه ما يلي:

«إنَّ دَور محكمة الأحداث هو فرض التّدبير المُلائم على القاصر. قضت محكمة التّمييز الحالّة محلّ محكمة جنايات الأحداث، بعد إنبرام حكم محكمة الجنايات العاديّة القاضي بنسبة جناية الإتجار بالمخدّرات إلى القاصر المميّز بالإشتراك مع راشد، بفرض عقوبة التّدبير التّأديبيّ عليه نظرًا لأحوال المحكوم عليه العائليّة والشّخصيّة ولرغبته في متابعة تحصيله العِلميّ على ما هو ظاهر من التّقرير الإجتماعيّ المُرفق بالملف»[25].

الأمرُ الّذي يطرح إشكاليّة مدى جدّيَّة وصحّة تطبيق تلك المادّة على الأحداث في لبنان نظرًا لعدم وجود معهد التّأديب؟ من أجل ذلك، تبرز ضرورة إنشاء معهد التّأديب في لبنان، وبالتّالي إبعاد الحدث عن السّجن؛ كلّ ذلك بما يتماشى مع روح نصوص الإتّفاقيّات الدّوليّة في قضاء الأحداث.

كما تنصّ المادّة 51 من القانون ذاته، أي قانون حِماية الأحداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضين للخطر، على أنْ ينشأ معهد التّأديب بموجب هذا القانون ويُحدَّد نظامه وَمهمّاته بمرسوم يُتَّخذ في مجلس الوزراء بناءً على اقتراح وزير العدل.. كما تنشأ وتُنظَّم بالطّريقة ذاتها معاهد أوَ مؤسَّسات يقتضيها تطبيق هذا القانون[26].

زدّ على ذلك أنَّ المُشرِّع اللّبناني كرَّسَ، في المرسوم الخاصّ بتنظيم السّجون رقم 14310 تاريخ 11 شباط 1949، مبدأ الفصل بين مُؤسَّسات الأحداث وَمُؤسَّسات البالغين. كما أكَّدَ على أن يُوضَع القاصرون، موقوفين أو محكومين، في أماكن خاصّة بهم. وقد أحسَنَ بتخصيصه سجونًا للقاصرين؛ إذ هم في الغالب أقلّ خطورة من البالغين. ثُمَّ أنَّ لهم نفسيّة مُختلِفة، فهم أميَل للإستجابة إلى الإصلاح وأكثر حماسةً للجديد من القيَم والأفكار.

الأمر الّذي يتماشى مع روح نصوص الإتّفاقيّات الدّوليّة، لاسيّما منها الإتّفاقيّة الدّوليّة لحقوق

الطّفـل لعـام 1989 الَّتي نصّت، في المادّة 37 منها، بفقرتها (ج)، على أنْ يُعامَلَ كلّ طفل محروم مـن حرِّيَّته بإنسانيّة واحترام للكرامة المُتأصِّلة في الإنسـان، وبطريقة تُراعي إحتياجات الأشخاص الَّذيـن بلغـوا سِنَّه، وبوجه خاصٍّ، يُفصَل كلّ طفلٍ محرومٍ مِـن حرِّيَّته عن البالِغين، ما لـم يُعتَبَر أنَّ مصلحة الطّفل الفضلى تقتضي خلاف ذلك.

كما يتوافق هذا الأمر مع ما جاءَ في المادّة 40 – 3 من الإتّفاقيّة نفسها، والَّذي يتضمَّن تعزيز إقامـة قوانيـن وإجراءات وسلطـات ومؤسّسات مُنطبقَة خصّيصًـا على الأطفال الَّذيـن يُدَّعى أنَّهم انتهكوا قانون العقوبات أو يُتَّهمون بذلك أو يُثبَت عليهم ذلك.

إلـى ذلـك، إستَحدَثت المادّة 52 من قانـونِ حماية الأحداث المُخالِفين للقانـون أو المُعرَّضين للخطـر اللّبناني رقـم 422/2002 مصلحـةً أُطلقت عليهـا مصلحة الأحداث لـدى وزارة العدل تقـومُ بتنظيـم العمل في كلّ شؤون الأحداث المعنيِّين بهذا القانون ووضع الخطط الوقائيّة والتّأهيليّة المُناسِبـة والإشـراف عليها والتّنسيق مـع أيّ وزارات أخرى مَعنيَّة في الموضـوع ومع القطاع الأهليّ الّـذي تعتمده هـذه المصلحة وفقًا للمعاييـر المُعتمَدَة. كلّ ذلك بموجب مراسيـم تنظيميّة تُتَّخَذ في مجلـس الوزراء بناءً على اقتـراح وزير العدل، وأنَّه لهذا الأخير أيضًا، بعد ذلك، أنْ يُحدِّدَ الجمعيّات المُعتمَدَة لدى مصلحة الأحداث، المُشار إليها أعلاه.

يُثيرُ هذا النصّ العديد من المُلاحظات الهامّة، يُمكن اختصارها بما يلي:

1 - نـادرًا مـا أُعطيَـت صلاحيّة الإشراف على قضايا الأحداث لوزارة العدل، وإنَّما لوزارة الشّـؤون الإجتماعيّة الّتـي بإمكانهـا الإستعانة بباقي الـوزارات لتأمين إحتياجـات مُلاحَقة الحدث وَمُحاكَمتـه ثُـمَّ تأهيله وتعليمـه، ومنها بالطّبع وزارة العـدل ووزارات التّربية والتّعليـم التّقني ووزارة الثّقافـة، ورُبَّما السّياحة والبيئـة وغيرها من الوزارات المعنيّة بشؤون الحـدث، ذلك أنَّ هذا الأخير ليس مُجرَّد شخصيّة قانونيّة، وإنَّما هو كائن إجتماعيّ ضلَّ عن سلامة الطّريق ولا بُدَّ من إعادته إليه سليمًا.

2 - إنَّـه، وبحسـب المفهـوم الإداريّ، لا يُمكّن موظّف في درجةٍ أدنى أنْ يأمرَ موظَّفًا أعلى، فكيف يُشرِف رئيس مصلحة على وزارات مختلفة؟

3 - بحسـب الدّستـور والإعلان العالميّ لشرعة حقوق الإنسان، فـإنَّ قطاعَ الجمعيّات قطاعٌ مُستقـلّ، له حرّيّـة التّأسيس والإجتماع والعمل، فكيـف من المُمكن إخضاعه لأوامـر رئيس مصلحة في وزارة، وبالتّالي التّدخّل في تنظيمه الدّاخليّ والإداريّ وتحديد إستراتيجيّته وأساليب عمله وتسمية المندوبين الإجتماعيِّين ودعوتهم لحضور التّحقيقات مع الحدث المُخالف للقانون؟

وأكثـر من ذلك، فإنَّ النّص، المُشار إليـه سابقًا، أيّ نصّ المادَّة 52 من قانون حماية الأحداث المُخالِفيـن للقانـون أو المُعرَّضِيـن للخطر اللّبناني، يُمكّـن هذه المصلحة مِـن مُمارَسة صلاحيّات

النّيابة العامّة من أجل الدّعوة للتّحقيقات، وبالتّالي حضورها لمُتابَعتها.

4 - إنَّ العمـلَ الإجتماعـيّ مـع الأحداث يُشكِّل عبئًا على الجمعيّات، تتعاملُ معه بروح الرّسالة والخدمة الخاصّة بحالات إستثنائيّة صعبة، من دون أنْ تغرقَ في إهمال عمل القطاع العامّ وبيروقراطيّته.

5 - لقـد التـزَمَ لبنـان في إتّفاقيّةِ حقوق الطّفل الصّـادرة عام 1989 تأمين مصلحة الطّفل الفضلـى واتّخاذ إجراءات واضحة ومُحدَّدة وشاملة ومُتكاملة فـي مسألة الأحداث. وهذا ما ينفيه إنشاء مصلحـة فـي وزارة، لا يُمكنها أنْ تأمرَ وزارات أخرى، وقد لا تتجاوب معها لاتّخاذ هذه التّدابير الشّاملة والمُتكاملـة، وهـي غير مُخَصَّصة فـي هذا المجال. فإن أقدمت، فإقدامها يشوبـه، بلا شكّ، الكثير من الضّعف في الأداء ومن موظّفين عاديّين.

6 - مـاذا سيحصـلُ عندما يُحدِّد وزير العـدل الجمعيّات المُعتمَدَة لدى مصلحة الأحداث وفقًا لما نصّت عليه الفقرة الأخيرة من المادّة 52؟

أ - الجمعيّات في لبنان كثيرة العَدد، وكلّها تدّعي خدمة الطّفولة والأحداث ورعاية مشاكلهم.

ب - لا يُوجَد في لبنان جمعيّات مُتخصِّصة بهذا الحقل وتعملُ له منذ 66 عامًا سوى جمعيَّة حماية الأحداث في لبنان.

ج - إنَّ تحديد الجمعيّات المُتعامِلة مع مصلحة الأحداث في وزارة العدل من وزيرها دونه صعوبات لا تُخفـى علـى أحد، أهمّها طائفيّ ومذهبيّ ومناطقيّ. وقد تُعطـى للجمعيّات ذات الطّابع الدّينيّ، فتزيد الأمور تعقيدًا، ولا يكون لكلّ ما تقدّم طابعه الوطنيّ المطلوب.

أمَّـا المادّة 53 من قانون حماية الأحـداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضين للخطر اللّبنانيّ رقم 422 / 2002 فقد نصَّت على أنَّه إلى أنْ تستكملَ المصلحة المذكورة تنظيمها، يستمرّ الإتّحاد لحماية الأحـداث فـي لبنان في مُمارَسـة المهامّ الّتي كانت منوطةً بـه بحسب القوانين السّابقـة والّتي تقتضيها أحـكام القانون الحالي، دون أنْ يحولَ ذلك دون أنْ تُجـريَ وزارة العدل إتّفاقات مُباشرة مع مُؤسَّساتٍ أو جمعيّـات أخرى مُتخصِّصة للقيام ببعض المهامّ السّابق ذكرها، وفق المعايير العامّة الّتي تُحدَّد بموجب مراسيمٍ تصدر بناءً على اقتراح وزير العدل.

بموجـب النصّ المذكور أعلاه، أتـاحَ المُشرِّع اللّبناني لوزير العدل إمكانيّـة عقده لاتّفاقات مُباشرة مـع مُؤسَّسـاتٍ أو جمعيّاتٍ أخـرى مُتخصِّصةٍ للقيام ببعض المهامّ- السّابق ذكرهـا- وفق معاًيير تُحدَّدُ بمراسيم.

إنَّ كلّ مـا تقدَّم من ملاحظات يُخشى معه مُستقبلاً تسييس مشكلة الأحداث، وجعلها عرضةً للضَّياع والمزيـد من التّشرذم في هـذا المَجال الّذي لا يتحمَّل من مؤدِّيه سوى الدّقّـة في تكريس عمله الإنسانيّ وتحقيـق مواد الإتّفاقيّـة الدّوليّة لحقوق الطّفل وما جاءَ في قانون حماية الأحـداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضيـن للخطـر، تطبيقًا لتلك الإتّفاقيّة وإعمالاً لها مع ما يتطلّبـه كلّ ذلك من تقنيّة وخبرة لا تتوافر لـكلّ الجمعيّـات العاملِة في حقل الطّفولـة. كما أنَّ كلّ ما تقدَّم لا يزالُ يطـرحُ الإشكاليّة المتعلّقة بمعرفة

مـدى مفاعيل المؤسّســات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث. الأمر الّذي خصّصنــا لدراسته القسم الثّاني من هذا البحث.

القسم الثّاني
في مفاعيل المؤسّسات الإصلاحيّة
تمهيد وتقسيم:

إنَّ المؤسّســات المخصّصــة للأحداث هي المؤسّسات الحكوميّــة والخاصّة المُعترَف بها رسميًّا لإيــواء وإيــداع الأحداث المنحرفين، أو الّذين يُشكّلون خطــورةً إجتماعيّةً من أجل إصلاحهم وإعادة تكيّفهم مع البيئة الإجتماعيّة. والإيداع في إحدى المؤسّسات الإصلاحيّة آخر حلّ يلجأ إليه المشتغلون برعاية الأحداث؛ إذ إنَّ الإتّجاهات الحديثة في مجال رعاية الأحداث الجانحين تقضي بتفضيل إتّباع طريــق الإختبار القضائــيّ وأساليب الرّعاية مع الحرّيّة في البيئة الطّبيعيّة؛ بحيث لا يُودَع الحدث في أيّ مؤسّسة أو معهد إصلاحيّ إلاّ بعد أنْ يتحقّق فشل علاجه في بيئته الطّبيعيّة.

بنــاءً على ما تقدَّم، ونظــرًا لأهمّيّة دَور المؤسّسات الإصلاحيّة فــي تعزيز حقوق الأحداث، فإنَّنا ارتأينا دراسة هذا الموضوع بالتّفصيل ضمن البابَين التّاليين على الشّكل الآتي:

الباب الأوّل: في مظاهر خصوصيّة المؤسّسات الإصلاحيّة.

الباب الثّاني: في أساليب التّهذيب في المؤسّسات الإصلاحيّة.

الباب الأوّل
في مظاهر خصوصيّة المؤسّسات الإصلاحيّة
تمهيد وتقسيم:

تقــومُ المؤسّسات المخصّصة للأحداث بتقديم كافّة الخدمات التّعليميّة والمهنيّة والإجتماعيّة والصّحّيّــة والنّفسيّــة من أجل تحسين سلوك الأحــداث وإتّباع الأساليب التّربويّــة لإعادة تكيّفهم مع المجتمع. الأمر الّذي خصّصنا لدراسته الفصلين التّاليين على النّحو الآتي:

الفصل الأوَّل: في ماهيّة الرّعاية.

الفصل الثّاني: في أنواع الرّعاية.

الفصل الأوَّل
في ماهيّة الرّعاية

يتلقّى الأحداثُ في المؤسّسات المخصّصة لهم الرّعاية التّعليميّة والرّعاية المهنيّة. الأولى توفّر لهم فرص الإستمرار في الدّراسة وبناء مستقبلٍ ناجحٍ، والثّانية تُتيحُ لهم فرص تعلّم مهنةٍ يستطيعونَ

العيشَ بواسطتها بطريقٍ مشروع.

وتُعتبرُ التّنشئةُ على حقوقِ الإنسان من ضمن المجالات المُكوّنة للحياة المدرسيّة إلى جانب البيئة والصّحّة والتّربية على المواطنة؛ ممّا يُعزّزُ التّعلّمَ ويُرسّخُ القِيَمَ في نفوس التّلامذة. إنَّ المدرسة تُكرّسُ التّوجيهات الفكريّة والإجتماعيّة والوجدانيّة الّتي تؤثّرُ في التّنشئة الإجتماعيّة لهؤلاء التّلامذة. والتّربية على حقوق الإنسان في المدارس لا تعني وجودَ مناهج مستقلّة، وإنّما المطلوب دمجها في مناهج المواد الدّراسيّة ضمن مراحل مختلفة، لتكونَ عمليّةً تربويّةً شاملةً تستهدفُ تكوين التّلميذ.

وفي هذا الإطار، تجدرُ الإشارة إلى أنَّ الرّعاية داخل المؤسّسات الإصلاحيّة، كركنٍ من أركان التّنشئة على حقوق الإنسان، تتّسمُ بعدّة سمات؛ فهي إنسانيّةٌ تهتمُّ بتوعية الإنسان بحقوقه، وعقلانيّةٌ لأنَّها تُخاطبُ العقلَ، وتنويريّةٌ لأنَّها تهتمُّ بمفاهيم مثل الذّات والحرّيّة والكرامة والتّسامح والمساواة والدّيمقراطيّة والمواطنة. وهي أيضًا تربيةٌ نقديّةٌ بنّاءةٌ تدعو إلى إعادة النّظر في القِيَم والمبادئ والسّلوكيّات الّتي تتنافى مع حقوق الإنسان. فهي، بشكلٍ عام، تهدفُ إلى تكوينِ الفرد تكوينًا متكاملاً مع الأخذ بعين الإعتبار كلّ مكوّناته العقليّة والمعرفيّة والسّلوكيّة والوجدانيّة ليكونَ على علمٍ بحقوقه وواجباتهِ وحقوق الآخرين نظريًّا وتطبيقيًّا؛ ممّا يُؤكّدُ، من جديد، العلاقة المهمّة بين المدرسة والمجتمع والمحيط وطرق التّفاعل الّذي ينبغي انْ يتمّ بينهما من أجلِ إنجاحِ أيّ مشروعٍ للتّربية على حقوق الإنسان.

كما أنَّ تربية الإنسان وتعليمه يُمثّلانِ القاعدة الأساسيّة للمنظومة الثّقافيّة؛ إذ تُؤدّي المدرسة وظيفة إنتاج ثقافة وطنيّة من خلال بثّ جملة من المبادئ والقِيَم ذات الصّفة الجماعيّة الوطنيّة. كما ترتبطُ المسألة التّربويّة والتّعليميّة للإنسان بتنشئته الإجتماعيّة من خلال الأسرة، حيث يتلقّنُ، منذ كونه طفلاً، لغته والقوالب الأخلاقيّة العامّة والعليا لسلوكه.

من هنا، يقتضي التّركيز على مراجعة البرامج والمناهج الدّراسيّة وتجديدها لضمان سلامة التّربية الهادفة البنّاءة، وأيضًا التّركيز على الظّروف المُرتبطة بالبيئة المدرسيّة والّتي ينبغي أنْ تُجسّدَ احترامَ حقوق الإنسان، كالعلاقة ما بين المعلّم والتّلميذ وما بين المعلّم ومدير المدرسة وما بين التّلامذة أنفسهم أو المعلّمين أنفسهم. كما يتعيَّنُ تطوير إهتمامات المدرسة واختصاصاتها لتُصبحَ مركزًا للإشراف الإجتماعيّ والقضائيّ، ولتقديم الإستشارات للشّباب، ولا سيّما أولئك الّذين يُعانونَ من مشاكل خاصّة تتعلّقُ بالأسرة أو الرّفاق أو الّذين وقعوا في مهاوي الإنحراف النّاتجة عن استعمال المخدِّرات مثلاً. كما ينبغي تشجيع الشّباب للمساهمة في العمليّة التّعليميّة وبالإشتراك في وضع القواعد والسّياسات الّتي تُحقّقُ العدالة للتّلامذة، وتنمية شعورهم بالإنتماءِ إلى المؤسّسات التّعليميّة والإجتماعيّة المعنيّة بتعليمهم وتنظيم أنشطتهم والإشراف عليها.

تأسيسًا على ما تقدَّم، يُمكننا القول إنَّ الرّعاية داخل المؤسّسات الإصلاحيّة لم تعُدْ تقتصرُ

على الأُطر والمناهج الدّراسيّة التّقليديّة، بل أصبحَت تتناولُ تهذيبَ الشّخصيّة وتدعيمها بالمقوّمات الأخلاقيّــة الصّالحة والإتّجاهــات الإجتماعيّة البنّاءة. من أجل ذلك، تبــرزُ الحاجة ملحّةً وضروريّةً للعمــلِ على تعزيز شخصيّــة التّلامذة و وتنمية مواهبهم وقدراتهم العقليّــة والبدنيّة؛ هذا فضلاً عن الإضطــلاع بأنشطة التّدريب المهنيّ وتوفيــر الفرص المناسبة في هذا الحقل. كما تبرزُ الحاجة إلى بيــان أنواع الرّعاية داخل المؤسّسات الإصلاحيّة الخاصّة بالأحداث. الأمر الّذي جعلنا منه موضوعًا لدراستنا في الفصل التّالي.

الفصل الثّاني
في أنواع الرّعاية

لقــد سَبَــقَ وأوضحنا أنَّ الرّعايــة داخل المؤسّســات الإصلاحيّة، كركنٍ مــن أركان التّنشئة على حقــوق الإنسان، تتّسمُ بعدّة سماتٍ؛ هذا فضلاً عن أنَّها متنوّعة ومتشعّبة، فهي تكون تعليميّة، مهنيّة، نفسيّة وإجتماعيّة...

بالنّسبــة للرّعاية التّعليميّة، فــإنَّ الأحداثَ في معهد إصلاح الأحداث فــي لبنان يتلقّون الدّروس الإبتدائيّة والأخلاقيّة والدّينيّة والمدنيّة وفقًا لبرنامج تضعه إدارة المعهد يُصادق عليه المدير العام لوزارة العمل والشّؤون الإجتماعيّة الّتي تراعى فيه حدود إستعداداتهم ومؤهّلاتهم وميولهم.

أمّــا بالنّسبــة للرّعاية المهنيّــة، ففي معهد إصلاح الأحــداث في لبنان، فإنَّ الحــدثَ يُدرَّبُ على إحدى الحِرَف الموجودة في المعهد وفق إمكاناته واستعداداته وميوله. ويسعى الأخصّائيّ الإجتماعيّ لإيجــاد عملٍ له خارج المعهد للتّقــرّب والإنفتاح على الحياة العاديّة والبيئــة الحقيقيّة الّتي ينبغي أنْ يعيشَ فيها الحدث بعد إخلاء سبيله.

وفــي هــذا الإطار، تجدر الملاحظــة إلى أنَّ كفالة الجانــب الإقتصاديّ لهــؤلاء الشّباب من أهمّ العوامــل الّتــي تُساعدُ على استقرار حياتهم في أُسرهم الّتي قد لا تُرحّــبُ بعودتهم إليها إلاّ إذا كانوا قادريــن على تحمّل أعباء معيشتهم وقادرين على معاونة أسرهم في الحياة. فإذا تبيَّنَ أنَّ الأسرة لم تتهيّــأ لتقبّــل الحدث بعد تخرّجه وإقامته معها، أو تبيَّنَ عجزه عــن كفالة نفسه لضآلة ما يكتسبه من أجرٍ، فإنَّ المؤسّسات تستمرّ في إيوائه حتّى تتوفّر له المقوّمات اللاّزمة لمعيشته.

وفــي معهد إصــلاح الأحداث في لبنان، يقــومُ المدرّس المهنــيّ بتعليم الأحــداث أصول المهنة ويشتــركُ فــي الأعمال التّربويّة الأساسيّة ويحرّكُ في كلّ حدث إندفاعــه للمهنة وذوقه ويُكيّفه بنظام عملــيّ[27]. والحِــرَف الّتي يحتويها المعهــد تتضمَّن أعمال الكهرباء، وميكانيــك السّيّارات والنّجارةً والحدادة وأعمال البناء والتّفصيل والخياطة.

ولا شــكَّ أنَّ التّدريب المهنيّ داخل مؤسّسات الأحــداث يُحقّقُ أغراضًا متعدّدة. فهو يُتيحُ للحدث أنْ يتعلَّــمَ حرفــةً يستطيــعُ أنْ يعيشَ منها بعد خروجــه من المؤسّسة؛ هذا فضلاً عــن غرس الثّقة في

نفسه. كما أنَّه يُقدّمُ له قيمةً معنويّةً ومادّيّةً يجعلانه يبتعدُ عن طريق الإنحراف واليأس، ويدفعانه إلى هدف بناء المستقبل باسلوب شرعيّ مقبول في المجتمع.

أمّا بالنّسبة للرّعاية الصّحّيّة للحدث، فإنَّها تبدأ منذ دخوله المؤسّسة؛ حيث يُوقع عليه الكشف الطّبّيّ العام لمعرفة الأمراض الّتي يكون مصابًا بها من أجل علاجه. وفي معهد إصلاح الأحداث في لبنان، يقومُ طبيب المعهد، في ما خلا الحالات الطّارئة المستعجلة، بزيارة المعهد مرّة في الأسبوع، ويُشيرُ بكلّ ما يراه لازمًا من أسباب الوقاية. وتقومُ الممرّضة بتقديم الإسعافات الأوّليّة وتطبيق العلاج وفق إرشادات الطّبيب[28].

ويلحق بالنّاحية الصّحّيّة أنْ يكونَ مكان تنفيذ هذا التّدبير ملائمًا؛ بحيث لا تزيد فيه كثافة الأحداث على حدٍّ معيّن. ويجب أنْ يشتملَ على عدّة أماكن يُخصَّص بعضها للنّوم وبعضها للطّعام وبعضها للعمل. كذلك من أجل المحافظة على صحّة النّزلاء، تعمدُ المؤسّساتُ إلى توفير الغذاء الصّحّيّ والملائم لهم، فتقدّم الوجبات النظيفة وفي أوقات منتظمة.

ويقدّم معهد إصلاح الأحداث في لبنان كمّيّة من الطّعام وفقً لائحة شهريّة تفصيليّة يضعها المدير مع طبيب المعهد، وألبسة لائقة للأحداث وأعتدة لائقة للنّوم تتناسب مع فصول السّنة[29].

ومن أجل صحّة الأحداث، تعملُ المؤسّساتُ على توفير النّشاط الرّياضيّ. وهي تخصّصُ، في سبيل ذلك، جزءًا من البرنامج اليوميّ يكون عادةً بعد الظّهر حتّى يُتاح للحدث فرصة تقوية بنيته وممارسة النّشاط الّذي يميلُ إليه.

وبالنّسبة لأهمّيّة الرّعاية الصّحّيّة، فإنَّها لا شكّ تساهمُ في التّأهيل على نحو فعّال لما توفّره للمحكوم عليه من علاج للعلل البدنيّة أو العقليّة أو النّفسيّة الّتي يعاني منها. فتزيلُ بذلك العوائق الّتي يمكن أنْ تؤدّي به إلى السّلوك السّيّء. كما أنَّها تسهمُ في تعويد الأحداث على النّظام والنّظافة بحيث تصبح هذه العادات عنصرًا من عناصر النّجاح في الحياة، إلى جانب ما توفّره هذه الرّعاية من الإحتفاظ بالقوّة البدنيّة والنّفسيّة والعقليّة الّتي تعين المحكوم على القيام بدَوره في المجتمع والإعتماد على نفسه في كسب العيش.

أمّا فيما يتعلّق بالرّعاية النّفسيّة، تُجرى للأحداث الإختبارات النّفسيّة اللاّزمة لتقدير حالتهم النّفسيّة والتّعليميّة ورسم طريقة علاجهم. ويجوز الإستعانة بأخصّائيّين في هذا المجال. وهذا التّدبير يتّفقُ مع الإتّجاهات العلميّة الحديثة الّتي تؤمنُ بالفروق الفرديّة في القدرات والميول والإستعدادات ومستوى الذّكاء حتّى يكون توجيه نزلاء المؤسّسة قائمًا على الأسس العلميّة.

وتعملُ المؤسّساتُ الإصلاحيّة في لبنان على عقد إجتماعات إرشاديّة جماعيّة لعلاج الأحداث وتحوّل الحالات الّتي تحتاج إلى خدمات متخصّصة إلى العيادة النّفسيّة المركزيّة. ويبقى الطّبيب النّفسيّ على إتّصال مع الإدارة من أجل مراقبة الحدث وتوجيه المربّين إلى الأساليب الواجب اعتمادها في تربيته[30].

الباب الثّاني
في أساليب التّهذيب في المؤسّسات الإصلاحيّة
تمهيد وتقسيم:

تعتمدُ مؤسّسات الأحداث على الأساليب التّربويّة الحديثة في التّعليم والتّهذيب عن طريق أخصّائيّين تتوفّر لديهم الكفاءات اللاّزمة كلّ في مجال اختصاصه. كما للرّعاية اللاّحقة أهمّيّتها في إصلاح الحدث وتأهيله؛ هذا فضلاً عن نظام الحرمان من بعض المزايا. بناءً على الإعتبارات المذكورة، يأتي تقسيم الباب الحالي إلى فصلين على النّحو الآتي:

الفصل الأوّل: في ماهيّة أساليب التّهذيب في المؤسّسات الإصلاحيّة.

الفصل الثّاني: في الرّعاية اللاّحقة والنّظم التأديبيّة في مؤسّسات الأحداث .

الفصل الأوَّل
في ماهيّة أساليب التّهذيب في المؤسّسات الإصلاحيّة

تقومُ مؤسّساتُ الأحداث بدَورها الرّعائيّ والإصلاحيّ على أساس الفصل بين الجنسين، ووضع الأحداث في مجموعات تتّفق مع سِنّهم وميولهم المختلفة؛ بحيث يسودُها الجوّ العائليّ. وتمارسُ كلّ مجموعة النّشاطاتِ والهوايات المختلفة الّتي تساهمُ في تكيّفها مع البيئة الخارجيّة. كما تعملُ مؤسّساتُ الأحداث على توفير الفرص للحدث من أجل العودة إلى أسرته الطّبيعيّة، ومن أجل إيجاد عمل ملائم له بعد الإفراج عنه، أي أنَّ عمل المؤسّسات لا ينتهي بمجرّد خروج الحدث من المؤسّسة بل أنَّ تستمرَّ في رعايته بعد ذلك بهدف منعه من العودة مرّةً أخرى إلى طريق الجريمة.

بالنّسبة للرّعاية الإجتماعيّة في مؤسّسات الأحداث، فإنَّها تبدأ باستقبال الحدث الّذي يأتي إلى المؤسّسة وهو مشحونٌ بانفعالات الخوف والقلق. ويقوم باستقباله الأخصّائيّ الإجتماعيّ الّذي يعملُ على إزالة مخاوفه وعلى إعادة الثّقة والطّمانينة إلى نفسه وتهيئته للإندماج في حياته الجديدة. ثمّ توضَع برامج النّشاط الإجتماعيّ الّتي يشرفُ على تنفيذها الفنّيّون من الأخصّائيّين الإجتماعيّين والرّياضيّين بقصد إعادة تأهيلهم وإعدادهم للعودة إلى الحياة في المجتمع من جديد.

ويقومُ المربّي في معهد إصلاح الأحداث في لبنان بمهمّة تربية الأحداث الذّين يُعهَد إليه بهم وذلك خارج أوقات الدّراسة أو التّعليم المهنيّ وفقًا للأصول التّربويّة الحديثة. وهو ينظّمُ حياة الأحداث في ضروراتها الأوّليّة، كالنّهوض من النّوم والنّوم والأكل والنّظافة والقواعد الصّحّيّة والأعمال التّوجيهيّة... هذا بالإضافة إلى أنَّه يهتمّ بالفعاليّات التّربويّة الموجّهة والرّوابط القائمة بين الأهل وأولادهم والإتّجاهات المختلفة. كما يتناول المربّي وجبات الطّعام مع فريقه ويتعاون مع المدرّس في عمليّة التّقويم والتّأهيل وفقًا للبرامج الموضوعة[31] .

وفي هذا الإطار، يعملُ الأخصّائيّون في المؤسّسة على الإهتمام بتنمية الهوايات بين الأحداث في

نواحــي التّمثيل والموسيقى والرّسم والزّراعة والتّربيــة الفنّيّة والإطّلاع على الكتب العلميّة الموجودة فــي مكتبة المؤسّسة. والنّشاط التّرفيهيّ له الأثر الكبير في تنمية شخصيّة الأحداث وإزالة التّوتّرات المختلفــة الّتي تؤدّي بهم إلى السّلوك المنحرف. ولذا، فإنَّ الإهتمام بهذا النّشاط يأخذ جهدًا كبيرًا مِــنْ قبَل العاملين فــي المؤسّسات. والهوايات تأخذ صورًا مختلفــة وجميعها ترمي إلى تأهيل الحدث وإصلاحه.

ويتّخـذ الأخصّائـيّ من النّشــاط الرّياضيّ وسيلةً لإعــداد الحدث في المؤسّســة كمواطنٍ صالح وينمّــي لديه الشّعور بالثّقــة. فالنّشاط الرّياضيّ مــن الوسائل الهامّة في التّربيــة البدنيّة والجسديّة عنــد الطّفل وإظهار مهاراته في حــال تفوّقه. فالألعاب الجماعيّة تخلقُ عنــد الحدث قدرات التّعامل مع الجماعة وأخلاقيّات التّصرّف العام. وهي بهذا تحقّق خطوةً متقدّمةً في تقويم شخصيّة الحدث المنحرف إلى جانب ما توفّره أيضًا من صحّة بدنيّة ونفسيّة تعملُ على إزالة الشّعور بالنّقص وغرس الثّقة بالنّفس الّتي يكونُ لها بالغ الأثر في تكوين الشّخصيّة السّويّة.

أمَّا بالنّسبة للزّيارات، فإنَّ مؤسّسات الأحداث تسيرُ في إتّجاهين. فالإتّجاه الأوّل يرمي إلى ربط الحــدث فــي المؤسّسة كي يتمكّنَ من تربيته وتثقيفه؛ أمّا الإتّجاه الثّاني فيرمي إلى ربطه بأسرته لأنَّه سيعودُ إليها ويعيش في كنفها ورعايتها.

والمشــرّع اللّبنانيّ أجازَ لمدير معهد الإصلاح منح الإجازات للأحداث بالخروج من المعهد مدّة لا تتجاوز الأسبوع لزيارة ذويهم وذلك للّذين مضى على وجودهم مدّة ثلاثة أشهرٍ على الأقلّ وبرهنوا خلالها على سلوكٍ حسَن. ولا تُعطى الإجازة أكثر من مرّةٍ واحدةٍ للحدث الواحد خلال ثلاثة اشهر إلاّ في حالات طارئةٍ يعودُ تقديرها للمدير(32).

والهــدف مــن إتّباع نظام الزّيارات يكمنُ في تنمية ولاء الحــدث لأسرته وللمجتمع وعودته إليها عندما تصبحُ الأسرة صالحةً لتقبّل الحدث. كما يُمكن لإدارة معهد إصلاح الأحداث في لبنان أنْ تقبلَ الهبــات المُعدَّة لتوزيعها على الأحداث بعد موافقة المدير العام لــوزارة العمل والشّؤون الإجتماعيّة. وتــوزّعُ هذه الهبات وفقًا لبرنامج يضعه مدير المؤسّسة. كما يُعطى للأحداث عائدات عملهم بموجب قرار من المدير العام لوزارة العمل والشّؤون الإجتماعيّة(33).

وهنــا، يبرزُ التّســاؤل حول معرفة أهمّيّة الرّعايــة اللاّحقة للأحداث وأبرز النّظــم التأديبيّة في مؤسّسات الأحداث؟ الأمر الّذي سنتولّى دراسته في الفصل التّالي.

الفصل الثّاني

في الرّعاية اللاّحقة والنّظم التأديبيّة في مؤسّسات الأحداث

لقد سَبَقَ وأوضحنا أنَّ الرّعاية اللاّحقة تستمدّ أهمّيّتها من كونها تعملُ على إتمام جهود التّهذيب والتّأهيل الّتي بُذلت في المؤسّسة. كما أنَّها تعملُ على وقاية المُفرَج عنه من التّعرّض للعوامل المُفسدَة

من جديد؛ هذا فضلاً عن أنَّها تهدفُ إلى متابعة تأهيل الحدث بعد الإفراج عنه، والوقوف على مدى تكيّفه مع الأسرة وفي المجتمع وفي الدّراسة والعمل من أجل مساعدته ليستقرَّ في حياته الإجتماعيّة لإبعاده عن طريق الإنحراف والجريمة.

أمّا بالنّسبة للنّظم التأديبيّة في مؤسّسات الأحداث، فلا شكّ أنَّ هذه المؤسّسات، بحكم وظيفتها، تعملُ على معاملة الأبناء بلين في سبيل علاجهم وحمايتهم وتعليمهم. وفي سبيل تحقيق هذا الغرض، فهي تتّبعُ نظام المكافآت بالنّسبة للحدث الّذي يُبدي تحسّنًا في سلوكه. كذلك تتّبع نظام الحرمان من بعض المزايا بالنّسبة للأحداث الّذين يبدون عدم المبالاة ومخالفة النّظام إذا كان ذلك يُسهمُ في إصلاح أحوالهم.

ففي معهد إصلاح الأحداث في لبنان، فإنَّ الأحداث يخضعونَ للقصاصات في الحدود التّالية: التّأنيب؛ فرض عمل إضافيّ؛ منع الحدث من مقابلة ذويه لمدّة معيّنةٍ، كذلك منعه من زيارتهم لمدّةٍ أقصاها ستّة أشهرٍ؛ عزل الحدث عن رفاقه[34].

الخاتمة

لقد أوضحَ البحثُ الحالي أنَّ اختلاط الحدث مع مُحترفي الإجرام في السّجون العاديّة يمحو كلّ أثرِ إصلاحيّ، ويُفسحُ المجال أمامه للعودة إلى الجريمة والانحراف. وعِلاج ذلك يكون بإنشاء مُؤسَّسات مُتخصِّصة بعيدة كلّ البُعد عن مظاهر السّجون العاديّة، تتولّى إكمال مُهمَّة تأهيله للعودة إلى الحياة الإجتماعيّة من جديد.

ولا شكَّ في أنَّ المُؤسَّسات الإصلاحيّة في حالة تطوّرٍ مُستمرٍّ؛ إذ إنَّها مدعوَّة لمواجهة مشكلة الإنحراف المتطوِّرة أيضًا مع تغيّر الظّروف والأحوال الإجتماعيّة والإقتصاديّة. فالمرونة في مواجهة المواقف الجديدة هي الّتي تضمنُ استمرار الوظيفة الإجتماعيّة الّتي تُؤدِّيها هذه المُؤسَّسات، وإلاّ فإنَّ بقاءها على نظام واحد ومنهج واحد قد يُؤدِّي حتمًا إلى تجرّدها، ومن ثُمَّ إلى عدم جدوى نشاطاتها لعدم انطباقها على المُتطلِّبات المُستجدَّة في ميدان الوقاية والعلاج.

وبالتّالي لن نستغربَ قيام مُؤسَّسات جديدة أو أنظمة أحدث من السّابقة لمُواجهة مشكلة الإنحراف عند الأحداث؛ إذ إنَّ، فتُوظَّف نتائجهما في تطوير الإستفادة من التّجارب والتّقييم المُستمرّ لعمل الأنظمة والمُؤسَّسات هما من ميِّزات هذا العصر المُؤسَّسات وأدائها. إلى جانب ذلك، فإنَّ المُؤسَّسات المُختصَّة بشؤون الأحداث قد أصبحَت لا تستوعب معظم الحالات المُحالَة إلى المحاكم. لذلك، نرى ضرورة الإسراع في إنشاء المُؤسَّسات المُتنوِّعة لاستيعاب هذه المُشكلة، ومُحاولة اقتلاعها من الجذور، بقدر الإمكان، أو الحدّ من آثارها الضّارّة.

وفي لبنان، فإنَّ الأمر يحتاج إلى دراسة متعمّقة وواسعة ووضع أسس متكاملة لإنشاء المؤسّسات الإصلاحيّة الّتي يمكن أنْ تستوعبَ الأحداث من الجنسَين. ونرى أنَّ صدور القانون رقم 422 بشأن

حمايـة الأحداث المخالفين للقانـون أو المعرَّضين للخطر، الصّادر فـي 6 حزيران 2002، يُشكّلُ خطـوةً متطـوّرةً في مجال معالجة إنحرافهـم أو تعرّضهم لخطر الإنحراف. ويبقـى أنْ نشيرَ إلى أنَّ الأمـر يحتاجُ لتطبيق عملـيّ وعلميّ سليم وذلك عن طريق إيجاد المؤسّسـات الإجتماعيّة والتّهذيبيّة والتّربويّـة المتخصّصـة الّتي تُشـكّلُ الرّكيزة الأساسيّة لسياسة مكافحـة الإنحراف عند الأحداث أو الحدّ من خطورته أو الوقاية منه.

وحتَّى تُكتَب السِّيادة لهذه المبادئ، ينبغي دومًا مُتابعة التقدّم المُحرَز في تنفيذ القواعد الدّوليّة مـن قِبَل المُنظَّمة الدّوليّـة والمُنظَّمات الإقليميّة، وحثّ الدّول الأعضاء فـي الأمم المُتَّحدة على بذل الجهود المُتواصِلة مِن أجل تنفيذ المبادئ الوارِدة في القواعد الدّوليّة.

الهوامش:

(1) إنَّ هـذا الإتّجـاه الحديـث فـي مجـال العدالـة الجنائيّـة الخاصّـة بالأحـداث المنحرفيـن جاءَ فـي إطار تطوّرٍ عـامٍّ لمفهوم العقوبة الجزائيّة ووظيفتهـا؛ بحيث أصبحت هذه الأخيرة وسيلـة لها مُؤسَّساتها المُؤهَّلَة لتمكينها من تحقيق أهدافها.

(2) قواعد بكّين، المقاضاة والفصل في القضايا، الجزء الثّالث، القاعدة رقم 19 - 1.

(3) قواعد بكّين، العلاج خارج المُؤسَّسات، الجزء الرّابع، القاعدة رقم 26 - 3.

قواعد بكّين، التّحقيق والمقاضاة، الجزء الثّاني، القاعدة رقم 13 - 4.

القواعـد 24، 26/ 1، 26/2 و28 مـن قواعـد الأمـم المُتَّحدة الدّنيا النّموذجيّـة لإدارة شؤون قضاء الأحداث، المعروفة بـ «قواعد بكّين».

(5) قواعد بكّين، العلاج خارج المُؤسَّسات، الجزء الرّابع، القاعدة رقم 29.

وفي المعنى ذاته: المادّة الثّانية من العهد الدّوليّ الخاصّ بالحقوق المدنيّة والسّياسيّة (1966)؛ المادّة 40 من الإتّفاقيّة الدّوليّة لحقوق الطّفل (1989)؛ والقاعدة 30 من قواعد الأمم المُتَّحدة بشأن حماية الأحداث المُجرَّدين من حرّيّتهم لعام 1990.

(6) وقد نصَّت المادّة 124 من قانون العقوبات اللّبناني المُلغاة على ما يلي:

«مَـن عُهِـدَ به مـن القاصرين إلـى إصلاحيّة يُحجَز فـي معهد تعليم خاصّ يُلقَّن فيه الدّروس الإبتدائيّة والأخلاقيّة والدينيّة، ويتعلَّم إحدى الحرف ويُمارس الرّياضة البدنيّة».

(7) صَـدَرَت مراسيـم لاحقـة تُعـدِّل مـن أحكام المرسـوم رقم 6675 تاريـخ 6 آب 1946. فقـد صَدَرَ مرسـوم رقـم 64 بتاريـخ 8 نيسـان 1953، ونصَّ، فـي المـادّة الأولـى منـه، علـى أنّـه يُلحَـق بـوزارة الشّؤون الإجتماعيّة معهد إصلاح الأحداث. أُنشئ هذا المعهد بمقتضى المرسوم رقم 6675، السّابق ذكره، في مكانٍ خاصّ أُفـرِزَ له فـي سجن «الرّمل» وفي جميع السّجون الأخرى، ثُمَّ في سرايـا قرية «بحنّس»، المعروفة اليومَ بـ «ضهـر الصّـوّان». وقـد كانت تُدير شؤون هذا المعهد لجنةٌ مُؤلَّفةٌ مـن مندوبين عن الوزارات الآتية: التّربية الوطنيّـة، العدليّـة، الماليّة، الدّاخليّة وَمن مفتّش التّعليم الإبتدائيّ في بيروت ومن مندوب عن جمعيَّة حماية الأحداث. أمَّا من النّاحية القضائيّة، فقد كانَ يُشرفُ عليه النّائب العام لدى محكمة الإستئناف وقتئذ، والنّائب العام لدى محكمة التّمييز اليوم. ويُؤمِّنُ الإرتباط بين الدّوائر القضائيّة وإدارة هذا المعهد رئيس قلم النّيابة

العامّة الإستئنافيّة، حينذاك، ورئيس قلم النّيابة العامّة التّمييزيّة، اليوم، بوصفه رئيسًا لمكتب الأحداث المُنشأ بمُذكّرة وزارة العدل الصّادرة في 16 نيسان سنة 1947 رقم 3174.

ولا تزال أحكام المرسوم رقم 6675 صالحةً للإعتماد في ظلّ القانون الجديد، أي القانون الخاصّ بحماية الأحداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضين للخطر اللّبناني رقم 422/ 2002.

(8) في لبنان، صَدَرَ المرسوم رقم 16734 بتاريخ 22/ 6/ 1964 الّذي يتعلّق بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث؛ حيث تتناول مهمّة المعهد تلقين الأحداث الدّروس الإبتدائيّة والأخلاقيّة والدّينيّة والمدنيّة وتدريبهم على إحدى الحِرَف وفقًا لبرنامج تضعه إدارة المعهد يُصادق عليه المدير العامّ لوزارة العمل والشّؤون الاجتماعيّة، تُراعى فيه حدود استعداداتهم وَمُؤهّلاتهم وميولهم.

ويقبل معهد الإصلاح جميع الأحداث المَحكومين بالتّدابير الإصلاحيّة. ويُمكن قبول الأحداث المَحكومين بالتّدابير التّأديبيّة إلى أنْ ينشأ معهد خاصّ لهم، وذلك بمُوافقة المدير العامّ لوزارة العمل والشّؤون الإجتماعيّة، إذا كان ذلك لا يتعارض مع مصلحة الأحداث المحكومين بالتّدابير الإصلاحيّة. (المادّة الثّانية من المرسوم المذكور أعلاه).

أُنشئَت دار المُلاحظة في لبنان بمقتضى المرسوم رقم 18767 تاريخ 21 شباط 1958. وقد فرض المرسوم رقم 11541 تاريخ 23 / 12 / 1968، في المادّة التّاسعة منه، تعيين رئيس لدار المُلاحظَة المذكورة حائزًا على شهادة جامعيّة في علم النّفس والتّربية وفي الخدمة الإجتماعيّة وسبَق له وخدَمَ في إدارة إحدى المُؤسَّسات مُدّةً لا تقلّ عن الثّلاث سنوات.

(10) صَدَرَ المرسوم رقم 3666 تاريخ 30 كانون الأوّل 1953 الّذي يُعيِّن المؤسَّسات الّتي يُمكن إرسال الأحداث إليها والمحكوم عليهم بتدابير الحماية، كذلك غير الأحداث المحكوم عليهم بالتّدابير الإحترازيّة، وتُرسَل خلاصات الأحكام القاضية بتدابير الحماية والتّدابير الإحترازيّة إلى وزارة الشّؤون الإجتماعيّة، فيُعيِّن المدير العام لهذه الوزارة المُؤسَّسة الّتي يُوضَع فيها المحكوم عليه. وهذه المُؤسَّسات هي:

دار الأيتام الإسلاميّة- دار صغار العمّال اللّبنانيِّين- ميتم القدّيس يوسف- مأوى العجزة الأرثوذكسي- ميتم القدّيس شارل- مأوى العجزة الماروني- مستشفى القدّيسة تريز للأطفال- دار الرّحمة- الميتم الدّرزيّ- مستشفى الأطفال والأولاد- دار العجزة الإسلاميّ- لجنة الخدمات الإجتماعيّة في طرابلس- مأوى تلشيحا للعجزة في البقاع- ميتم مار مخايل- ميتم زهرة الإحسان- ميتم مار الياس بطينا- مدرسة العميان الإنجيليّة- جمعيّة الشّابّات المُسلمات في بيروت- مدرسة العميان السّويسرانيّة- جمعيّة تأمين العمل- فرع الفتيات الجانحات ومُؤسَّسة الآباء الكبّوشيِّين في عبيه.

(11) قواعد بكّين، المقاضاة والفصل في القضايا، الجزء الثّالث، القاعدة رقم 19.

(12) أمّا في إنكلترا، فيُحجَز الأحداث في مراكز المُلاحَظَة بانتظار إتّخاذ قرار بشأنهم، حيث تُجرى لهم كافّة الفحوص والدّراسة عن أحوالهم النّفسيّة والإجتماعيّة والصّحّيّة وأوضاعهم العائليّة. وتستنير المحكمة بهذه المعلومات لكي تتمكّن من تقرير العلاج المُناسب.

(13) تَمّ حديثًا إنشاء مركز لاستقبال الأحداث المُتسوِّلين والمُتشرِّدين في منطقة الكحّالة، تُشرف عليه جمعيّة «الإتّحاد لحماية الأحداث» بواسطة إختصاصيِّين في هذا المجال.

(14) حلقة الدّراسات الأوروبيّة للرّعاية الإجتماعيّة الّتي عقدتها الأمم المُتّحدة عام 1949.

(15) المادّة التّاسعة من قانون حماية الأحداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضين للخطر اللّبناني رقم

422/ 2002، الصّادر في 6/6/2002.

(16) وَمن الجمعيّات غير الحكوميّة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الاتّحاد لحماية الأحداث في لبنان، الإتّحاد اللّبناني لرعاية الطّفل، تجمّع الهيئات الأهليّة من أجل حقوق الطّفل في لبنان، جمعيّة دار الطّفل اللّبناني، كاريتاس لبنان والمُؤسّسة الوطنيّة للرّعاية الإجتماعيّة والتّأهيل المهَنيّ.

(17) المادّتان 44 و45 من الإتّفاقيّة الدّوليّة لحقوق الطّفل لعام 1989.

(18) إنَّ دار الرّاعي الصّالح ذات طابع دينيّ مُعيَّن؛ ممّا ينتج حرمان الفتيات الجانحات ذوات التّبعيّة الدّينيَّة المُختلفة من هذه الخدمة الإجتماعيَّة.

(19) في هذا المجال، نذكرُ على سبيل المثال لا الحصر بعض مُؤسَّسات الأحداث الشبّان في بعض الدّول المُتقدّمة:

السّجون المدرسيّة للشبّان في فرنسا. وهي مُؤسَّسات تعمل على أساس علاج الحدث البالغ وتأهيله بأسلوب يتَّسم ببعض الشدّة إذا ما قُورنَ بالنّظام المُطبّق داخل مؤسَّسات الأحداث.

وأيضًا مُؤسَّسات «البورستال» في إنكلترا الّتي يُرسَل إليها الأحداث بين سنّ السّادسة عشرة والحادية والعشرين من الذّكور والإناث الّذين يُظهرون سلوكًا سيِّئًا وتصرّفات خطرة في المدارس الإصلاحيّة أو الّذين سبق اتّهامهم في جرائم خطيرة أو الّذين لم يتقيَّدوا بشروط نظام الإختبار القضائيّ والّذين يُبدون سلوكًا مُنحرفًا ويختلطون بأناس من ذوي السّلوك السيِّئ والّذين ترى المحكمة، من خلال سلوكهم وظروف الجريمة، أنَّ هذا الإيداع أجدى في تأهيلهم وإصلاحهم. ولا يُرسَل الحدث البالغ إلى مثل هذه المؤسَّسات إلاّ بعد اطّلاع المحكمة على التّقرير المُقدَّم عن حالته والّذي يُفيد صلاحيّة المُذنب لمثل هذا النّوع من العلاج.

ونذكر أيضًا مُؤسَّسة «ألميرا» "Elmira" للشبّان في الولايات المُتَّحدة الّتي يسود فيها أسلوب المُعامَلة التّهذيبيّة والتّربويّة. وأيضًا مجالس إصلاح الشّباب في الولايات المُتَّحدة الّتي أصبحت هيئات للأحداث تابعة للولاية، وأدّت، بصفتها هذه، خدمةً في تحسين مدارس التّدريب وبرامجها الخاصّة بالإفراج وإنشاء مدارس ومخيَّمات للشّباب المُنحرفين.

جدعون، نجاة: «جرائم الأحداث في القانون الدّوليّ والدّاخليّ- دراسة مقارنة»، الطّبعة الثّانية، منشورات زين الحقوقيّة، بيروت- لبنان، 2013، ص 685 و686.

(20) En France، l'emprisonnement ferme est plus rare et obéit à des règles spéciales destinées à protéger le mineur (art. 20 – 2، al. 4، ord. 2 Février 1945، mod. 1. 16 déc.1992). Les mineurs purgent leur peine dans un quartier spécial d'une maison d'arrêt (art D. 519، C. pr. pén.). Un régime particulier et individualisé est appliqué aux jeunes condamnés، favorisant notamment l'éducation et la formation professionnelle (art. D. 515، al. 1er، C. pr. pén.). On tente d'éviter tout phénomène de «contagion» et، de façon plus générale، il convient de faciliter la réinsertion sociale de ces jeunes condamnés.

Certaines activités destinées à faciliter la réinsertion sociale

sont proposées:

activités éducatives, lectures, jeux. . . sans oublier le travail. La volonté de protéger le mineur est toujours présente, et c'est pourquoi certaines mesures comme la période de sûreté de l'article 720 – 2 du Code de procédure pénale sont exclues (art. 720 – 3, C. pr. pén.; Crim. 11 Mai 1988, Bull. crim., N° 210).

En outre, et en toute hypothèse, le mineur ne peut jamais, contrairement aux majeurs, être privé de certaines avantages, comme la suspension ou le fractionnement de la peine, le placement à l'extérieur, la permission de sortir ou la libération conditionnelle.

(21) يُنادي علم الإجرام التقدّمي بتفضيل العلاج غير المُؤسَّسيّ على الإيداع في المُؤسَّسات الإصلاحيّة. ولا يجوز أنْ يُحبَس المُجرم الحدث إلاّ إذا لم يكن هناك أيّ علاج آخر مُناسب له. بمعنى آخر، إذا لم يكن هناك مناصّ من إيداع الحدث في مُؤسَّسة إصلاحيّة، ينبغي أنْ يقتصرَ الحرمان من الحرّيّة على أدنى درجة مُمكنة، مع اتّخاذ ترتيبات مُؤسَّسيّة خاصّة للحبس، ومع مراعاة الفوارق في أصناف المجرمين والجرائم والمُؤسَّسات. بل الواقع هو أنّه ينبغي إيلاء المُؤسَّسات «المفتوحة» أولويّةً على المُؤسَّسات «المُغلَقة».

وعلاوة على ذلك، ينبغي أنْ يكونَ أيّ مرفقٍ من هذا القبيل ذا طابعٍ إصلاحيّ أو تهذيبيّ، لا أنْ يكونَ له طابع السّجن.

(22) المادّة 15 من قانون حماية الأحداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضين للخطر اللّبناني رقم 422/ 2002؛ والمادّة 49 من قانون الأحداث المصري رقم 31 / 1974.

(23) تنصّ المادّة 14 من قانون حماية الأحداث المُخالفين للقانون أو المُعرَّضين للخطر اللّبنانيّ رقم 422/2002 على أنّه «يُوضَع الحدث في معهد التّأديب لمُدَّة أدناها ثلاثة أشهر. إذا أتمَّ الحادية والعشرين من عمره وما زالَ في المعهد المذكور، يُمكن للقاضي، بناءً على طلب الحدث أو المندوب الإجتماعيّ وبعد الإستحصال على تحقيقٍ إجتماعيّ وعلى تقرير مدير المعهد وبعد الإستماع إلى الحدث، أنْ يُطلقَ سراحه مع وضعه، إنْ اقتضى الأمر، تحت الحرّيّة المُراقَبَة لمُدَّة لا تتعدَّى السّنة، وإلاّ يبقى الحدث في معهد التّأديب حتّى تنفيذ الأحكام الصّادرة بحقّه عن قاضي الأحداث أو يُنقَل إلى السّجن الخاصّ بالأحداث أو إلى السّجن العاديّ بحسب ما يُقرِّره القاضي».

(24) تمييز جزائيّ لبنانيّ، قرار رقم 188/2013، تاريخ 25/6/2013، الرّئيس جوزف سماحة، الأعضاء: القاضي/ عون، مركز الدّراسات والأبحاث في المعلوماتيّة القانونيّة (المعروف «مركز المعلوماتيّة القانونيّة»)، فرع من فروع كليّة الحقوق والعلوم السّياسيّة والإداريّة في الجامعة اللّبنانيّة. cij@ul.edu.lb

(25) تمييز جزائيّ لبنانيّ، قرار رقم 206/2013، تاريخ 11/7/2013، الرّئيس جوزف سماحة، الأعضاء: القاضي/ عون، مركز المعلوماتيّة القانونيّة، المرجع السّابق.

(26) لقد سَبَقَ لمجلس إدارة جمعيّة الاتّحاد لحماية الأحداث في لبنان أنْ تقدَّمَ من وزير العدل عام 1996 بطلبٍ ليُصار إلى عرض الموضوع على مجلس الوزراء لاستصدار المرسوم

المذكور؛ وحتّى الآن لم يتحقّقْ ذلك.

(27) المادّة 23 من المرسوم رقم 16734 تاريخ 22/6/1964 الخاصّ بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث.

(28) المادّتان 28 و29 من المرسوم رقم 16734 تاريخ 22/6/1964 الخاصّ بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث.

(29) المواد 9، 10 و11 من المرسوم رقم 16734 تاريخ 22/6/1964 الخاصّ بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث.

(30) المادّة 30 من المرسوم رقم 16734 تاريخ 22/6/1964 الخاصّ بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث.

(31) المواد 19، 20 و21 من المرسوم رقم 16734 الخاصّ بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث.

(32) المادّة 15 من المرسوم رقم 16734 الخاصّ بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث.

(33) المواد 8 إلى 12 من المرسوم رقم 16734 الخاصّ بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث.

(34) المادّة 36 من المرسوم رقم 16734 الخاصّ بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث.

المراجع:

أوّلاً: المراجع باللّغة العربيّة:

الكتب:

شمس الدّين عفيف، "المستشار المصنّف (جزائيّ) الإلكترونيّ 2014"، سنة الصّدور 2015.

شمس الدّين عفيف، "مجموعة المصنّفات"، إنتاج شركة دار الكتاب الإلكترونيّ اللّبنانيّ، ش.م.ل.، بيروت- لبنان.

جدعون نجاة جرجس، "جرائم الأحداث في القانون الدّوليّ والدّاخليّ- دراسة مقارنة"، الطّبعة الأولى، منشورات زين الحقوقيّة، لبنان، 2010، 894 صفحة.

ب- الشّرع الدّوليّة

الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان في 10/12/1948.

الإعلان العالميّ لحقوق الطّفل في 20/11/1959.

العهد الدّوليّ الخاصّ بالحقوق المدنيّة والسّياسيّة في 16/12/1966.

العهد الدّوليّ الخاصّ بالحقوق الإقتصاديّة والإجتماعيّة والثّقافيّة في 16/12/1966.

قواعد الأمم المتّحدة الدّنيا النّموذجيّة لإدارة شؤون قضاء الأحداث (قواعد بكّين)، في 29/11/1985.

الإتّفاقيّة الدّوليّة لحقوق الطّفل في 20/11/1989.

مبادئ الأمم المتّحدة التّوجيهيّة لمنع جنوح الأحداث (مبادئ الرّياض التّوجيهيّة)، في 14/12/1990.

قواعد الأمم المتّحدة بشأن حماية الأحداث المجرّدين من حرّيّتهم في 14/12/1990.

ج- القوانين

المرسوم رقم 16734 بتاريخ 22/ 6/ 1964 الّذي يتعلّق بتنظيم العمل في معهد إصلاح الأحداث في لبنان.

قانون العقوبات اللّبنانيّ المرسوم الإشتراعيّ رقم 340 تاريخ 1/3/1943.

قانون حماية الأحداث المُخالِفين للقانون أو المُعرَّضين للخطر اللّبناني رقم 422/2002 الصّادر في 6/6/2002.

ثانيًا: المراجع باللّغة الأجنبيّة

A- En français:

- Ginestet Catherine et Garé Thierry, "Droit pénal – Procédure pénale", Dalloz- Sirey, Paris, Edition 2019.

- Guinchard Serge, Buisson Jacques, "Procédure pénale", 11ème Edition, Lexis Nexis / Litec, Paris, 2018.

- Pin Xavier, "Droit pénal général", Dalloz- Sirey, Paris, 2019.

- Stéfani Gaston, Levasseur Georges, et Bouloc Bernard, "procédure pénale", 26ème Edition, Dalloz- Sirey, Paris, 2017.

B- En Anglais:

- Lauren Paul Gordon, "The evolution of international human rights", University of Pennsylvania, Press, Philadelphia, 2003.

- Doebbler Curtis Francis, "International human rights law, Cases and materials", CD Publishing, London, 2004.

ثالثًا: مراجع الإنترنت

مركز الدّراسات والأبحاث في المعلوماتيّة القانونيّة (المعروف «مركز المعلوماتيّة القانونيّة»)، فرع من فروع كليّة الحقوق والعلوم السّياسيّة والإداريّة في الجامعة اللّبنانيّة.

cij@ul.edu.lb

- www.Legfrance.gov.fr.

- Code de procédure pénale en France, la loi adoptée le 1958 (dans sa teneur modifiée).

رابعة العدويّة والمرأة في التصوُّف الإسلامي

أ. د. لويس صليبا

رابعــة العدويّــة (180-100هــ/796-717م) شخصيّــة تاريخية وسمت التصــوّف الإسلامي لأجيال، إذ كانت، على الأرجح، أوّل من تحدّث فيه عن علاقة الحب بين الخالق والمخلوق، وأوّل من أنشد هذه العلاقة بشاعرية مرهفة في قصائد غنائية شجيّة مستهلّة ما عُرف لاحقاً بالغزل الصوفي الذي يبدو ظاهره تغزّلاً بالحبيب في حين أنّه يعبّر بالأحرى عن عشق المخلوق العابد لخالقه.

ومعظم ما وصلنا عنها يختلط بعناصر تقويّة آجيوغرافية تركّز على العجائب والكرامات، ويعود أقدمه إلــى قرنين أو أكثر من وفاتها، كمثل ما نقله ابــن الجوزي (ت597هـ/1201) في صفة الصفوة وفريد الديــن العطّــار (1190-1142م) في تذكــرة الأولياء وغيرهما. ومذّاك وحتى يومنــا لا تزال أسطورة رابعة تكبر وتتوسّع.

وهــي في سيرتهــا وتحوّلها من مغنّية إلى ناسكة وعابدة تجسّد نموذجــاً للاهتداء نجده عند كثير من القدّيسات في المسيحية، بدءاً من مريم المجدليّة وحتى يومنا.

وبحثنــا الموجــز عنها هــذا سيركّز على محــاور أربعة من سيرتهــا وتعليمها: بتوليّتهــا، الحبّ الإلهي عندهــا، أثرها في الغرب، وشطحاتها، علماً أن أثر رابعة في الفكر الصوفي الغربي لم يدرس في السابق، ولا سيما في العربية.

1 - بتوليّة رابعة

يتّفق أكثر الروايات على أن رابعة العدويّة عاشت ناسكة بتول في برّية البصرة جنوب العراق وفي هذه المدينة.

والتزامها بالبتوليّة ظاهرة غير مألوفة في الإسلام الذي يدعو إلى الزواج وينتقد الحياة الرهبانيّة.

وحتى فــي المسيحية وفي الهندوسية كذلك فالحياة الرهبانية للنســاء تقليد متأخّر. وظاهرة النساء اللواتــي تنكّرن بزي رجال ليعشن رهبانــاً في الأديار معروفة ومنهن القدّيسة مريــم المصرية، والقدّيسة مارينا المارونية، وغيرهما.

ورغم أن الزواج هو القاعدة في الإسلام، نجد أن العديد من المتصوّفين عاشوا البتوليّة. وفي أطروحة أكاديميّــة لها، بيّنت د. ساره الجويني (تونس) [1] أن المسيح هو النموذج الأمثل للكائن النفيس في الفكر الصوفي الإسلامي. والمسيح هو نموذج البتولية الأسمى في المسيحية والإسلام على السواء. فلا يُستغرب أن يستلهم منه العديد من المتصوّفين هذا النمط من الحياة.

يقــول الحكيم الترمذي (ت320هـ): "المستحقّ لختم الولاية رجــل ختم به دورة الملك، وتختتم به الولاية. وله وزير اسمه يحيى روحاني المحتد إنسي المشهد" (الجويني، م. س، ص202).

ويقــول ابن عربي (638-558هــ/1240-1164) متبنّياً ما ذهب إليه الترمذي: "ختم الولاية

على الإطلاق فهو عيسى عليه السلام. فهو الولي بالنبوّة المطلقة في زمان هذه الأمّة". (الجويني، م. س، ص202).

وقد وجد المتصوّفة في القرآن ما يدعم توجّههم نحو البتوليّة. مثل: إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم إنّما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (التغابن 15-64/14). وأيضاً: المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربّك ثواباً وخيرٌ أملاً (الكهف18/46).

وتداولوا أحاديث منسوبة للرسول تشيد بالبتوليّة وتدعو إليها، وذلك خلافاً لما في السنّة والنبوية والسيرة من دعوة حثيثة إلى الزواج. كالحديث الذي أخرجه أبو حفص عمر السهروردي (-539 632ه) في عوارف المعارف، وأبو طالب المكّي (ت386هـ) في قوت القلوب: "خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد". وحديث آخر أخرجه أبو طالب المكّي في قوت القلوب: "إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمّتي، ولأن يربّي أحدكم جرو كلبٍ خيرٌ من أن يربّي ولداً".[2]

ومن أوائل الداعين إلى العزوبية صراحة الحسن البصري، وهو رائد الزهّاد في الإسلام، ذكر له عبد الوهاب الشعراني (973-898هـ) في طبقاته قوله: "إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا لم يشغله بأهلٍ ولا ولد" (بدوي، م. س، ص54-53، نقلاً عن الطبقات للشعراني، ج1، ص25).

ومن مأثورات الصوفيّة في البتوليّة، قول مالك بن دينار (ت127هـ/748) الذي أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء: "لا يبلغ الرجل منزلة الصدّيقين حتى يتركَ زوجته أرملة، ويأوي إلى مزابل الكلاب".

وقيل لإبراهيم بن أدهم (162-100هـ) أفلا تتزوّج؟ فأجاب: لو استطعتُ لطلّقتُ نفسي".

فهذا التوجّه نحو البتولية نجده واضحاً في بدايات التصوّف. ويبقى أن رابعة تميّزت بأنّها امرأة بتول بل وناسكة، وهذا ممّا لم يكن مألوفاً بتاتاً في الإسلام. بل كان لها أثرٌ حاسمٌ ودورٌ خطير في جعل البتولية قاعدة و"سنّة" في التصوّف. وفي ذلك يقول د. عبد الرحمن بدوي (1917-2002) في دراسته عنها: "لكن رابعة جاءت فضربت بسهم وافر في سبيل تقنين عدم الزواج عند أصحاب الطريق. ونظنّ أنه كان لها أثرها الحاسم في هذا التوجيه، بعد أن كان الأمر في الغالب أمر مزاج شخصي عند الحسن البصري وإبراهيم بن أدهم والداراني ومَن إليهم، إذ صار بمثابة قاعدة كان من الصعب على الصوفيّة من بعد ذلك الخروج عنها. (...) ذلك لأن رابعة امرأة. والغاية العظمى عند المرأة في الحياة هي الزواج، ولذا كان له عند المرأة أهمّية كبرى أشدّ بمراحل من أهمّيته عند الرجل. فإذا وجدناها، وهي المرأة تحرص على عدم الزواج، فما أبلغها من قدوة عند أهل الطريق!" (بدوي، م. س، ص58).

وسئلت مراراً عن الزواج، وممّا قالته عنه: "الزواج ضروري لمن له الخيار،. أمّا أنا فلا خيار لي في نفسي، إنّي لربّي وفي ظلّ أوامره، ولا قيمة لشخصي".[3][4]

وطُلبت رابعة للزواج مراراً من كبار عصرها مــن الصوفيّة ومن الحكّام. طلبها الصوفي عبد الواحد بن زيد، فأجابته: "يا شهواني، أطلب شهوانية مثلك. أيّ شيء رأيت فيّ من آلة الشهوة؟!".

وطلبهـا للـزواج محمّد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة، وفي ذلك يـروي عبد الرؤوف المنّاوي في طبقـات الأوليـاء: "كتـب محمّد بن سليمـان الهاشمي، وكانت غلّة مُلكـه كلّ يوم ثمانيـة آلاف درهم، إلى كبـراء أهل البصرة في امرأةٍ يتزوّجهـا، فأجمعوا على رابعة. فكتبت إليه: "أمّا بعد! فإن الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهمّ والحزَن، فهيّئ مزادك، وقدّم لمعادك، وكن وصيّ نفسك، ولا تجعل الرجـال أوصياءك فيقتسموا تركتك، وصُم الدهر، واجعل فطرك الموت. وأمّا أنا فلو خوّلني الله أمثال ما حزته وأضعافه لم يسرّني أن أشتغل عن الله طُرفة عين، والسَلام" (بدوي، م. س، ص52-51، نقلاً عن طبقات الأولياء للمنّاوي، مخطوط الظاهرية).

فريـد الدين العطّـار راوي سيرة رابعة سمّاها مريم الثانية يقول في مستهلّ ترجمته لها: "الفانية في الوصـال، المقبولة عند الرجـال، كأنّها مريم ثانية، صافية صفيّة، إنها رابعـة العدوية" (العطّار، م. س، ص259).

وهي مسألة تستوجب التوقّف عندها.

مريـم في القرآن مثال المـرأة، المرأة القدّيسة العفيفـة والبتول. إنها المرأة الوحيـدة التي يسمّيها القرآن باسمها، وهو يقرّ ببتوليّتها. ومريم في المسيحية هي وجه الأنوثة في الله، وأحد أبرز ألقابها: "أمّ الله".

ومريـم عند الصوفيّة تتخطّى فـي مقامها وعلوّ ولايتها وفضائلها الرجال والنساء في آن. روى العطّار في التذكرة عن عبّاسة الطوسيّة قولها: "عندما ينادون غداً في ساحات القيامة: يا رجال، فإنّ أوّل شخصٍ يخطو في صفّ الرجال نحو الجنّة هي مريم عليها السلام" (العطّار، م. س، ص259).

ونجـد أن التشيّع، ولا سيما الإمامي، قد رسـم صورة لفاطمة بنت الرسول (632-604هـ/11هـ) بملامـح مريميّـة واضحـة. وهـو أمـرٌ تطرّقنا إليه فـي بحث مطـوّل من كتابنـا "نحو الحـوار المسيحي الإمامـي"[5] ومن ألقاب فاطمة في التشيّع: البتول، العـذراء، مريم الكبرى. (صليبا، لويس، نحو الحوار، م. س، ص237).

أمّا عند أهل السنّة فلا يعطى هذا الدور لفاطمة، فتأتي رابعة لتحلّ محلّها وتلعب دور مريم.

وهذه النظرة، وهذا الدور المنسوب لفاطمة في التشيّع، أو لرابعة في التسنّن، أو لمريم في المسيحية، يمكـن أن يُفهم بالعودة إلى ما شرحه العالِم كارل غوستـاف يونغ (1965-1875) عن المبدأ المؤنّث فـي الألوهية. فهو يؤكّد أن أحادية التعبّد للمبدأ المذكّـر، وإغفال نظيره المؤنّث يخلّ بالتوازن في النفس، ممّا يحدو اللاوعي الجماعي عند الشعوب إلى إيجاد من يمثّل تاريخيّاً ودينيّاً هذا المبدأ.[6]

الحب الإلهي عند رابعة

تحتلّ رابعة في التصوّف الإسلامي وفي الفكر الإسلامي عامّة مكانة بارزة، إذ وسمت لأجيال توجّهات هذا التصوّف الناشئ. فهي تمثّل تحوّلاً محوريّاً فيه، لأنّها الأولى، على الأرجح، التي تحدّثت بشاعرية لافتة عن علاقة الحبّ بين الخالق والمخلوق.

شاءت رابعة أن تحبّ الله لذاته، لا خوفاً من الجحيم، ولا طمعاً بالنعيم، ولا سيمّا بملذّات هذا النعيم، وسنسمعها مراراً تنتقد وتسخر من الطامعين بهذه الملذّات. تقول في أحد أدعيتها: "إلهي إن كنتُ عبدتك خوف النار، فاحرقني بالنار، أو طمعاً في الجنّة فحرّمها عليّ. وإن كنتُ لا أعبدك إلا من أجلك، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك" (العطّار، م. س، ص274).

تبدو رابعة هنا وكأنّها أرادت أن تخلّص الناس، وتحرّرهم من وسواس الجنّة والنار، والترغيب بهذه والترهيب من تلك. إذ رأت في كلّ ذلك مصدراً لإفساد المعنى الحقيقي للعبادة. فالعبادة الحقّة هي، في عرفها، تلك التي تقوم لوجه الله خالصة، وغير طالبةٍ لا جزاءً ولا شكوراً، وتتجرّد عن كلّ معاني الثواب والعقاب.

وبين الله والجنّة يبقى خيارها هو الله قطعاً، وهي في ذلك رفعت شعاراً معروفاً لها، ونقله عنها العطّار: "الجار (أي الله) ثمّ الدار (أي الجنّة)" (العطّار، م. س، ص271). وتضيف شارحة: "ألا يكفينا أنّه أمرنا أن نعبده، فلو لم تكن هناك جنّة ونار، ألا تجوز الطاعة له؟ ألا يستحقّها لأنّه يعبد بلا واسطة".

ومن أحلى أدعية رابعة في الحب الإلهي، ما نقله الشيخ شعيب الحريفيش[7] في الروض الفائق[8]: "إلهي أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلّقتِ الملوك أبوابها، وخلا كلّ حبيبٍ بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك".[9]

ويستوقفنا قولها: "وخلا كلّ حبيب بحبيبه". فهل تستعيد فيه صوراً من حياتها قبل اهتدائها؟ إنّه بالحري الإرهاصات الأولى لما سيُعرفُ بالغزل الصوفي. فهي هنا بالأحرى ترسم مشهد مقامها أمام سيّدها الإلهي، فتجده كخلوة الحبيب بحبيبه "وهذا مقامي بين يديك". فخلوة الحبيب بحبيبه هي بالحري صورة لخلوة رابعة بخالقها الحبيب. ويؤكّد ما نذهب إليه هنا قولها إذ تنشد هذه الخلوة، ممّا نقله عنها الشيخ الحريفيش:

راحتي، يا إخوتي، في خلوتي
وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عِوَضاً

وهواه في البرايا محنتي

(الحريفيش، م. س، ص138).

فهـذان البيتان يشرحـان دعاءها الآنف، وبهما تكتمل الصورة المرسومة في هذا الأخير. فهي عندما تقـول في الدعاء: "فهذا مقامي بين يديـك"، فهي تقصد أن مقامها بين يديّ خالقها مقام خلوة الحبيب بحبيبه.

ويتبلـور في هذيـن البيتَين، وفي ما يليهما مـن أبيات ممّا سنورد، مذهب الغـزل الصوفي الذي سيزدهر بعد رابعة ويعرف أوجَهُ مع ابن الفارض (642-567هـ/1235-1181). وفيه يحسب السامـع أو القـارئ أن الشاعر (أو الشاعرة) يتوجّه إلـى حبيبه ومعشوقه من بني البشر. في حين أن المقصـود هـو بالأحرى المعشوق الإلهي. وهـذه الازدواجية، أو التورية[10] تضفـي على الشعر رونقاً وسحراً مميّزاً وأخّاذاً. ولعلّ رابعة هي رائدة الغزل الصوفي، وهذا النوع الشعري، كما قلنا، سيزدهر وينتشر بعد رابعة في الأوساط الصوفيّة وخارجها، ويستمرّ حتى يومنا هذا. وسبق لنا أن درسناه عند رائـد الغزل المعاصـر الشاعر نزار قبّاني (1998-1923) ولا سيما فـي قصيدته العصماء "لا تسألوني ما اسمه حبيبي".[11]

ونتابع قصيدة رابعة في الغزل الصوفي الشجيّة هذه:

حيثما كنتُ أشاهدُ حُسنَه

فهو محرابي إليه قِبلتي

إن أمُتْ وجداً وما ثمّ رضاً

واعَنائي في الورى واشقوتي

يا طبيبَ القلب يا كلّ المُنى

جُدْ بوصلٍ منك يشفي مهجتي

يا سروري وحياتي دائماً

نشأتي منك وأيضاً نشوتي

قد هجرتُ الخلقَ جمعاً ارتجي

منكَ وصلاً فهو أقصى منيتي

(الحريفيش، م. س، ص138).

تظهـر المعاني الحسّية بيّنة جليّة في هذه الأبيات. فعـن أي حُسن تتحدّث الشاعرة؟! وعن أيّ وصل؟ هنا أيضاً تبدو التورية وازدواجية المعاني حاضرة. ويزداد حضورها وضوحاً في حديث رابعة عن نشوتها:

أهي نشوةٌ حسّية جسدية؟ أم روحيّة؟ أم أن الأولى تقود إلى الثانية؟!

سبق لنا أن بحثنا في هذه الإشكالية، لا سيما في دراستنا لنشيد الأناشيد البيبلي. وممّا قلناه: "والأدب الصوفي في الإسلام مليء بالأمثلة المشابهة لإشكالية نشيد الأناشيد. فقصائد غزل الشعراء فهمها المتصوّفة غزلاً إلهيّاً. وأخبار مجنون ليلى وأشعاره مثلٌ بيّنٌ على ذلك، لا بل إن بعض الأشعار الغزليّة كانت تُنسب للمتصوّفة على أنّها غزلٌ إلهي كمثل قصيدة ديك الجنّ الحمصي (ت235هـ) "يا كثير الدلّ والغنج" التي نسبها الصوفيّة في أخبارهم لأبي بكر الشبلي (ت334هـ) رفيق الحلّاج. وذكروا أنّه كان يردّدها على فراش الموت.

فالخطّ الفاصل بين التشبيب بالحبيب والغزل الإلهي غير واضح، بل بالأحرى غير موجود. فكثيرة هي القصائد الغزلية، (وبعضها جريء وإباحي) التي فُهمت غزلاً بالحبيب الخالق. لا بل كثيراً ما كان الحبّ الإنساني جسر عبورٍ إلى الحبّ الإلهي، وهذا اختبار ملايين البشر"(12)

وقصيدة رابعة التي نحن بصدد تحليلها مثلٌ بيّن على ما سبق وقلناه.

وهذان المستويان في الحبّ أو النمطان فيه نجدهما واضحين عند رابعة في أشهر ما نُسب إليها من شعر:

أحبّك حبّين: حبّ الهوى
وحبّاً لأنّك أهلٌ لذاكا
فأمّا الذي هو حبُّ الهوى
فشغلي بذكرك عمّن سواكا
وأمّا الذي أنت أهلٌ له
فكشفُك للحُجب حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمدُ في ذا وذاكا

(صليبا، لويس، الوصايا، م. س، ص162-163)

بيد أنّ رابعة لا تنفكّ تُروحن الحبّ. فحب الهوى يغدو عندها الذكر الدائم والمتواصل لله، وهي حالة من التأمل الدائم، كما بينّا في دراسة آنفة (صليبا، لويس، الوصايا الصوفية، م. س، ص162-164). في حين أن الهوى لغويّاً ومعجميّاً هو: "ميل النفس إلى الشهوة"(13)

وفي آيات الذكر الحكيم: ﴿أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ (الجاثية/23).

أمّا "هوى" رابعة، فلا يعمي بصرها ولا بصيرتها، بل هو، في اختبارها ودأبها وديدنها، حضور إلهي

دائم ومستمرّ يشغلها عن كلّ ما سواه من شؤون الدنيا. ليصل بها إلى المستوى الثاني والأسمى من الحبّ حيث تسقط كلّ الحُجُب بين الحبيب والمحبوب، ويتمّ "الكشف"، الذي طالما تاق إليه الحبيب، وذلك بمحض منّة ونعمة إلهية خالصة.

وقصيدة أخيرة لرابعة في الغزل الصوفي والحبّ الإلهي:

يا سروري ومنيتي وعمادي
وأنيسي وعُدّتي ومُرادي
أنت روحُ الفؤاد أنتَ رجائي
أنتَ لي مؤنسٌ وشوقُكَ زادي
أنتَ لولاكَ يا حياتي وأُنسي
ما تشتّتُ في فسيح البلادِ
كم بدَت ْمنّةٌ وكم لَك عنديَ
من عطاء ونعمة وأيادي
حبُّك الآنَ بُغيتيَ ونعيمي
وجلاءٌ لعينِ قلبي الصادي
ليس لي عنكَ ما حييتُ بَراح
أنت منّي مُمَكّنٌ في السوادِ
إن تكنَ راضياً عليَّ فإنّي
يا مُنى قلبي قد بدا إسعادي
(الحريفيش، م. س، ص137).

نبقى في هذه القصيدة في أجواء الغزل المزدوج وإطاره. فالخطاب يصلح أن يتّجه إلى شخص حسّي، كما يصلح أن يتوجّه نحو الله. فتشتّت الشاعرة في فسيح البلاد أهو سياحةٌ روحيّة وحجّ، أم هو تيهٌ دائمٌ بحثاً عن حبيب رحل؟!

بيد أن الجانب الحسّي في هذه القصيدة نراه يتضاءل مقايسة بقصائدها السابقة. فلا حبّ الهوى حاضرٌ هنا، ولا الوصل، ولا حُسن الحبيب. ثمّة تناقص للتعبير الحسّي الظاهر، مقابل تزايد للتعبير المجرّد الباطن. لكأن الشاعرة تتدرّج من الكثيف إلى اللطيف، وتزداد تعابيرها رهافة وقوّة إيحاء.

وفي خلاصة البحث في الحبّ الإلهي والغزل الصوفي عند رابعة، وهي الرائدة في هذا المجال، نورد ما قاله سميح عاطف الزين في هذا المجال: "وإذا كان قد نشأ للصوفيين، من بعد رابعة، فِرَق

عديـدة متنوّعة فـي الأفكار والطرق، فـإنّ أياً من المتقدّميـن أو المتأخرين منهم لم يبلـغ ما بلغته رابعة فـي العشـق الإلهي، حتـى إن ابن الفارضـ (ت632هـ) الملقّب بشيـخ العشّاق وإمـام المحبّين في عالم المواجيـد والأشواق لم يـزد في الحبّ الإلهي شيئاً عمّا قالته رابعة العدوية. ومن قبله بعدّة قرون ذو النون المصـري (ت245هـ) أستاذ مـن تحدّث عن الحبّ والمعرفة في التصوّف إنّما كان يردّد ما ادّعته رابعة فـي مواجيدهـا. (...) ومن هنـا يتبيّن أن رابعة العدوية هـي رائدة العشق الإلهي عنـد صوفيّة المسلمين بالحقيقة والأساس". [14]

ولا نرى أن هذا الباحث قد جافى الحقيقة في خلاصته هذه.

3 - روحانيّة رابعة وصداها في الغرب

روى الأفلاكـي (ق14م) في مناقب العارفين عن رابعـة: "ذات يوم رأى جماعة من الأصحاب رابعة وفـي إحدى يدَيها نار، وفي الأخرى ماء، وهي تعدو مسرعـة فسألوها: إلى أين أنتِ ذاهبة؟ وماذا تبتغين؟ فأجابـت أنـا ذاهبـة إلى السماء كي ألقي بالنار فـي الجنّة، وأصبّ الماء على الجحيـم، فلا تبقى هذه ولا تلـك. فينظـر العباد إلى الله دون رجاء، ومن غير خوف، ويعبدونه على هذا النحو. ذلك أنّه لو لم يكن ثمة رجـاء في الجنّة، وخوف من الجحيم، أفكانوا يعبـدون الحقّ ويطيعونه" (بدوي، م. س، ص90، نقلاً عن الأفلاكي، مناقب العارفين، مخطوط فارسي قديم).

واللافـت في هذه الرواية أنّـه وقبل الأفلاكي بنحو قرن روى جوانفيـل (1225-1317) - Joinville مؤرّخ القدّيس والملك لويس التاسع حكاية مماثلة.

ويحسـن بنـا أن نتوقّف عند روايـة جوانفيل السابقة لروايـة الأفلاكي بقرن، لما مـن شأنها أن تفتح مـن آفـاقٍ وسيعة في مجال التصوّف المقارن، ولما تتيحه من تلمّس لأثـر ما لروحانية رابعة وتصوّفها في التصـوّف المسيحي. يروي جوانفيل عن الأخ إيف مـن بروتون الدومنيكانـي سفير الملك لويس التاسع إلى السلطـان الأيّوبي في دمشـق: "وبينما كانوا ذاهبين من محلّ إقامتهم إلى قصر السلطان، رأى الأخ إيف، الـذي يعـرف لغـة السراسنة (العرب) إمـرأة عجوزاً تمرّ بالشـارع، وهي تحمل بيمناها وعـاءً يحوي ناراً تشتعل، وفي يسراها إبريق ممتلئ بالماء. فسألها الأخ إيف: ماذا تفعلين بهذين؟ فأجابته أنها عزمت على أن تحـرق الجنّـة بالنار، حتى لا يبقـى منها شيء، وآلت أن تطفئ الجحيم بالمـاء حتى لا يبقى منه شيء. فسألها: ولِمَ تفعلين ذلك؟ فأجابته: لأنّني لا أحبّ أن أعودَ فأرى أحداً يصنع الخير طمعاً بالجنّة، أو خشية من الجحيم. بل حبّاً بالله وحده القادر أن يصنع لنا كلّ خيرٍ ممكن". [15]

والأخ إيـف راهب يتقن العربية وكان الملك لويس التاسع، خلال الحملة الصليبية السابعة، يستخدمه في اتّصالاته مع الأمراء العرب. ولا يذكر هذا الراهب اسماً للمرأة العجوز، بيد أن روايته تكاد تطابق رواية

الأفلاكـي، ويصعـب أن نفترض أن هذا الأخير أخذ عن جوانفيل. والأرجح أن الاثنين: الراهب والأفلاكي، نقلا روايتهما عن مأثورات شعبية شفويّة (أو مدوّنة لم تصلنا).

واللافـت أن حكاية جوانفيل القصيرة هذه ستعرف فـي فرنسا مصيراً مدهشاً يقودنا إلى عهد الملك الشمس لويس الرابع عشر (حَكم 1643-1715)، وإلى سلفه لويس 13 ووزيره الأوّل الشهير الكاردينال ريشيليو. فمنذ نهاية القرن 16 وبدايات القرن 17 استخدم عدد من المؤلّفين، ومن بينهم رهبان يسوعيون وآخرون من منافسيهم الجانسنيست Jansénistes هذه الحكاية في جدالاتهم وتحليلاتهم العقائدية. أمثال اليسوعي (Jérémie Drexel 1634) (في ف9 من كتابه) ورئيس دير سان سيران Jean Duvergier de Hauranne 1634). وبعضهم رسم لوحة لها. (16)

وعـاد المطران جان بيار كامـو (1584-1652) Jean Pierre Camus[17] أسقف Be - ley (في مقاطعة سافوا الفرنسية شمال شامبيري) وصديق القدّيس فرنسوا دي سال وتلميذه فاستخدم فـي عظاته حكاية جوانفيل هذه، وعندما هوجم بعنف، بسبب الآثار اللاهوتية المترتّبة على هذه الحكاية، ردّ بكتـاب جدلـي ضخم عنوانه "رواية تقويـة مستلّة من حياة القدّيس لويـس" (1641) وهو مجموعة عظـات يدافع فيها عـن عقيدة الحبّ الخالص منتقـداً أصحاب الرجاء المرتـزق، أي أولئك الذين رجوا السمـاء أولاً مؤثرينهـا على الله نفسه، طبقاً لتعبيره. وهو في كتابه هـذا يزوّق ويضيف إلى رواية جوانفيل ويؤكّد تاريخيّتها وصحّتها، ويروي أنّها حدثت في قرية مسيحية في سوريا، ويزيّنها بلوحة رسمها - Abr ham Bosse. (Rodinson، Ibid). ولمّا كانت هذه المرأة العجوز مجهولة الاسم، فقد سمّاها المطران كامو كاريتيه Caritée أي الحبّ، وعَنوَن كتابه بهذا الاسم.

يقول كامو مؤكّداً صحة رواية جوانفيل: "إن غرابة هذه القصّة لا تمنع من كونها جزيلة الفائدة. وهي ليسـت مجـرّد مثل أخلاقي اختُرع للمتعة بل لها أسس أكثر صلابـة، لأنّها تستند إلى حقيقة أصيلة (...). وما يجعلها أكثر قيمة واعتباراً بالنسبة لنا نحن الفرنسيين هي أنّها حدثت في عهد ملكنا العظيم القديس لويـس، ودُوّنـت في زمنه بقلم واحد مـن أكثر فرسانه نبلاً وفضيلة سيد جوانفيـل الذي كان تقريباً شاهد عيان على ما روى، والذي لم يسمح له نبله بتاتاً أن يكتب زوراً". (18)

لماذا يلحّ كامو على تاريخيّة هذه الرواية وواقعيّتها، ويرى في جوانفيل شاهد عيان فيها؟!

إنّـه يريـد أن يستخلـص منها تعليمـاً مسيحيّاً في الحـب المحضـ Le pur amour يواجه به ناقضيـه ومنتقديه من الجانسنيست الذين يرفضون هذا التوّجـه اللاهوتي. المطران كامو كاتب سجالي يهوى المناظرات ويحب النقاش، ونحن في خضمّ الجدل حول الحبّ الخالص الذي ساد فرنسا في النصف الأوّل مـن القرن 17. وتيّار الحبّ الخالـص تزعّمه يومها معلّم كامو وصديقه القدّيس فرنسيس السالزي (21/8/1567-28/12/1622) St François de Sales صاحب شعار: "فلنبحث لا عن

جنّة الله، بل بالحري عن إله الجنّة"[19]

Chercher non pas le paradis de Dieu mais le Dieu du paradis

وكامـو المدافـع الشرس عن لاهوت معلّمه وتعاليمه القديس فرنسيس السالزي، وجد، ووفقاً لتعبير مؤرخ الفكـر الدينــي الفرنسي هنري بريموند Bremond عند جوانفيل، مـؤرّخ القديس لويس، قصّة رائعة ورمـزاً حيّاً يجسّد لاهوت الحبّ الخالص Bremond، op. cit، p183.. ألا وهي حكاية الأخ إيف من بروتون مع المرأة العجوز الآنفة الذكر.

ويتوسّـع كامو في حكاية المرأة العجـوز التي سمّاها كاريتيه Caritée، ويضيف إليها من عنديّاته، كمـا أسلفنـا. فيجعلهـا تقول: "بهذه الشعلـة أودّ أن أضرم النار فـي الجنّة، فأحوّلها إلـى رماد، فلا يعود أحـدٌ يتحدّث عنها. وهذه المياه سأسكبها على لُهـب الجحيم فلا يكون هناك المزيد من العذاب والخداع فـي ذاك المـكان التعيس. ويصير الله من الآن فصاعداً محبوباً ويُخـدَم حبّاً بذاته دون خنوع ولا ارتزاق، وبطريقــة نقيّة ولانفعيّة. بحيث لا يعود الخـوف من الجحيم هو ما يجعلنا نحجم عن اقتراف الخطيئة، بل حبّ اللهً، ولأنّها تسيء إليه. ونتكرّس بالتالي للأعمال الصالحة، دون أن يكون هدفنا الأساسي الثواب، بل مجد الله ومرضاته" Camus، op. cit، p103.

وكتـاب المطران كامو هو في الأصل، وكما يذكر هو فيه، مجموعة عظات ورياضات روحية كان يلقيها علـى أبناء أبرشيّتـه، ويحدّثهم فيها عن هذه المـرأة التقيّة الورعة التي نصّرهـا وعمّدها باسم كاريتيه. وإذ أغـرم بها مستمعوه لمـا أضفى عليها من جرأة وتقوى وسائر الفضائل، رغبـوا في أن يروا صورةً لها، فطلب من رسّام مشهور يومها Abraham de Bosse فوضع لها نقشاً. وهذه المحفورة التي تجسّد "غربنة" رابعة العجوز وفَرْنستها، صارت فيها هذه الأخيرة امرأة شابّة تقف وعيناها منتشيتان تضرم النـار فـي الغيوم بمشعلها وتصبّ المياه على جهنّم لتطفئ نارهـا. ويتابع المطران كامو رواية قصّة كتابه "كاريتيه"، فيضيف أنه، وعندما مرّ خصومه بمقرّه ووقع نظرهم على لوحة كاريتيه التي رسمها دو بوسّ وجّهـوا إليه شتّى التهـم مثل انتهاك المقدّسات والمعصيـة وإلغاء كلّ أسس الديـن وتدمير الجنّة والنار. فقرّر أن يردّ على هذه المعارضة ويسحقها، فنشر كتاباً من 650 ص جمع فيه عظاته العديدة في موضوع Caritée والحبّ الخالص. كتاب نجد فيه نواة الجدل الذي سيحتدم لاحقاً بين بوسويه Bossuet وفنيلون Fénélon في الموضوع عينه.

والبطلان الرئيسيّان في مجال الحبّ سيكونان مدام جانّ غيّون (9/6/1717 - 13/4/1648) Mme Guyon، والمطران فرنسوا فينولون Fénelon (6/8/1651 - 7/1/1715) رئيس أساقفـة كامبـري Cambrai. مدام غيّون إمـرأة مثقّفة ومؤلّفة كتبت عدداً مـن المصنّفات الصوفيّة وهــي من قـرّاء القديس فرنسيس السالـزي والمعجبين بروحانيّتـه، لكنها ليست لاهوتيّـة، بل رفضت أن

تشتغل باللاهوت. وروحانيّتها بعيدة عن انتظار أي ثوابٍ أو الخشية من أيّ عقاب. وهنا نجد تحديداً بعضاً مـن تصـوّف رابعة. وهذا ما تسمّيـه الحبّ الخالص. والمطـران فينولون تلميذها. وهـو مفتون بتجاربها الروحيّـة ويؤيّـد تعاليمهـا، بيد أنّه يسعى إلـى تبريرها بلغة اللاهـوت. إنّه ينوي وفقاً لتعبيـره بناء نظام، وإدخال الحبّ الخالص في عمارته. ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فقد واجه المطران والكاتب الشهيرٌ جـاك بوسويه (27/9/1627-12/4/1704) Bossuet مقـولات فينولون وفنّدها ونقضها، ثم أدانـت روما سنـة 1699 أقواله. وسُجنت مدام غيّـون (1695-1703)، في حين امتنع فينولون عن الدفـاع عـن تصوّفها. Lory، Pierre، op. cit إنه جدل سيطر علـى أجواء الفكر الديني والروحي في فرنسا، وبعض من أوروبا، في النصف الثاني من القرن 17 وكانت له خلفيّاته السياسية من صراعات على النفوذ بين الأسقفين بوسويه وفينولون ممّا يطول عرضه وشرح تفاصيله[20]، لذا لن نخوض فيه.

ونكتفـي، في هذا الصدد، بالإشارة إلـى الأثر الحاسم لكامو أسقـف Belley، ورابعة التي عمّدها باسـم كاريتيـه، في فكر فينولون ولاهوته. ففي 17/10/1701 كتـب فينولون إلى صديقه - Lang ron: "تذكّر مؤلّفات أسقف Belley: كاريتيه Caritée وغيره من الكتب، فأنا بحاجةٍ ماسّة إليها" .Bremond، op. cit، p186

كما كتب فنيلون إلى خصمه بوسويه في ذروة الجدل والصراع الفكري بينهما: "إن مطران Belley وصديـق القديـس فرنسيس السالزي الحميم اتُّهم منذ سنة 1639 وحتـى 1642 أنّه يعلّم الوهم تحت مسمّـى "الحـبّ الخالص". وقيـل له تقريباً ما تقولونه لـي. وجرى التأكيد على أنّه شـاء أن يُنسي النـاس الجنّـة والجحيـم، وأن يخنق الأمل والخوف في آن حتى يقوّض أركان الدين (...) ولكن وبعد جدلٍ طويل ساد مذهبه". Bremond، op. cit، p182

4 -الشطح عند رابعة

الشطـح تعبيـر عـن حالـة اختبـار روحـي بلغـة البشـر، اختبـار يعصـى فهمـه علـى الإدراك العـادي. "التعبيـر عمّـا لا يعبّـر عنـه، ذلـك هـو الشطـح الحقيقي" يقـول المستشـرق هنـري كوربان (1903-1978).[21]

ويعـرّف ابن خلـدون (ت808هـ) الشطح كما يلي: "وأمّا علـم المكاشفة الذي هو ثمرة المجاهدات ونتيجتها، فلم يكن سبيلٌ إلى الخوض فيه. وقد حذّر القوم، رضي الله عنهم، من إيداعه الكتب والكلام في شـيء منه، إلا ما يدور بينهم من المفاوضات على سبيـل الرمز تمثيلاً وإجمالاً، ولا يكشفون لغيرهم شيئاً مـن معانيـه علماً لمقصور الأفهام عـن احتماله (...) وإن صدر عن أحد منهـم كلمة من ذلك على سبيل الندور سمّوه شطحاً بمعنى أن حال الغيبة والسكر استولت عليه حتى تكلّمً بما ليس له الكلام به".[22]

ورابعة من أوائل الشطّاحين في التصوّف الإسلامي. والشطح ظاهرة ستتطوّر مع أبي يزيد البسطامي (188 - 261هـ) القائل: "سبحاني ما أعظم شاني"، وستعرف أوجها مع الحسين بن منصور الحلّاج (244 - 309هـ/858 - 922) القائل: "أنا الحق" و"أنا من أهوى ومن أهوى أنا".

ورابعة العدويّة من السبّاقين إلى الشطح. وابن خلدون في نصّه الآنف عن الشطح عند الصوفيّة ينقل أوّلاً شطحة البسطامي الآنفة الذكر، ويتبعها مباشرة بشطحة لرابعة تقول فيها: "لو وضعتُ خماري على النار ما بقي بها أحد" (ابن خلدون، م. س، ص102).

وهذه الشطحة الرابعية تأتي في السياق عينه للرواية التي نقلها عنها الأفلاكي، والتي، كما ذكرنا، عرفت مصيراً مدهشاً في فرنسا والغرب الأوروبي نقلاً عن جوانفيل وكامو. إنّه الحب الإلهي اللانفعي الذي يُلهب الجنّة بناره، ويطفئ لُهب الجحيم بفيضانه. وينقل ابن خلدون قولاً آخر عن رابعة يؤكّد شطحتها هذه: "قال سفيان الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ فقالت ما عبدته خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنّته. فسأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبّاً له، وشوقاً إليه" (ابن خلدون، م. س، ص69).

أجير السوء، مصطلح رابعي يكاد يتطابق مع تعبير المطران كامو "المرتزق" وعبادة المرتزق الذي يضعه على لسان رابعة "المتفرنسة" كاريتيه، ويلخّص به نظرته إلى العبادة النفعيّة.

واللافت في شطحة رابعة الخلدونية هذه أنّنا لا نجدها في مصادر أخرى. وتبقى أشهر شطحاتها قولها في الكعبة حين حجّت: "هذا الصنم المعبود في الأرض، وإنّه ما ولجه الله ولا خلا منه".

وقد نقل عنها ابن تيميّة (661-728هـ) شطحتها هذه[23] وأنكر نسبتها إليها: "وأمّا ما ذُكر عن رابعة من قولها عن البيت إنّه الصنم المعبود في الأرض، فهو كذبٌ على رابعة. ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب وإلا قتل" (ابن تيميّة، م. س، ص94). وابن تيمية كعادته يأخذ بحرفية النص والكلام، ويغفل أو يتغافل أن قول رابعة شطحة، فبالعودة إلى تحديد ابن خلدون الآنف الذكر، يمكن أن نعتبر أن حال الغيبة والسكر استولت عليها (...).

ويرى عبد الرحمن بدوي أن تكذيب ابن تيمية لا يستقيم، وكذلك فهمه لشطحة رابعة، فكلامها: "يصدر عن الإمعان في السمو بالحياة الدينية بحيث تصفو على كلّ شوائب الحسّ. (...) فابن تيمية قد أخطأ فهم المقصود من كلام رابعة، وعلى أساس هذا الفهم الخطأ بنى تكذيبه، وما بُني على خطأ فهو خطأ، وإذن فتكذيبه غير قائمٍ على أساسٍ صحيح. ولهذا فلا نستطيع أن نقيمَ له وزناً" (بدوي، م. س، ص81).

وشطحة ثالثة لرابعة: روى الشيخ عبد الرؤوف المنّاوي في طبقاته: "وسمعت رابعة قارئاً يقرأ: ﴿إن أصحاب الجنّة اليوم في شغلٍ فاكهون﴾ (يس36/55). فقالت مساكين أهل الجنّة في شغلٍ هم وأزواجهم".[24]

وكلمة فاكهون هنا معناها في كثير من التفاسير: "يفتضّون الأبكار". ومن هنا امتعض ضمير رابعة من هذا المعنى الشهواني، وهي التي ارتفع عندها معنى الجنّة إلى أعلى درجة من درجات الروحيّة.

(بدوي، م. س، ص84). ويعتبر عبد الرحمن بدوي في كتابه عن رابعة أنّها أوّل من تعرّض لنقد القرآن ولا سيما تأويله من ناحية ما فيه من أوصاف حسّية شهوانية. ويضيف المقصود الأبعد في ذهن رابعة لا الهدم والطعـن، بل أن تسمـو بالحياة الدينية ومعاني القرآن والإسلام إلى أعلـى درجة من الروحية مستطاعة" (بدوي، م. س، ص 86).

فلـذا فلهـا فضل الريادة في استهلال هذه الحركة التي ستبلـغ أوجها مع أبي يزيد البسطامي القائل: "من يرى الله، فماذا يريد بعد من الحوريّات؟!"، و "الجنّة اثنتان: جنة النعيم، وجنّة المعرفة. فجنّة المعرفـة أبديـة، وجنّة النعيـم مؤقّتة" (صليبـا، لويس، إشـارات، م. س، ص41). و "مـا الجنّة؟! لعبة صبيان" (صليبا، لويس، إشارات، م. س، ص48).

ومن هنا يظهر للعيان دور رابعة العدوية البارز في الحياة الروحيّة في الإسلام.[25]

ENDNOTES

1 - الجوينـي حفيـز، ساره، صـورة المسيـح في التـراث الصوفي الإسلامـي، بيـروت، دار الطليعة، ط1، 2010.

2 -بـدوي، عبدالرحمـن، شهيـدة العشـق الإلهي رابعة العدوية، القاهرة، مكتبـة النهضة المصرية، ط2، 1962، ص55-54، نقلاً عن قوت القلوب لأبي طالب المكّي، القاهرة، 1932، ج4، ص150.

3 -العطّـار، فريـد الديـن، تذكـرة الأولياء، ترجمة دة منال اليمني عبدالعزيـز، القاهرة، الهيئة المصرية العامّة، ط1، 2006، ج1، ص267.

4 -- Lory، Pierre، Rabi'a Al'Adawiyya، article in: Les Femmes My tiques histoire et dictionnaire، collection Bouquins، Paris، Editions R Laffont، 2013

5 -صليبـا، د. لويـس، نحو الحوار المسيحي-الإمامي، بحوث في نقاط الالتقاء بين المسيحية والتشيّع، جبيل/لبنـان، دار ومكتبـة بيبليـون، ط2، 2016، ب3/ف1ك مريـم العـذراء وفاطمة الزهراء تفاعـل بين ديانتين ولقاء، ص263-213.

6 -صليبا، د. لويس، الديانات الإبراهيمية بين العنف والجدل والحوار مع بحوث في اليوغا والتصوفَين الإسلامـي والهندوسـي، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليـون، ط3، 2020، ب3/ف1: شطحات أبي يزيد البسطامي بين تصوّف الإسلام والمسيحية والهندوسية، ص195.

7 -الشيخ شعيب الحريفيش (ت810هـ/1407م): شعيب بن عبدالله بن سعد بن عبدالكافي أبو مدين المعـروف ب الحريفيش، متصـوّف مصـري مـن أهـل القاهـرة، جـاور بمكّـة، لـه: -1الروض الفائـق فـي المواعظ والرقائق. -2شرح قصيدة من ذاق طعم شراب القوم يدريه.

8 -يـروي الحريفيش عـن دعـاء رابعة هذا ما يلي: «حُكي عن رابعة العدويـة رحمها الله تعالى أنّها كانت إذا صلّت العشـاء قامـت على سطح لها، وشدّت عليها درعها وخمارهـا، ثمّ قالت: (...) ثم تقبل على صلاتها. فإذا كان وقت السحر، وطلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلتَ منّي ليلتي فأهنأ،

أم رددتهـا علـيّ فأعـزى. فوعزّتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني. وعزّتك لو طردتني عن بابك ما برحتُ عنه، لما وقع في قلبي من محبّتك» (الحريفيش، م. س، ص137).

9 -الحريفيش، الشيخ شعيب، الروض الفائق في المواعظ والرقائق، تحقيق وتدقيق أحمد سعد علي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1949، ص137.

10 -التورية عند أهل البديع هي أن تحمل كلمة أو جملة مهنيين أحدهما أقرب إلى الذهن، لكنه غير المقصود، والثاني بعيد إذ إنّه المقصود. كمثل قول الشاعر: (يمرّ بي كلّ وقت/ وكلّما (مَرّ) يحلو) فكلمة (مرّ) لها معنيان: مَرّ أي عبر، ومَرّ أي صار أشدّ مرارة.

11 -صليبا، لويس، الوصايا الصوفية العشر: أدب الحياة في التصوّف الإسلامي مقارنة بالتصوّفين الهندي والمسيحي، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2021، ص170-167، فق: نزار على طريقة الصوفيّة.

12 -صليبا، د. لويس، الرغبة المبتسرة محاولات وأبحاث في المحرّم، تقديم ماجدة داغر، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2013، ص36-35.

13 -الباشا، محمد خليل، الكافي معجم عربي حديث، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع، ط4، 1999، ص1071.

14 -الزين، سميح عاطف، رابعة العدوية دراسة وتحليل، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1988، ص-87 .88

15 -Joinville، Jean، Histoire du Saint Louis، texte rapproché du français moderne par M. Natalis de Wailly، Paris، Hachette، 7ème éd - tion، 1880، Ch87، ∫445، pp200-201.

16 -Rodinson، Maxime، Éthique et pratique en Islam، in Revue le Point théologique، Paris، Beauchesne، No 43، 1985، p89.

17 -جان بيير كامو (4/11/1584-25/4/1652) ولد في باريس. درس القانون 1600. وحصل على إجازة في القانون الكنسي 1602، ودكتوراه في القانون المدني في أورليان. عمل محامياً في برلمان باريس 1606. سيم كاهناً 1608 بعد أن قضى فترة راهباً عند الكارتوزيين. رسمه معلّمه وصديقه القديس فرنسيس دو سال مطران جنيف وأميرها أسقفاً على بيلاي وله من العمر 24 وذلك بعد أن حصل على إذن من روما لصغر سنّه. مارس وظيفته الأسقفية بجدارة ونجاح رغم ما أثار من جدل من جهة الجانسنيست. وأسّس ثلاثة أديرة. انتقد الرهبان في كتاباته. استقال من أبرشيّته 1629 بعد أن أدارها عشرين عاماً. واعتزل في دير نوتردام d'Aunay. ثم عيّنه فرنسوا دو هالاي de Halay رئيس أساقفة Rouen المريض نائباً عامّاً في أبرشيّته. ترك Rouen 1649 واعتزل في دير Incurables في باريس حيث أمضى سنواته الأخيرة في صيام وصلوات وتكفير. وتوفّي في هذا الدير في 25/4/1652. كان كامو كاتباً غزيراً ألّف أكثر من 200 كتاباً، منها 35 رواية بين 1620 و 1630، و20 قصّة بين 1630 و 1644. شارك كامو بحماس في جدالات عصره، وفي زمن الإصلاح الكاثوليكي المضادّ للبروتستانتية كتب نحو خمسين قصة تقوية ذات طابع رومانسي متعمّد. وكان رهانه غرس الدافع نحو الله في قلب الحياة العلمانية من خلال الاستخدام التناقضي المسبق للقصّة الروائية، ممّا قاده إلى تطوير شاعرية حقيقية للتفاني والتكرّس. وكتاباته تشهد للحظة أساسية في روحانية القرن 17.

18- Camus، Mgr Jean Pierre، La Caritée ou le portrait de la vraie Charité: Histoire dévote tirée de la vie de St Louis، Paris، Gervais Aliot، 1641، pp37-38.

19- Bremond، Henri، Histoire littéraire du sentiment religieux en France depuis la fin des guerres de religion jusqu'à nos jours، Paris، Bloud et Gay، 1916، Tome 1، pp181-182.

20- نقرأ في دراسة نقدية وتاريخية لمذكّرات مؤرّخ بوسويه وكاتب سيرته الأباتي لوديو **Ledieu** ما تعريبه التالي: "وهكذا يجد بوسويه نفسه في خضمّ صراع مع زميله المطران فينولون تلميذ مدام غيّون المتّهمة بالسكينية **Quiétisme**، وهو مذهبٌ أسّسه **Molinos** مولينوس ويقول إن الحبّ الإلهي يوصل إلى الفناء بالله بيسر، ويولّد في النفس سلاماً مطلقاً يغنيها عن العبادات أو أيّة طقوس دينية أخرى، فيلاحق خصمه عند الملك، ومع البابا في آن. فيعمد لويس 14 إلى نفي رئيس أساقفة كامبراي (فينولون) في حين يدين البابا، إرضاءً للملك لويس 14، كتاب فينولون "حِكَم القدّيسين" وفيه يؤيّد هذا الأخير عقيدة حبّ الله لذاته من دون أيّ خليط من ذلك الخوف الذي يسمّيه اللاهوتيّون "ذليل". ويستخدم بوسويه كل الوسائل المتاحة له لتشويه سمعة فينولون ومدام غيّون التي سجنت في الباستيل مدّة خمس سنوات. ويصرّ على أن التكرّس **Dévotion** المعقول يجب أن يمرّ عبر السلطة الزمنية، في حين تعلّم مدام غيّون مساراً مباشراً من القلب إلى القلب. وكانت اتّهامات السكينية لا أساس لها من الصحّة. فمدام غيّون لم تكن تعرف مولينوس مؤسّس مذهب السكينية ولا مؤلّفاته. وتهمة السكينية لم تكن سوى مجرّد ذريعة، أما السبب الرئيسي لهذا النزاع والجدل المحتدم فصراعات على النفوذ في البلاط الملكي، لا سيما وأن فينولون كان مربّي دوق **Bourgogne** ولي العهد"، Urbain، Cu، L'abbé Ledieu historien de Bossuet: notes critiques sur le texte de ses "Mémoires" et son "Journal"، article in Revue Littéraire de la France، Vol 4، No 4، 1897، pp560-565.

21- صليبا، د. لويس، إشارات شطحات ورحيل، أناشيد ومختارات صوفية مع أبرز شطحات البسطامي والحلاج ولوحات لعدد منها ودراسة لها، تقديم المستشرق بيير لوري، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط3، 2013، ص8.

22- ابن خلدون، عبدالرحمن (732-808هـ)، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط1، 1996، ص102.

23- ابن تيميّة، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد (661-728ه)، مجموعة الرسائل والمسائل، تحقيق محمد رشيد رضا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1992، ج1، ص94.

24- المنّاوي، الشيخ زين الدين محمد عبدالرؤوف (952-1021هـ)، الكواكب الدرّية في تراجم السادة الصوفيّة أو طبقات المنّاوي الكبرى، تحقيق وتعليق د. عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، 1994، ج1، ص203.

président français Nicolas Sarkozy était convaincu que l'Ukraine serait un jour membre de l'OTAN, mais qu'il n'y avait pas d'intérêt à précipiter le processus et contrarier la Russie, surtout su le public ukrainien était majoritairement contre l'adhésion ». Gordon poursuit en paraphrasant l'opinion de Levitte que, « La déclaration du sommet de Bucarest était très claire que l'OTAN avait la porte ouverte et que l'Ukraine et la Géorgie avaient une vocation à rejoindre l'OTAN». Au sommet de l'OTAN d'avril 2008 en Roumanie, il fut demandé à la Croatie et à l'Albanie d'adhérer – ils l'ont fait en 2009 – et une décision concernant l'Ukraine et la Géorgie fut repoussée à décembre 2008. Mais en août, les forces géorgiennes ont attaqué la province de sécessionnistes d'Ossétie du Sud – peut- être sous l'illusion que l'OTAN viendrait à leur rescousse – déclenchant une courte et désastreuse guerre avec la Russie. Le vote sur la Géorgie et sur l'Ukraine fut rangé dans un placard à la fois à cause de cette guerre et d'un sondage Gallup indiquant que %40 des Ukrainiens considéraient que l'OTAN était une menace, et que seulement %17 de la population avait une vue favorable de l'alliance.

https://dispatchesfromtheedgeblog.wordpress.com/11/03/2014/wikileaks-ukraine-nato/

12 - DAUBENTON Annie, Op.cit., pp.-146 ,145

13 - Ibid.

14 - ARJAKOVSKY Antoine, Russie, Ukraine : de la guerre à la paix? Parole et silence, Plans-Sur-Bex (Suisse), 2014, p.16

15 - Ibid, pp.265-255.

16 - Ibid, p.258

17 - Ibid, pp.260 ,259.

18 - Ibid, p.260.

19 - Ibid.

20 - Ibid.

21 - Ibid., pp.265-261.

22 - «La troisième révolution ukrainienne», Entretien avec Andriy Parubiy, Politique internationale, n:-144 été 2014, p.73.

23 - Ibid.

24 - SCHMITT Olivier, «L'Ukraine dans la grande stratégie russe», Analyse de la crise ukrainienne, Regards universitaires (vol.2), Institut de Recherche Stratégique de l'Ecole Militaire (IRSEM), p.3

25 - Ibid.

26 - Ibid.

Russie: « l’élargissement de l’OTAN n’a rien à voir avec la modernisation de l’alliance, ni avec la sécurité en Europe. Au contraire, c’est un facteur représentant une provocation sérieuse et abaissant le niveau de confiance mutuelle. Nous sommes légitimement en droit de demander ouvertement contre qui cet élargissement est opéré ». GOURDIN Patrice, op.cit., p.352.

7 - On note à ce propos le soutien fervent et constant à Vladimir Poutine des minorités russophones ukrainiennes adeptes du christianisme orthodoxe et acceptant l’autorité du patriarcat de Moscou. GOURDIN Patrice, Op.cit., p.351.

8 - DAUBENTON Annie, L’indépendance à tout prix, Buchet Chastel, Paris, 2014, p.145.

9 - Ibid.

10 - « La troisième révolution ukrainienne », Entretien avec Andrey Parubiy, Politique internationale, n :-144été 2014, p.73.

11Un accord a été signé en février 1990 entre le dirigeant soviétique d’alors Mikhaïl Gorbatchev, le Secrétaire d’Etat US James Baker, et le Chancelier allemand Helmut Kohl. Le problème à l’époque était l’Allemagne et l’OTAN. Selon le traité ayant mis fin à la Deuxième Guerre Mondiale, les Soviétiques avaient le droit de garder des troupes en Allemagne de l’Est. Les USA et les Allemands essayaient de négocier une réunion des deux Allemagnes qui retirerait les 380.000 soldats soviétiques stationnés à l’Est, tout en conservant des forces US et de l’OTAN à l’Ouest. Les Russes voulaient bien retirer leurs troupes, mais seulement si les USA et les forces de l’OTAN ne remplissaient pas le vide ainsi créé. Le 9 février, Gorbatchev a dit à Baker que «toute extension de la zone d’influence de l’OTAN serait inacceptable». Baker lui a assuré que «La juridiction de l’OTAN ne bougerait pas d’un pouce vers l’est». De sa part, le Chancelier allemand de l’époque Helmut Kohl a assuré au dirigeant soviétique que «Naturellement l’OTAN ne pouvait pas étendre son territoire» en Allemagne de l’Est. WikiIeaks a révélé un câble secret décrivant une réunion entre des diplomates français et Etats-Uniens qui suggère que l’annexion de la Crimée s’inscrit fans l’objectif de la Russie de bloquer un plan de l’Organisation du Traité de l’Atlantique Nord (OTAN) pour venir s’installer jusqu’à la frontière occidentale de la Russie. Le plan russe de l’annexion de la Crimée a été mis en route au moins depuis 2009. Intitulé «A/S Réunion de Gordon avec des décideurs politiques à Paris», le câble résume une petite réunion du 16 septembre 2009 entre Philip Gordon, alors Secrétaire d’Etat US adjoint pour les Affaires Européennes et Eurasiennes, et les diplomates français Jean-David Levitte, Damien Loras, et François Richier. Selon le câble, Levitte, ancien Ambassadeur de France aux USA de 2002 à 2007, place l’interjection que «Le

minimalistes décidées contre les dirigeants russes, tandis que de son côté, Kiev pouvait «déclarer la victoire» [25].

Certains analystes voient que le bilan est néanmoins très satisfaisant pour Vladimir Poutine, puisque l'annexion de la Crimée a été complètement oubliée et qu'il a démontré à Kiev sa capacité à faire monter la tension au besoin en manipulant les groupes russophones, un signal que les autorités ukrainiennes n'oublieront probablement pas, contraintes qu'elles le sont d'engager une réforme constitutionnelle favorisant l'autonomie des régions comme le souhaitait Moscou[26].

Ainsi, et toujours selon certains observateurs, se pose la question, devant une victoire présumée de Vladimir Poutine, sur l'efficacité des sanctions imposées par les Etats Unis et l'Union européenne à l'égard de la Russie, des sanctions qui ont porté le parfum de la guerre froide et rallumé le conflit Est/Ouest.

REFERENCES :

1 -http://tnova.fr/études/la-crise-en-crimée-pourquoi-que-faire

2 - Ibid.

3 - GOURDIN Patrice, « Ukraine : Géopolitique d'un Etat tampon », Géopolitique de la Russie et de son environnement, Diploweb.com, 24 janvier 2016, pp.352 ,351.

4 -En 26 mars 2017, nous avons assisté à des manifestations réunissant des milliers de Russes, qui ont eu lieu en Russie à Moscou à l'appel d'Alexeï Navalny, figure de l'opposition de à Vladimir Poutine, pour dénoncer la corruption, et ce malgré l'interdiction dans la plupart des cas des autorités locales. L'opposant a été arrêté, avec plusieurs centaines d'autres manifestants.

Un tel rassemblement n'avait été vu à Moscou depuis les grandes manifestations de l'hiver 2012. Manifestations en Russie : l'opposant Alexeï Navalny arrêté à Moscou-RFI, www.rfi.fr> Asie pacifique>20170326.

5 - http://tnova.fr/études/la-crise-en-crimée-pourquoi-que-faire

6 - Dans le même contexte, Vladimir Poutine, le président russe actuel, a aussi redouté que l'Alliance atlantique ne profite des dispositions pro-occidentales des dirigeants pro occidentaux dans l'espace de son étranger proche pour s'élargir vers l'est. De son point de vue, exprimé avec véhémence le 10 février 2007 à la conférence de Munich sur la sécurité, l'avancée de l'OTAN vise exclusivement à encercler la

nouvel empire[22].

Vladimir Poutine ne veut pas seulement étendre sa mainmise sur la Crimée, ni même sur le Donbass. Ce qu’il souhaite, c’est contrôler l’Ukraine entière[23].

Se pose alors la question sur la stratégie russe menée précisément par Poutine afin de rendre à Moscou sa puissance et son influence sur la scène internationale[24].

Poutine considère les relations internationales comme un jeu à somme nulle, où ce qui est gagné par un acteur, l’est forcément au détriment de l’autre. Ainsi, ses buts sont de faire reculer l’influence occidentale en Europe de l’Est, afin de permettre à la Russie d’étendre ses propres zones d’influence.

Cette stratégie le conduit à s’entourer des trous noirs économiques (Ukraine, Biélorussie) et de conflits gelés (Transnistrie, Abkhazie, et Ossétie du Sud), que Moscou pense plus faciles à influencer en fonction de ses intérêts.

La politique russe en Ukraine se comprend alors dans ce contexte, c’est-à-dire dans la grande stratégie russe consistant et visant à recréer une sphère d’influence. La manœuvre poutinienne se décompose ainsi en trois phases : identifier l’opportunité, changer le statu quo, forcer l’adversaire à reconnaître le nouveau statu quo. Cette manœuvre a été à l’œuvre en Ukraine depuis le début de la crise.

L’objectif étant de refaire de l’Ukraine un Etat-client, Poutine a profité des troubles initiés par la Révolution ukrainienne pour envahir la Crimée et justifier le retour de celle-ci dans le giron russe.

La difficulté n’était pas l’invasion elle-même (à laquelle la grande majorité de la population de Crimée était favorable) mais de faire accepter ce changement à ses adversaires : le gouvernement ukrainien et les Occidentaux. Pour ce faire, la Russie a augmenté les enjeux en téléguidant les populations russophones de l’Est de l’Ukraine et en massant des troupes à la frontière, faisant ainsi miroiter la possibilité d’une déstabilisation plus profonde de l’Ukraine voire d’une invasion.

La réunion qui s’est tenue à la suite à Genève a été l’étape suivante: semblant entendre raison, la Russie est apparue comme souhaitant calmer les tensions. Les Etats occidentaux ont interprété ceci comme un geste dans la bonne direction et vont laisser expirer les sanctions

politique. On comprend qu'on est loin ici du cas de la Crimée qui, en mars 2014, relève toujours de la souveraineté ukrainienne. De plus, l'ensemble des membres du Conseil de sécurité se sont prononcés le 17 mars contre le référendum en Crimée (à l'exception de la Russie, la Chine s'étant abstenue). La deuxième différence majeure est que, dans le cas du Kosovo, le Tribunal Pénal International pour l'ex-Yougoslavie (TPIY), a clairement établi des cas de purification ethnique et de crimes contre l'humanité perpétrés par la Serbie à l'endroit des Kosovars.

En Crimée, il n'y a pas eu un seul coup de feu avant que «les hommes verts» de Russie n'envahissent la péninsule. On compte en revanche plusieurs victimes parmi les Ukrainiens et les Tatars de Crimée. Enfin, à la différence de la Crimée qui a été annexée en 15 jours par la Russie, la reconnaissance de l'indépendance du Kosovo par les Etats Unis et par la majorité des Etats européens a pris plus de huit ans. Et ce n'est qu'après l'échec de deux médiations du président finlandais, le prix Nobel de la Paix Marti Ahtisaari, et celle du diplomate allemand Wolfgang Ischinger, - chacune prévoyant des plans de coexistence des deux nations serbe et kosovare qui ne déterminaient pas la forme du régime final de souveraineté, que le Kosovo en est venu à prendre ses responsabilités.

A la fin de son discours, Poutine donne le fond de sa mythologie. Il considère que la Russie souffre de la même blessure que l'Allemagne qui fut partagée en deux Républiques pendant la guerre froide.

« Notre nation, cependant, a soutenu sans équivoque le désir sincère et irrésistible des Allemands pour une unité nationale. Je suis convaincu que vous n'avez pas oublié cela, et je m'attends à ce que les citoyens d'Allemagne soutiennent également l'aspiration des Russes, de la Russie historique, à restaurer l'unité ». On voit mal donc en quoi le parallèle peut tenir. En effet, c'est l'URSS qui s'est auto-effondrée en 1991, l'indépendance de l'Ukraine ne fut pas une décision extérieure. Elle repose sur un référendum auquel a participé largement la population de l'Est et du Sud.

Deuxièmement, ce n'est qu'une minorité des Ukrainiens du Donbass qui souhaite l'intégration à la Russie. Ainsi, une grande partie des analystes, surtout occidentaux, voient que le projet de Vladimir Poutine, c'est cette idée maniaque consistant à restaurer le territoire de l'empire tsariste dont avait hérité l'URSS et de fondre les deux héritages dans un

Certains voient qu'il y a beaucoup de mauvaise foi dans cette partie du discours: Au sujet de l'OTAN, aucun traité n'a jamais été signé interdisant l'intégration par l'OTAN de nouveaux membres. Poutine dit faussement que le gouvernement ukrainien a déclaré vouloir faire partie de l'OTAN alors que le premier ministre Iatseniouk a très tôt affirmé, malgré l'annexion de la Crimée, et avec sang-froid, qu'il ne demandait pas à faire partie de l'OTAN. Par ailleurs, Poutine sait que le droit à l'auto détermination de l'Ukraine en 1991 était possible dans la mesure où l'Union soviétique s'était abordée en 1990 à l'époque de M. Gorbatchev, ce qui fut confirmé le 21 décembre 1991. De plus, poutine sait qu'il n'y avait absolument aucune provocation en Crimée avant l'intervention russe. Poutine a lui-même reconnu par la suite qu'il s'agissait de soldats russes qui se trouvaient derrière «les forces d'auto-défense».

En définitive, Poutine justifie entièrement sa vision des relations internationales, basées sur ce qu'on appelle «le droit du plus fort» en se référant à l'exemple du Kosovo. Ceci est très discutable puisqu'il faut distinguer entre droit international et droit des Etats-nations ce que mélange allègrement Poutine.

Le président russe se réfère dans son discours à la décision de la Cour Internationale de Justice autorisant en 2010 le Kosovo à déclarer son indépendance. Angela Merkel a estimé que cette comparaison était honteuse. En effet, comme l'ont expliqué Paul Linden- Retek et Evan Brewer, les cas du Kosovo et de la Crimée n'ont absolument rien à voir pour trois raisons majeures. D'une part, lorsque le 17 février 2008, le Kosovo a déclaré son indépendance, il ne se trouvait plus sous l'autorité de la Serbie mais sous protection de l'ONU. La résolution du Conseil de sécurité de l'ONU n : 1244 représente alors son cadre légal. Or, à la différence du droit des Etats-nations qui refuse toute sécession d'une région même autonome, le droit international «ne soutient ni n'empêche » une déclaration d'indépendance.

Les juges de la Cour internationale de justice ont donc estimé en 2010 que ce qui n'est pas interdit par le droit international est permis. L'usage dans de tels cas est le degré de reconnaissance internationale. En 2008, neuf des quinze membres du Conseil de sécurité de l'ONU reconnaissaient de facto le Kosovo comme Etat indépendant. La déclaration d'indépendance n'est donc venue que confirmer un fait

violons les normes du droit international. Tout d'abord, c'est une bonne chose qu'ils se souviennent enfin, au moins qu'il existe une telle chose, à savoir le droit international – mieux vaut tard que jamais. (…) Les forces armées russes ne sont jamais entrées en Crimée, elles étaient déjà là, conformément à un accord international. (…) Point suivant.

Lorsqu'il a déclaré son indépendance et a décidé d'organiser un référendum, le conseil suprême de Crimée s'est référé à la Charte des Nations- Unies, qui parle du droit des nations à l'autodétermination. A ce propos, je tiens à vous rappeler que lorsque l'Ukraine a fait sécession de l'URSS, elle a fait exactement la même chose, presque mot pour mot. L'Ukraine a utilisé ce droit, mais les habitants de la Crimée se le voient dénié. Pourquoi donc? (…) Nous ne cessons d'entendre de la part des Etats- Unis et de l'Europe occidentale que le Kosovo est une sorte de cas particulier. Qu'est- ce qui le rend si spécial aux yeux de nos collègues? Il s'avère que c'est le fait que le conflit au Kosovo ait donné lieu à tant de pertes en vies humaines. Est-ce là un argument juridique? La décision de la Cour internationale de justice (CIJ) ne dit rien à ce sujet. Ce n'est même pas un «deux poids deux mesures», c'est du cynisme brutal, primitif, colossal. (…) Depuis la dissolution de la bipolarité de la planète, nous n'avons plus de stabilité. Les principales institutions internationales ne sont pas renforcées, au contraire, dans de nombreux cas, elles se dégradent gravement. Nos partenaires occidentaux, menés par les Etats Unis d'Amérique, préfèrent ne pas être guidés par le droit international dans leurs politiques concrètes, mais par la force des armes. Ils en sont venus à croire en leur exclusivité et à leur exceptionnalisme, à croire qu'ils peuvent décider eux-mêmes de ce que doivent être les destinées du monde, à croire qu'ils sont les seuls à être toujours dans leur bon droit.

(…) Au contraire, ils nous ont menti à plusieurs reprises, ils ont pris des décisions dans notre dos, ils nous ont placés devant des faits accomplis. Cela s'est produit avec l'expansion de l'OTAN vers l'Est ainsi qu'avec le déploiement d'infrastructures militaires à nos frontières. Ils nous répétaient à chaque fois la même chose : «Eh bien, cela ne vous concerne pas.» Facile à dire. (…) Permettez-moi de souligner également que nous avons déjà entendu des déclarations de Kiev selon lesquelles l'Ukraine allait bientôt rejoindre l'OTAN».

La Crimée n’est donc devenue une colonie russe qu’entre la fin des années 1850 et 1922.

Après la révolution de 1917, on dit qu’il est faux de dire que la Crimée soit devenue russe puisque fut créée une République socialiste soviétique de Crimée. Elle n’est redevenue russe qu’à partir de 1945 et Sébastopol en 1948. Le 19 février 1954, en pleine période de décolonisation dans le monde, et comme c’est déjà mentionné, Nikita Khrouchtchev ne fit que rendre à l’Ukraine son bien en intégrant l’oblast de Crimée à la République socialiste soviétique d’Ukraine. En 1991, la population de Crimée a confirmé par référendum son attachement à la République d’Ukraine[17].

On est donc loin des affirmations suivantes de Vladimir Poutine qui joue sur la mémoire des générations et non sur l’histoire[18] : «Dans les cœurs et les esprits des gens, la Crimée a toujours été une partie inséparable de la Russie. Cette conviction profonde est fondée sur la vérité et la justice et a été transmise de génération en génération, au fil du temps, en toutes circonstances, malgré tous les changements dramatiques que notre pays a connus tout au long du XXe siècle».

La Crimée a appartenu à la Russie comme on l’a vu au cours de son histoire moins de 80 ans. Il est bien vrai que Sébastopol est resté vingt ans de plus sous domination russe. Mais il existait précisément des accords historiques entre l’Ukraine et la Russie qui prévoyaient depuis 1996 que la flotte de la Mer Noire puisse rester à Sébastopol seulement jusqu’en 2017 (accords prolongés en 2010 sous la présidence Ianoukovitch jusqu’en 2042[19].

Enfin, pour ce qui est de l’argument religieux selon lequel la Russie tire ses croyances de la conversion du prince Vladimir en 988 à Chersonèse, il serait dangereux d’en tirer comme conclusion que la Crimée devrait pour cela devenir russe. On dit à ce propos que ce n’est pas parce que Clovis a été baptisé par un évêque soumis au pape de Rome que l’Italie doit devenir aujourd’hui française[20].

Concernant les arguments juridiques présentés par le Kremlin[21], ceux-ci sont profondément mêlés à la stratégie militaire de Poutine, qui déclare à ce propos:

« Cependant, qu’est-ce que nous entendons de la part de nos collègues en Europe occidentale et en Amérique du Nord ? Ils disent que nous

pense que là où on parle russe, la Russie doit assurer la protection de ces personnes. On n'imagine pas que la France organise un référendum en Wallonie au prétexte que la majorité des Belges sont francophones. C'est que l'Etat russe est influencé par l'Eglise Orthodoxe de Russie qui propose une vision nationaliste de l'Eglise. Celle-ci propose ainsi depuis 2003 à la diaspora russe vivant à l'étranger de s'organiser selon le principe de la langue et de l'origine ethnique. Elle fait donc fi de la présence d'autres communautés orthodoxes appartenant à d'autres patriarcats et elle prend encore moins en compte la présence des autres Eglises chrétiennes majoritaires dans ces pays. Ceci a été considéré comme une hérésie qui a été condamnée par l'Eglise Orthodoxe à la fin du XIX siècle.

De plus, le recensement de 2001 montre que seulement %58,3 de la population est ethniquement d'origine russe (il y a aussi 24,3 % de citoyens ukrainiens d'origine ukrainienne, et %12 de citoyens d'origine tatare).

Le 2ème argument de Vladimir Poutine est historique[16] : «Tout en Crimée évoque notre histoire et notre fierté commune. C'est l'emplacement de l'ancienne Chersonèse Taurique, où le Grand-prince Vladimir Ier a été baptisé. Son exploit spirituel, à savoir l'adoption du christianisme orthodoxe, a prédéterminé la base globale de la culture, de la civilisation et des valeurs humaines qui unissent les peuples de la Russie, de l'Ukraine et de la Biélorussie. Les tombes des soldats russes qui ont permis l'intégration de la Crimée à l'Empire russe se trouvent également en Crimée. C'est aussi Sébastopol – une légendaire ayant une histoire exceptionnelle, une forteresse qui constitue le lieu de naissance de la Flotte russe de la mer Noire».

On a déjà parlé suffisamment des dangers du lien de continuité exclusif que Poutine et le patriarche de Moscou Kirill établissent entre la Rous' de Kiev et la Russie actuelle. On rappelle encore une fois que l'Etat russe ne prend naissance qu'au XVIIe siècle. Par ailleurs, s'il est vrai que Catherine II a signé un traité avec les Ottomans en 1774 à Kutchuk Kaynardja, la Crimée y devient indépendante. Dans les faits, le khanat devient un protectorat russe.

Mais les Russes n'ont occupé physiquement la Crimée qu'après leur défaite lors de la guerre de 1856 -1854 contre la France et l'Angleterre.

fondre les deux héritages dans un nouvel empire10. Boris Eltsine tentait ainsi de modérer la marche de l’Ukraine vers l’OTAN11 au moment où le président ukrainien était en train de négocier son partenariat avec l’alliance[12].

On souligne à ce propos que Moscou avait longtemps travaillé en sous-main pour récupérer le contrôle politique sur la presqu’île : alors que la Crimée retrouvait son statut d’autonomie au sein de l’Etat ukrainien dès 1992, et reçut immédiatement l’offre politique de Moscou[13].

Juste après la destitution du président ukrainien Ianoukovitch, le pays se plonge dans un état de chaos surtout à l’est et au sud de l’Ukraine où se sont mobilisés les groupes ukrainiens pro- russes contre le nouveau gouvernement de Kiev.

L’annexion de la Crimée s’inscrit donc dans le contexte gros de la crise. Juste après l’annexion, tout portait à croire que l’Etat russe a pris la décision d’annexer la région Est et Sud de l’Ukraine, ce qui lui permettrait de contrôler l’ensemble de la côte de la Mer Noire, d’avoir un accès terrestre à la Crimée et de pouvoir rejoindre la région de Transnistrie[14].

Il n’allait pas de cette façon et le Kremlin se contentait de l’annexion de la Crimée, ce qui a posé la question sur la particularité de la Crimée et les véritables raisons russes qui ont poussé Poutine à l’annexer, elle seule, sans les autres parties Est-Sud de l’Ukraine où les populations pro-russes sont très actives.

B- Les arguments de Poutine :

Vladimir Poutine a cherché à justifier l’annexion de la Crimée à l’aide de trois séries d’arguments[15]: sociologiques, historiques et juridiques.

Son premier argument est d’affirmer que %82 de l’électorat a pris part au vote et que %96 d’entre eux se sont prononcés en faveur de la réunification avec la Russie. Il ajoute que « la péninsule de Crimée est aujourd’hui de 2,2 millions de personnes, dont près de 1,5 millions sont Russes ». Ces chiffres sont faux. En effet, Vladimir Poutine confond à dessein l’origine ethnique avec la citoyenneté.

La réalité est que seulement 58,3 % de la population de Crimée est ukrainienne d’origine russe. Être russophone ne signifie pas être russe. C’est tout le problème de la guerre russo-ukrainienne. L’Etat russe

ne cachant pas leur défiance à l'égard de la tutelle de Moscou. Ils présentaient par ailleurs certaines particularités comme (pacifisme, prise en main par des organisations de la société civile très structurée, appui logistique, de certaines grandes fondations américaines privées…) qui ont conduit la Russie à craindre la propagation de révolutions « clé en main ».

A ce stade de l'analyse, la crise actuelle ukrainienne semble toutefois diverger du modèle des révolutions de couleur sur au moins deux points que sont : l'importance du facteur nationaliste dans la crise[7] et l'escalade de la violence.

II: La Crimée russe ou russophone?

On se demande toujours sur l'identité de la Crimée(A), mais aussi sur les arguments utilisés et présentés par Vladimir Poutine afin de l'annexer en 2014(B).

A- L'identité de la Crimée

On répète inlassablement que la Crimée est une partie du territoire russe, elle «tombe dans le dot de l'Ukraine par un hasard de l'histoire»[8]:

croyant bien faire, Khroutchev l'offre en 1954 à la République soviétique d'Ukraine pour sceller l'amitié séculaire entre les peuples russe et ukrainien. Si l'intention était louable selon certains avis, le résultat ne fut pas celui escompté. Après l'indépendance de l'Ukraine, la presqu'île fut l'enjeu des premiers conflits entre les deux Etats. Le Parlement russe décidait en 1992 «d'examiner la constitutionnalité» de cette décision prise une quarantaine d'années plus tôt. En vain, il ne restait plus qu'à taquiner la péninsule par tous les moyens[9].

Le partage de la flotte de la Mer Noire provoque accrochages et négociations inabouties jusqu'au printemps 1997. Le «traité d'amitié et de coopération» finit par être signé par les présidents Koutchma et Eltsine: ceux-ci s'accordent sur le partage de la flotte et la location pour vingt ans des installations portuaires en échange d'une partie du règlement de la dette énergétique.

Ainsi, une grande partie des analystes, surtout occidentaux, voient que le projet de Vladimir Poutine, c'est cette idée maniaque consistant à restaurer le territoire de l'empire tsariste dont avait hérité l'URSS et de

entend maintenir les structures euro atlantiques à distance de ses marges.

La doctrine de défense russe, signée par le président Medvedev le 5 février 2010, identifiait comme la première des principales menaces militaires extérieures, la volonté de doter la force de l'Organisation du Traité de l'Atlantique Nord (OTAN), «de fonctions globales en violation des normes du droit international et celle «de rapprocher les infrastructures des Etats membres de l'OTAN des frontières de la fédération de la Russie, notamment en ce qui concerne l'élargissement de ce bloc»[6].

Les bombardements par l'alliance des positions serbes à l'occasion des épisodes successifs puis l'extension de l'OTAN en Europe de l'Est ont été perçus comme un affront direct aux intérêts russes.

Depuis lors, la Russie n'a cessé de chercher à limiter la présence occidentale dans ses marges. Le conflit d'août 2008 en Géorgie a eu notamment comme conséquence d'écarter de manière quasi définitive la perspective d'une intégration de Tbilissi à l'OTAN.

De la même manière, Dimitri Medvedev a mis à profit l'accession du Parti des Régions à Kiev pour négocier avec l'Ukraine un accord dit «flotte de gaz» à Kharkiv en avril 2010 scellant de facto un rapprochement stratégique avec la Russie. Aux termes des stipulations de cet accord, l'expiration du bail de la flotte russe à Sébastopol prévu initialement pour 2017 a en effet été repoussée à 2042 en contrepartie d'une réduction évaluée à 40 Mds de dollars sur dix ans de la facture gazière ukrainienne.

Plus significatif encore, la Rada adoptait en juin une loi «sur les fondements de la politique intérieure et extérieure du pays», consacrant le caractère «hors bloc», de l'Ukraine et annulant par-là les efforts entrepris par l'ancien gouvernement pour se rapprocher de l'OTAN. Selon certains analystes russes, la crise ukrainienne de 2014 telle qu'entretenue par Moscou, pourrait ainsi savoir à prémunir l'espace post soviétique d'un nouveau cycle de «révolutions de couleur» qui sont fortement assimilées à des tentatives de pénétration euro- atlantiques dans l'étranger proche.

Ces mouvements politiques du début des années 2000 (« révolution des roses» en Géorgie en 2003, « révolution orange » en Ukraine en 2004 et, dans une moindre mesure, «révolution des tulipes» au Kirghizstan en 2005) avaient en effet conduit à l'accession au pouvoir d'équipes

par sa stabilité politique. Cette stabilité, du moins comprise comme le maintien au pouvoir de Vladimir Poutine et de ses affidés. Rappelons à ce propos que Poutine se trouva doté d'une majorité confortable au Parlement en 2011, puis réélu président en 2012 dans des conditions contestables et contestées. Par conséquent, il redoute la contagion[4] d'une victoire remportée à ses frontières par tout mouvement favorable à la démocratie et hostile à la corruption ainsi qu'à la fraude. Ensuite, instrumentalisant et usant du sentiment d'humiliation ressenti par une partie des élites dirigeantes et de la population, Vladimir Poutine s'est fait le chantre de la grandeur russe perdue et se pose en héros de sa restauration. Cela entraîne une série d'actions politiques et/ou militaires.

D'abord, la conservation par tous les moyens des «sujets» composant la Fédération de la Russie, comme la Tchétchénie. Puis la reprise et l'amplification de la politique entamée des 1992 en vue de constituer une zone d'intérêt exclusif sur cet «étranger proche» constitué des anciennes républiques soviétiques juridiquement sinon toujours effectivement indépendantes depuis 1991. De plus, la création et/ou l'entretien des foyers d'instabilité par le biais des conflits gelés comme en Moldavie (Transnistrie) ou dans le Sud Caucase (Abkhazie, Ossétie du Sud, Haut Karabakh). Enfin, la récupération de territoires considérés comme russes, telle la Crimée qui, rappelons-le, n'avait jamais été ukrainienne avant 1954, date à laquelle Khrouchtchev l'offrit à la RSS d'Ukraine, sans que cela revêtit alors la moindre importance politique réelle. Les évènements ont montré qu'il fallait prendre au sérieux les propos tenus par Vladimir Poutine, dans son discours annuel - mentionné au début de cet article -sur l'état de la Russie, le 25 avril 2005 : «l'effondrement de l'Union soviétique a été une catastrophe géopolitique majeure du XXe siècle».

Il affirmait plus loin: «nous désirons accroître l'indépendance de la Russie et renforcer sa souveraineté. Nous sommes une nation libre. Et notre place, dans le monde d'aujourd'hui, je tiens à le souligner avec insistance, dépendra uniquement de notre force et de nos succès». Il est difficile d'être plus explicite.

D- Sur le plan stratégique[5] :

La Russie qui reste marquée par la conscience de sa vulnérabilité,

B- Sur le plan économique[2]:

Vladimir Poutine a fait de l'avènement de l'Union eurasiatique la priorité de sa politique étrangère dans l'étranger proche.

Compte tenu de l'échec de la CEI à s'affirmer comme une instance d'intégration pour les anciennes républiques de l'Union Soviétique, la voie de la coopération renforcée a été privilégiée par la Russie qui a encouragé le lancement le 6 juillet 2012, d'une Union douanière réunissant la Russie, la Biélorussie et le Kazakhstan. Cette Union eurasiatique, qui peut être regardée comme la déclinaison économique de l'espace culturel décrit précédemment, ne saurait se comprendre sans l'Ukraine.

En effet, les structures économiques de ce pays restent substantiellement tournées vers la Russie, qui demeure, après l'Union européenne prise dans son ensemble, son premier client (%24 des exportations ukrainiennes) et son premier fournisseur (%19,4 des importations ukrainiennes)

.Au-delà, la production industrielle qui reste une composante majeure de l'économie ukrainienne particulièrement à l'est du pays, demeure tributaire de l'approvisionnement en pétrole et gaz russes compte tenu du défaut de matières premières et l'obsolescence des différentes infrastructures énergétiques (centrales thermiques ou nucléaires).

La Russie a désabusé de la dépendance ukrainienne à son profit en exerçant le chantage gazier comme arme énergétique contre l'Union européenne et l'Ukraine.

A titre d'exemple, en 2006 et en 2009, deux suspensions de livraison ont ainsi été opérées par Gazprom qui, poussé par les autorités russes, cherche de manière régulière à s'implanter dans le secteur gazier ukrainien.

La Russie entend ainsi disposer d'un droit de regard sur ce secteur, étant donnée la situation géographique ukrainienne qui fait du pays une voie de transit pour près de %50 du gaz russe à destination de l'Europe occidentale (via le gazoduc Brother Hood ou Druzhba en particulier).

C- Sur le plan politique[3]:

On dit que tout, dans le dossier ukrainien, intéresse Moscou, surtout sur le plan politique. En premier lieu, la Russie était toujours obsédée

La seconde réponse fut la déstabilisation de l’Est de l’Ukraine, en instrumentalisant les pro-russes ukrainiens: ces derniers ont refusé de reconnaître le nouveau gouvernement qui a remplacé celui de Ianoukovitch.

L’annexion de la Crimée semble donc s’inscrire dans un contexte de pénalisation de l’Ukraine, elle trouve ses raisons d’abord et plus généralement dans les intérêts russes en Ukraine (I), mais aussi dans la particularité de la péninsule (II).

I : Les Intérêts Russes en Ukraine

Il est clair que la diplomatie russe s’investirait volontairement dans la crise ukrainienne de 2014 et ceci est dû à plus d’une seule raison :

A- Sur le plan culturel et historique[1] :

L’Ukraine continue toujours à constituer dans l’imaginaire russe, une partie intégrante du monde russe.

Certains analystes voient que contrairement à ce qui est parfois abusivement perçu comme la réactivation de réflexes issus de la guerre froide, l’attitude russe dans la crise ukrainienne semble relever davantage d’une logique nationaliste que d’un calcul impérialiste.

En dépit de déclarations dont on peut penser qu’elles sont destinées à faire craindre la Russie sur la scène internationale, la politique étrangère russe semble en effet de manière constante depuis les années 1990, aspirer à recréer un cercle restreint d’Etats et de communautés appartenant à une civilisation russe dont Moscou serait le dépositaire et la garante. Vladimir Poutine l’a approuvé lui-même:

«La Russie entend favoriser activement le développement de la collaboration des participants à la CEI (Communauté des Etats Indépendants) dans le domaine humanitaire en préservant et en accroissant le patrimoine culturel et civilisationnel commun qui dans le contexte de mondialisation est une ressource importante pour la CEI… Une attention particulière doit être accordée aux mesures visant à soutenir nos compatriotes résidant aux pays de la CEI, aux accords sur la protection de leurs droits et libertés dans les domaines de l’éducation, des langues, de l’emploi, ainsi que des droits et des libertés sociaux, humanitaires et d’autres».

La Russie avait toujours cette nostalgie à la guerre froide, une période pendant laquelle elle a partagé le pouvoir avec les Etats- Unis. A cette époque, le monde était bipolaire et presque divisé en deux camps : Un Camp Occidental présidé par les Etats- Unis et un Camp Oriental présidé par l'URSS (l'Union des Républiques Socialistes Soviétiques).

En 1991, le monde a assisté à la dissolution de l'URSS, et par conséquent, à la fin de la guerre froide. Un monde unipolaire va se dessiner bientôt, présidé cette fois par les Etats- Unis d'Amérique qui vont fêter et traduire leur victoire par imposer leur hégémonie sur la scène internationale.

La Russie avait dès lors ce sentiment de honte et de ressentiment en ayant perdu son statut de superpuissance sur la scène internationale. Vladimir Poutine, le président russe actuel s'est exprimé ouvertement et carrément à ce propos en affirmant que «la chute de l'URSS est la plus grande catastrophe géopolitique du siècle dernier».

Sous la présidence de Poutine, la Russie a effectué un retour remarquable sur la scène internationale en s'impliquant fortement dans des dossiers régionaux et internationaux (qu'il s'agisse des Balkans, du Proche Orient ou encore de l'Iran).

Le dossier ukrainien avait toujours constitué le dossier le plus ardent et le plus brûlant, Comment non et l'Ukraine avait toujours été un Etat tampon entre la Russie et l'Occident, un Etat qui jouissait d'une importance stratégique et géopolitique pour la Russie pour plusieurs raisons.

L'annexion de la Crimée en 2014 s'inscrivait toujours dans ce contexte. Elle n'est pas séparable de la crise ukrainienne de 2014 qui a débouché sur la destitution de Viktor Ianoukovitch, le président ukrainien de l'époque, et la victoire de la révolution de dignité de Maïdan, une révolution pro - européenne et anti- russe et qui a été soutenue par l'Occident y compris les Etats - Unis.

Provoqué par ces évènements précités, l'Ours russe n'a pas tardé de réagir:

La première réponse fut l'annexion de la Crimée suite à un référendum hâtif tenu le 27 mars 2014 par lequel la population criméenne s'est prononcée en faveur d'un rattachement à la Russie.

Le Retour de la Russie sur la scène internationale «Etude De Cas: L’Annexion De La Crimée»

LT. Colonel Dr. Toufic El Hajj